

أوهام الوحدة وأطماع السلطة

ثورات فى إنتظار الحكام العرب

قوة المال وضعف الا

TOP SECRET

الحرية للنشر والتوزيع

خالد محمد حسن

خفايا واسرار

الحكام العرب

إعـداد

خالد محمد حسن

الحريــة 3 ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة

للنشر والتوزيع 0123877921 - 5745679

اسم الكتـــاب	خفايا واسرار الحكام العرب
تــألـــيــف	خالد محمد حسن
الـنـاشــــــر	الحرية للنشر والتوزيع
	٣ ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة
	ت: ٢٦١٥٦٤٦ ـ ٥٧٤٥٦٧٩
	م: ١٢٣٨٧٧٩٢١.
رقـم الإيـداع	٢٠٠٧/٥٧٨٨
الترقيم الدولى	9 -- 24 - 37 - 26 - 916

مطبعة زهران
16 ش الـــدرديري - الأزهــر
تـليفاكس : 00(202) 2 510 7 554
002(012) 02 02 208

الحريــــة 3 ميدان عرابى وسط البلد ـ القاهرة
للنشر والتوزيع 0123877921 - 5745679










خفايا واسرار

الحكام العرب



الفصل الأول

ناصر... (صلاح الدين الجديد)



ناصر... (صلاح الدين الجديد)

ناصر.. الإنسان

(كان الرئيس جمال عبد الناصر هو أكبر أبناء عبد الناصر حسين أحد موظفى البريد فى مدينة أسيوط بصعيد مصر، وقد التحق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية فى صيف عام ١٩٣٧ حين وافقت الكلية على فتح أبوابها أمام أبناء الطبقات المتوسطة بعد أن كانت الكلية لا تضم بين جنباتها سوى أبناء الطبقات الأرستقراطية. والحاصل أن هؤلاء الطلبة الجدد الذين ينتمون للطبقات المتوسطة كانوا يشعرون بالضيق والسخط والمرارة من القصر الملكى وسياسته، بعد أن أصبح الفساد هو أحد معالمه ومظاهره، فضلاً عن الاستفزاز البريطانى لأبناء الأمة وزعمائها).

وكان عام ١٩٥٠ حافلاً بالأحداث الجسام التى أشعلت نيران الثورة فى قلوب الثوار الساخطين، حيث كان ٢٪ فقط من شريحة المجتمع المصرى تملك حوالى ٥٠٪ من ثروة الأراضى الزراعية، بينما كان باقى أبناء الشعب معدومين ومحرومين، وهو الأمر الذى دفع بعضهم للهجرة إلى المدن هرباً من ملاحقة رموز الإقطاع وسياطهم التى ألهبت ظهورهم.

أما زعماء مصر السياسيين فقد كانوا منهمكين فى صنع المكائد والدسائس لبعضهم البعض غير عابئين بمصلحة البلاد.

(أما بخصوص المستثمرين الأجانب فى تلك الفترة فقد بلغ عددهم فى مصر أنذاك حوالى مائتى ألف، وكانوا يعيشون كطبقة لها مزاياها وخصائصها التى فاقت أوضاع رجال الأعمال المصريين، وعلى رأس هؤلاء كان يوجد الملك فاروق رمز الفساد والخراب فى ربوع مصر، وبالتالى فقد أصبحت مصر تتطلع إلى فرعون جديد ينهى أحداث تلك الفترة السوداء فى تاريخ مصر، ويسدل الستار على خشبة مسرح الفساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى، أملاً فى عصر جديد ينعم الجميع فيه بالرخاء والازدهار والرفاهية.

وفى عام ١٩٥١، وبعد خمس سنوات من حصول دول الشرق العربى على استقلالها، كانت بعض مناطق مصر الساحلية المطلة على قناة السويس لا تزال تعيش تحت نير الاحتلال البريطانى ولذلك ففى الذكرى الخامسة عشرة لتوقيع معاهدة ١٩٣٦ بين الحكومة العربية ونظيرتها البريطانية قام رئيس وزراء مصر الوطنى مصطفى باشا النحاس ـ والذى كان قد بلغ الرابعة والسبعين من العمر ـ بمحاولة قطع ذيل الأسد البريطانى، حيث طالب فى خطبة علنية بضرورة سحب الخمسة وثلاثين ألفاً من الجنود البريطانيين المرابطين فى قواعد القناة، وهى الدعوة التى دفعت جماهير الشعب للخروج إلى الشارع للتعبير عن فرحتهم بهذه الدعوة، وغضبهم من وقاحة المستعمر البريطانى وإصراره على البقاء دون سبب).

ثم تأتى أحداث يناير ١٩٥٢، وهى المعركة الشهيرة التى ضربت فيها قوات الشرطة المصرية أروع المثل وأنصع صفحات تاريخها حين واجهت المستعمر البريطانى فى ٢٥ يناير ١٩٥٢، والتى راح ضحيتها المئات من رجال الشرطة شهداء للوطن، بغية خروج المستعمر وأذنابه من مصر، ثم تنتقل إلى أحداث حريق القاهرة الذى وقع فى اليوم التالى من أحداث معركة الشرطة مع الإنجليز، متهمة الشعب المصرى بالخروج إلى شوارع العاصمة للتظاهر وإحراق كافة المتاجر والمنشآت ودور السينما، وهو اتهام يخلو من الدقة والأمانة التاريخية نظراً لأن أحداث حريق القاهرة لا تزال مجهولة حتى الآن، إذ إن أصابع الاتهام أشارت إلى العديد من القوى السياسية مثل المخابرات البريطانية، واليهود الذين كانوا يعملون لحساب الوكالة اليهودية، والحزب الشيوعى

المصرى، وأيضاً الإخوان المسلمين، إلا أن أحداً حتى هذه اللحظة لا يستطيع كشف النقاب عن الحقيقة الغائبة، ولكن الشعب المصرى كان بريئاً من هذا السلوك الإجرامى.

(فى السادس والعشرين من يناير ١٩٥٢ قامت حشود من المصريين الغاضبين ـ والذين انضم إليهم عدد من العرب الذين يعيشون فى مصر ـ بالخروج إلى شوارع القاهرة لتدمير رموز بريطانيا، بدءاً من أكبر شىء إلى أصغر شىء، فقاموا بتدمير كل ملهى يعمل لخدمة الأجانب وإحراق ثلاث دور للسينما كانت ملكاً للإنجليز والأمريكان إلى جانب إحراق بنك باركليز، ثم توجهت الجماهير إلى نادى السباق وقذفوه بكرات اللهب، وقد كان أشهر الملاعب الترفيهية للإنجليز فى مصر، فتحول إلى رماد بفعل الهجمات الحارقة.

وكان جلياً أن هذا اليوم الذى أطلقت عليه الصحافة المصرية يوم (السبت الأسود للإنجليز) قد خلف وراءه دماراً رهيباً وخسائر بلغت فى حينها حوالى ثلاثمائة مليون دولار، لكنه على الرغم من ذلك لم يكن دافعاً لخروج الإنجليز، وإن كان مقدمة لإشعال ثورة يوليو ضد الملك فاروق، وهى ثورة غيرت بلا شك خريطة الشرق الأوسط وقلبت موازين قواته وأهدت للعرب صلاح الدين الجديد).

نشأت ثورة يوليو

(فى بداية عام ١٩٥٢ كانت هناك مجموعة من ضباط الجيش يعرفون باسم الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر، وقد رسمت هذه المجموعة خططها رغم أن التنظيم كان يفتقد الهيكل التنظيمى المتماسك، وكانت لها نواة من حوالى اثنى عشر عضواً، وهناك صف ثان من حوالى خمسين عضواً، ثم مستوى ثالث يضم نحو ألفى شخص كانوا يؤيدون أهداف التنظيم فيما يخص الإطاحة بالملك والحكومة، ولكنهم كانوا لا يملكون عضوية رسمية داخل التنظيم، وكان هيكل مجموعة الضباط الأحرار يضم نقباء ومقدمين ورواداً لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والثلاثين، وليست لديهم أيديولوجية يتفق عليها الجميع إلا الوظيفة فقط، فقد كانوا ثواراً لا يملكون قدراً من الثقافة، وذوى مشاعر مضطربة تتنازعها التوجهات الدينية والوطنية، إلى جانب أفكار

وخواطر وهواجس وثيقة الصلة بمفاهيم النازية والفاشية التى كانت موضة هذا العصر، وهؤلاء كانت تجمعهم علاقة جيل واحد اشترك فى نضال حرب فلسطين وتجرع المرارة والذل والهوان وعانى ويلات الحرب وضياع فلسطين، وإن كانوا قد ألقوا بمسئولية ذلك على كاهل القصر الملكى والحكومات التابعة للاستعمار البريطانى، وهو ما دفعهم لتأييد حركة زملائهم فى مجلس قيادة التنظيم للقفز على السلطة وتخليص البلاد من الملك وأعوانه من أجل إقامة جيش وطنى قوى يتمتع بالقوة والهيبة لاسترداد فلسطين المنكوبة).

أما عن أحداث ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى أذهلت العالم كله وأعادت رسم خريطة منطقة الشرق الأوسط وتولدت من خلالها صيحات وطنية ودعوات وحدوية كانت ترهف الأسماع وتشرح القلوب وتطرب الأذان.

(فى ليلة الثانى والعشرين من شهر يوليو تلقى جمال عبد الناصر إشارة عاجلة وخطيرة، مفادها أن قيادات الجيش المصرى عقدوا اجتماعاً طارئاً فى مبنى القيادة العامة لإفشال مخطط تنظيم الضباط الأحرار، والإسراع فى ضربه واعتقال رموزه وأعضائه قبل أن يقدموا على أى خطوة شأنها أن تطيح بالملك فاروق وأعوانه. وفى خطوة مفاجئة تحرك جمال عبد الناصر ومن ورائه مجموعة تكونت من حوالى تسعين ضابطاً، وقاموا بالاستيلاء على مقر القيادة العامة والوحدات العسكرية والمبانى الحكومية ومبنى الإذاعة ومراكز الاتصالات السلكية واللاسلكية، وفى الساعة السابعة من صباح يوم ٢٣ يوليو أذاعت الثورة نبأ استيلائها على الحكم. ودون أن تعرف مصر شيئاً عن أهداف الثورة وما تحمله حقائب الثوار من أفكار ومعتقدات، استقبلت الجماهير نبأ الثورة بالحفاوة والأفراح، وكان طبيعياً أن تطيح الثورة بالنظام الملكى الفاسد الذى كان أول الضحايا حيث تخلى الملك عن الحكم فى صبيحة يوم السادس والعشرين من يوليو بعد أن تلقى إنذاراً بالطرد. ومنذ قيام الجيش بثورته ضد الحكومة كان جمال عبد الناصر هو المحرك الأساسى للسياسة المصرية الجديدة، وراح الضباط الأحرار يشكلون مجلس قيادة للثورة يضم قادته ورموز التنظيم. وهو مجلس تولى قيادته جمال عبد الناصر).

وكانت هناك أحداثاً خطيرة كانت هى السبب الرئيسى لنجاح ثورة يوليو، على رأسها أن اليوزباشى يوسف صديق منصور هو الذى تلقى إشارة تفيد بعقد اجتماع طارئ لقادة الجيش الموالين للملك، وهو ما دفعه للتحرك بقواته صوب مبنى القيادة العامة ومحاصرته قبل ساعة الصفر بحوالى ستين دقيقة، فهذه الدقائق الحاسمة فى تاريخ مصر كانت سبباً رئيسياً لنجاح الثورة بعد أن كانت على وشك التدمير باجتماع قادة الجيش وأيضاً دور اللواء محمد نجيب الذى كان رمزاً نبيلاً للثورة وواجهة مشرفة لها ومصدراً لثقة باقى ضباط الجيش والشعب، الذين تلقوا نبأها بارتياح بعد أن علموا أن قائدها هو رجل يتصف بالنزاهة ويتسم بالطهارة ويشتهر بالوطنية.

مرحلة ما بعد الثورة

(فى الفترة من عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٥٤ راح جمال عبد الناصر يعمل على دعم نفوذه وسلطته خطوة خطوة، حيث قام جمال عبد الناصر بإنهاء خدمة آلاف الضباط الذين كانوا موالين لثورة يوليو، خوفاً من مطالبهم وتطلعاتهم وطموحاتهم التى تتعارض مع أهداف وطموحات مجلس قيادة الثورة، والذى سعى إلى الانفراد بالسلطة دون الأخذ فى الاعتبار دور هؤلاء الذين باركوا خطواته فى أخطر أوقات اندلاع الثورة.

ثم استجمع جمال عبد الناصر قوته ونفوذه فى مجلس قيادة الثورة من خلال كسب أصوات زملائه الثوار للتخلص من اللواء محمد نجيب الذى تولى رئاسة الجمهورية، وفرض عليه الإقامة الجبرية فى بيت السيدة زينب الوكيل بضاحية المرج، وهكذا تحول جمال عبد الناصر بين عشية وضحاها إلى أكبر مسئول فى البلاد. ومع تولى جمال عبد الناصر مقاليد الحكم قام بإغلاق الأحزاب السياسية وألقى بزعمائها فى السجون والمعتقلات، وعلى رأسهم فؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج، كما أغلق بجرة قلم كافة الصحف المستقلة والمعارضة والمشاغبة، وفرض القيود على جميع النقابات المهنية واتحادات العمال ومنظمات الطلبة فى جامعات مصر ومدارسها، حتى جاء عام ١٩٥٦ وظفر جمال عبد الناصر بلقب الزعيم والرئيس والقائد بلا منازع).

وتأتى مرحلة أحداث المنشية التى وقعت فى ميدان الجرية بالإسكندرية، وكيف أدى هذا الحادث إلى القضاء على جماعة الإخوان المسلمين وإيداعهم فى السجون والمعتقلات، وهى الخطوة التى قام بها جمال عبد الناصر للقضاء على كل من يعارض وجوده على رأس الحكم، خاصة أن جماعة الإخوان المسلمين التفت حول محمد نجيب، وهو ما جعل جمال عبد الناصر يشعر بالمخاطر والتهديدات التى تتربص به.

(لقد كان لنشأة جمال عبد الناصر وتركيبته الفكرية أبعد الأثر ليس على فعاليات السياسة فى مصر فحسب ولكن أيضاً على معظم أرجاء العالم العربى. لقد عاش ناصر طفولة مضطربة بعد أن رحلت والدته عن الدنيا وهو فى الثامنة من العمر، وقد تنقل بين أقاربه ومنزل والده، إلى جانب التحاقه ببعض المدارس الداخلية. وفى مدرسة النهضة المعروفة باهتمام طلابها بالمظاهرات المعادية للاستعمار البريطانى، تجلت سياسة جمال عبد الناصر ولمع نجمه فى سمائها وراح يخطب فى زملائه ويشاركهم فى المظاهرات، حتى تملكته فكرة البحث عن بطل لمصر يرد لها اعتبارها وكرامتها، وقد وجد فى نفسه هذا النموذج البطولى الذى يبحث عنه. وفى خطاباته لأصدقائه كان جمال عبد الناصر يكتب ويتحدث بعاطفة ملتهبة عن محبوبته ومعشوقته مصر، وكان كثيراً ما يتساءل فى يأس وضيق: من الذى يستطيع إعادة بناء البلاد حتى يتمكن الشعب المصرى من استرداد ما سلبه الفاسدون والغزاة، ومن الذى يسعى لبناء وطن حر بعيداً عن أغلال المستعمر؟ وكانت هذه الرؤية الوطنية التى استحوذت عليه هى الجسر الذى عبر عليه جمال عبد الناصر للانضمام إلى الكلية الحربية، وتكوين تنظيم ثورى تحت الأرض وقيادته للوثوب على السلطة وتخليص البلاد من رموز الفساد، كما كانت هذه الرؤية أيضاً هى التى دفعته لتولى الزعامة السياسية للعالم العربى.

ومنذ البداية كان جمال عبد الناصر قد تعهد أمام الشعب باسترداد العزة والكرامة لهم، وهى القضية التى شغلت بال جمال عبد الناصر طوال سنوات حكمه. ولعل حديثه عن الكرامة فى حادث المنشية كان هو البداية، وقد استمر ذلك جلياً فى خطاباته حتى رحل..

ومن المفارقات فى شخصية جمال عبد الناصر أنه كان حتى عام ١٩٥٤ خجولاً ويميل للعزلة والانطواء ويؤثر السكوت ولا يهوى النقاش والمجادلات، بل كانت خطاباته التى كان يلقيها عبر أثير الإذاعة تبعث على الملل والسأم.

وفى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٤ تحدث جمال عبد الناصر عن الكرامة عقب إطلاق الرصاص عليه، فضلاً عن نجاحه فى تنصيب نفسه زعيماً بلا منازع ودون مقدمات، حيث ألقى خطبة حماسية تختلف تماماً عما كان يتصف به من هدوء وملل فيما سبق من خطابات، فقد صاح عبد الناصر من الشرفة التى كانت تطل على الجماهير الغفيرة التى احتشدت وراح يقول: «أيها الرجال... ليبق كل رجل فى مكانه.. إن حياتى ملك لكم.. ودمى فداء لمصر.. إننى أتحدث إليكم بعون الله بعد أن حاول الإثم قتلى.. إن حياة جمال عبد الناصر ملك لكم.. لقد عشت من أجلكم وسوف أستمر كذلك إلى أن أموت مناضلاً من أجلكم».

وقد كانت محاولات اغتيال جمال عبد الناصر نتيجة لما قام به من الانقضاض على الجماعات السياسية المعارضة، إلا أن هذه الحادثة أعطت جمال عبد الناصر المبرر لسحق الإخوان المسلمين الذين كانوا يمثلون أخطر القوى المناهضة لنظام الثورة الجديد وسلطتها، فقام ناصر بإعدام ستة من رموز الجماعة كان على رأسهم المستشار عبد القادر عودة أحد رموز الإخوان المسلمين، فضلاً عن اعتقال الآلاف من أعضاء الجماعة الذين تعرضوا لتعذيب رهيب داخل السجون والمعتقلات وهو ما أدى بهم إلى تغيير منهجية الجماعة واتجاهها إلى الانخراط فى العمل السياسى.

إن رموز جماعة الإخوان المسلمين أكدوا مراراً فى مذكراتهم أن الحادث كان تمثيلية دبرتها أجهزة جمال عبد الناصر بالتعاون مع المخابرات الأمريكية للقضاء على الجماعة، بينما يقسم الناصريون بأغلظ الأيمان بأن الثورة وأجهزتها الأمنية بريئة من هذا المخطط، مما يجعل حادث المنشية يضاف إلى قائمة طويلة من الأحداث التى تغلفت بطابع التعتيم وعدم معرفة حقيقتها حتى اليوم، وعلى رأسها حريق القاهرة.

لقد كان جمال عبد الناصر رجلاً وطنياً وفقاً للصورة التى كانت سائدة فى حقبة الخمسينيات، حيث كان الزعيم الهندى جواهر لآل نهرو ونكروما سوكارنو ينددون بالاستعمار الغربى.

ومن منظور وطنى مصرى توجه جمال عبد الناصر إلى مؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد فى مدينة باندونج فى أبريل عام ١٩٥٥، وقد قوبل عبد الناصر من الجماهير التى تابعت أحداث المؤتمر بعاصفة من الترحيب والحفاوة، وقد تصدر منصة المؤتمر فى خطوة غير مسبوقة لزعيم عربى حيث راح يقول: (إن هناك تشابهاً كبيراً جداً بين الظروف السائدة فى دولنا وهو تشابه يعمل كقوة موحدة، فلقد خرجنا لتونا من فترة طويلة من النفوذ الأجنبى من الناحية السياسية وأيضاً من الناحية الاقتصادية).

وكان عبد الناصر يطلق دعوة صريحة ضد الغرب تردد صداها عبر معظم دول العالم الثالث، ومنها أندونيسا البعيدة مما أعاد مصر إلى مكانة بارزة على خشبة المسرح الدولى وأعطى لشعبها الكرامة التى اشتاق إليها طويلاً، ولهذه الأسباب فقد عاد جمال عبد الناصر بطلاً فى عيون شعبه وأمته.

وأصبح بعدها جمال عبد الناصر التمثال الذى تعشقه الملايين من الجماهير العربية، حيث داروا وهاموا حوله فى غيبوبة وحالة من الانبهار التى لم يشهدها العالم من قبل لأى زعيم.

واستمر جمال عبد الناصر يلقى من فوق المنصة خطاباته الحماسية لساعات طويلة دون أن يقاطعه أحد سوى بالهتافات (ناصر.. ناصر) وقد بلغ الانبهار أوجه حين حملت الجماهير سيارته الكاديلاك الحمراء على الأعناق، وجموع الفلاحين تقتحم المتاريس لمصافحته ومعانقته وكأنه ولى يلتمسون بركته. وأصبح (الريس) كما كانوا ينادونه هو الرمز والأمل وإلهام الشعراء، الذين صاغوا أروع القصائد والأدبيات للتغنى به وعنه، وزينت صور جمال عبد الناصر أسوار القاهرة وهو يلوح بيديه مبتسماً وقد كتب تحت هذه الصور (لقد أرسله الله عوناً لبلدنا).

وبعد أن لمع نجم جمال عبد الناصر كأحد أبطال الإغريق استولت عليه شهوة امتلاك السلاح لدعم جيشه وتقوية نفوذ بلاده فى المنطقة العربية للوقوف فى وجه العدو الإسرائيلى الرابض كالوحش على حدوده الشرقية. وربما كانت مذبحة غزة التى ارتكبها الجيش الإسرائيلى عام ١٩٥٥ ضد القوات المصرية هى أحد أهم دوافع جمال عبد الناصر للبحث عن مصادر لشراء الأسلحة. وبالطبع رفضت الولايات المتحدة الأمريكية الانصياع لضغوط جمال عبد الناصر من أجل شراء أسلحة ومعدات ثقيلة، وذلك حرصاً على مشاعر الساسة اليهود فى الولايات المتحدة وإسرائيل، وهو الأمر الذى دفع جمال عبد الناصر للتوجه إلى الكتلة الشرقية لشراء أسلحة سوفيتية حديثة، رغم إعلان الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا رفضهم التام لبيع أية أسلحة لمصر من أى دولة، وذلك لأن الغرب لم يكن يقبل زعامة جمال عبد الناصر وإنما يقبل زعامة الشريف حسين قائد الثورة العربية الأولى، بالإضافة إلى أن عبد الناصر كان معادياً أيضاً لأنظمة الحكم فى الأردن والسعودية والعراق ومثيراً للشغب للأنظمة السورية واللبنانية والليبية، إلا أن جاذبية جمال عبد الناصر وشعبيته أدت إلى اتساع نفوذه داخل العالم العربى، بل اختارته الشعوب العربية زعيماً لأمتها بلا منازع رغم أنف الغرب الامبريالى الذى ناصبه جمال عبد الناصر العداء والكراهية.

العدوان الثلاثى... وأثره على الاقتصاد

(فى مطلع عام ١٩٥٦ حطت إحدى السفن الضخمة المحملة بصفقة الأسلحة السوفيتية والتشيكية على رصيف ميناء الإسكندرية ـ عروس البحر المتوسط كما يحلو للمصريين أن يسموها ـ مثيرة من ورائها رياحاً محملة بمخططات استراتيجية هدفت إلى إعادة رسم خريطة منطقة الشرق الأوسط، خاصة أن الغرب الإمبريالى اعتبر أن صفقة الأسلحة الواردة من الكتلة الشرقية ـ التى تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى ـ هى البوابة الملكية لعبور الشيوعية والروس إلى المنطقة، وذلك رغم نجاح الغرب الأوروبى فى محاصرتها وتطويقها باتفاقيات ومعاهدات عسكرية وسياسية واقتصادية تهدف فى جوهرها إلى الاعتماد على الغرب الإمبريالى المتمثل فى الولايات المتحدة وإنجلترا.

وأمام هذه التحديات التى فرضتها تلك القوى الكبرى، راح جمال عبد الناصر يقتفى أثر الزعيم الهندى نهرو والزعيم اليوغسلافى تيتو، وذلك بغرض ضرب الولايات المتحدة بالاتحاد السوفيتى.

كان ناصر يتطلع بشغف شديد إلى الحصول على مولدات الطاقة الكهربائية ومياه الرى من بناء السد العالى عند أعالى نهر النيل فى أسوان، ونجح ناصر فى الحصول على معونة أمريكية بلغت حوالى سبعين مليون دولار من ميزانية صندوق المساعدات الخارجية الأمريكية بعد موافقة الكونجرس.

وبذكاء وحنكة اكتسبهما ناصر راح يلعب بالورقة السوفيتية، ملوحاً للأمريكيين بأن الروس على استعداد لدفع مبالغ تفوق منحة الكونجرس الأمريكى، ثم بلغ به الأمر أن أصدر أوامره بالاعتراف بالصين الشعبية. ومن أجل هذه الأسباب قام دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة بوقف وتجميد معونة السبعين مليون دولار، مما دفع جمال عبد الناصر إلى الرد على تلك الخطوة الاستفزازية بإعلان تأميم قناة السويس، التى تعد أحد أهم شرايين الملاحة العالمية التى تمد أوروبا ببترول منطقة الشرق الأوسط. وعادت فى صفحة مياه قناة السويس نغمات ناصر عن العزة والكرامة حيث راح يقول (فى هذه اللحظة يقوم بعض إخوانكم من أبناء مصر بإدارة شركة قناة السويس وتولى شئونها).

وبينما كانت زعامة عبد الناصر تتسع وتتمدد كان الإنجليز والفرنسيون يهددون علناً بقطع يده التى تحاصر أوروبا، بينما جون فوستر دالاس يحاول قدر استطاعته نزع فتيل الأزمة قبل انفجارها، رغم متناقضات الدور الأمريكى فى إدارتها، ولكن سرعان ما أقبل شهر أكتوبر ١٩٥٦ وتوحدت وتلاقت مصالح بريطانيا وفرنسا من أجل إعادة السيطرة على قناة السويس مع مصالح إسرائيل أيضاً فى احتلال سيناء، وانضم الصهاينة المغتصبون إلى الاستعماريين الغربيين ربما تتمكن هذه القوى المعادية من إزاحة جمال عبد الناصر.

ليلة التاسع والعشرين من أكتوبر، وهى الليلة التى اندلعت فيها شرارة المعركة التى أزهقت الكثير من أرواح الجنود المصريين فى منطقة القناة وسيناء، فضلاً عن

تحطيم معدات عسكرية بلغت قيمتها آنذاك ١٠٣ ملايين جنيه. وقد روى عبد اللطيف البغدادى فى الجزء الأول من مذكراته ما حدث لجمال عبد الناصر من انهيار معنوى عقب مشاهدته لآثار الحرب على طريق الإسماعيلية، لدرجة أنه بكى قائلاً: (لقد هزمونى بواسطة جيشى يا عبد اللطيف)، ولكن عبد اللطيف البغدادى يعترف بأن الرجل الذى رآه فى هذا اليوم محطماً منكسراً قد استطاع استرداد عافيته ومعنوياته، ونجح فى استثمار نتائج هذه المعركة وإحراز النصر فيها على العدو من خلال بقائه فى السلطة وإعادة بناء جيشه من جديد.

فى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٦ تم إنزال كتيبة من جنود المظلات الإسرائيليين فى صحراء سيناء قرب ممر (متلا) الذى يبعد حوالى ثلاثين ميلاً فقط من قناة السويس، وقد أعقب هذا الإنزال تدفق عدة فرق محمولة بالمروحيات من الجيش الإسرائيلى صوب جنوب سيناء.. وهنا أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على مصر لإعادة السيطرة على قناة السويس.

وأمام حملة المعارضة والاحتجاجات العالمية على هذا الغزو الثلاثى، ظهر أنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا على شاشة التليفزيون ليؤكد أن ما حدث مجرد محاولة لتحقيق هدف سامٍ لمصلحة الشعوب الحرة.

وبعد ٤٨ ساعة من هذه الخطوة الثلاثية قامت أسراب من الطائرات المقاتلة النفاثة البريطانية والفرنسية بضرب المطارات المصرية ومعسكرات الجيش وقطع خطوط الامدادات والسكك الحديدية الرئيسية من الخرطوم إلى القاهرة، وبعد ثلاثة أيام أخرى قامت القوات البريطانية والفرنسية بمهاجمة بورسعيد من البحر، إلا أن الإسرائيليين قاموا بمهاجمة شاملة لسيناء، كما قامت الطائرات الإسرائيلية بتدمير كامل لمدينة بورسعيد وضرب قوات الجيش وأسر الآلاف من جنوده.

ورغم أن مصر كادت أن تسقط أمام هذا الغزو الشامل إلا أن زعماء العالم العربى كانوا صامتين ولا يستطيعون أن يحركوا ساكناً، فقد كانت لديهم الرغبة فى إزاحة جمال عبد الناصر من السلطة، بينما فشل جمال عبد الناصر فى صد هذا الهجوم الكبير، واكتفى بتعويق الملاحة فى قناة السويس من خلال تدمير سفنه.

والشاهد أن معركة ١٩٥٦ قد جرت وقائعها الدبلوماسية فى هيئة الأمم المتحدة حيث قام دوايت إيزنهاور ـ الذى هاج وماج ـ بتهديد حلفاء الولايات المتحدة، التى اعتبرت هذه الحرب مدخلاً لتسلل الإتحاد السوفيتى إلى المنطقة. ونجحت أمريكا فى إصدار قرارات من الأمم المتحدة تهدف إلى إزاحة إسرائيل وانسحابها من سيناء وانسحاب حلفائها من مصر.

وقام إيزنهاور علناً بتوبيخ إنجلترا وفرنسا، بينما أخبر إسرائيل فى سرية تامة بأنها سوف تكون وحدها إذا قامت بضم سيناء. وعلى جانب آخر قام إيدن العجوز ـ بخطوة مفاجئة ـ بإقناع رئيس فرنسا بالموافقة على وقف إطلاق النار بشكل فورى وذلك فى الخامس من نوفمبر.

وفى السادس من نوفمبر ـ أى فى اليوم التالى لوقف إطلاق النار ـ وقف ديفيد بن جوريون ـ رئيس وزراء إسرائيل آنذاك ـ فوق منصة الكنيست وكأنه أحد أنبياء بنى إسرائيل قائلاً: (وتحقق كلمات النبى أشعيا فى ذلك اليوم، وسوف يصبح المصريون مثل النساء وسوف يرتجفون من الخوف بسبب اهتزاز يد رب الجيش فوقهم. لقد أصبحت سيناء ملكاً لإسرائيل ولن يستطيع أحد إجبارنا على الجلاء)، إلا أنه بعد ٤٨ ساعة من هذه الخطبة العصماء وقف بن جوريون على منصة الكنيست مرة أخرى ليعلن الانسحاب الإسرائيلى من سيناء بمجرد أن تأخذ قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة مواقعها.

إن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد راهنوا على هزيمة سريعة وخاطفة وحاسمة لمصر ولكنهم فشلوا، فإذا كانوا قد كسبوا معركة السويس فإنهم قد خسروا الحرب مع ناصر، حيث أجبرهم الأمريكيون وتهديدات الإتحاد السوفيتى ـ فضلاً عن احتجاجات وضغوط العالم الحر ـ على الانسحاب دون أن يحققوا أهدافهم.

لقد كانت الخسارة الحقيقية كامنة فى الجانب المعنوى، حيث أكدت مؤامرة العدوان الثلاثى قناعة العرب وإيمانهم بأن إسرائيل هى بوليس أوروبا فى المنطقة، بل وخادمة الغرب الاستعمارى، وأنها تهدف إلى تطويل مصالح العرب لصالح أوروبا، وراح جمال

عبد الناصر يلقى خطبه النارية من منبر جامع الأزهر الشريف، ونجح مرة أخرى فى كسب زعامة أخرى أمام شعبه وجماهير الأمة العربية، مما أدى إلى ميلاد شهادة جديدة لجمال عبد الناصر، وهى مزيج من القومية العربية والمبادئ الاشتراكية وعبادة الشخصية التى أطاحت بالرئيس جمال عبد الناصر.

ناصر.. والقومية العربية

(عقب انسحاب القوات الأجنبية من مصر وقف جمال عبد الناصر أمام الجامع الأزهر بالقاهرة لاستقبال تحية الجماهير الغفيرة المحتشدة والتى تجاوزت مئات الآلاف، والذين راحوا يرددون شعارات حماسية وأغانى وطنية باسم ناصر حبيب الملايين، باعتباره الزعيم الذى استطاع إلحاق الهزيمة بالقوات الأجنبية المعادية لمصر.

بعد ذلك لمع نجم عبد الناصر كزعيم جديد وأوحد للقومية العربية التى حلمت بها تلك الشعوب التى عاشت طويلاً تحت سنابك جيوش الغزاة. وفى اليوم التالى من انسحاب تلك الدول الغازية ذهب ناصر إلى بورسعيد ـ إحدى مدن القناة المعروفة ببسالتها ونضالها وشجاعتها ـ وألقى خطاباً نارياً حول مفهوم العروبة والإسلام، واحتوت الخطبة على العديد من المفردات التى يتطلع إليها أبناء الأمة، فوق صداها كالموسيقى فى أذان العامل والفلاح والمثقف ـ وهم أبناء الطبقة التى شغلت بال الزعيم وحلم كثيراً من أجلهم ـ فحلموا معه وسبحوا فى بحور من الخيال حول مستقبل مشرق وغد أفضل وحاضر ملئ بالحماس والوطنية والانطلاق.

لكن عبد الناصر كان يعرف أن العرب ينظرون إلى مصر كدولة فرعونية قبل أن تكون عربية، وأن هذه النظرة يؤمن بها ويعتنقها أغلب أبناء الشعب المصرى، مما دفعه لإلقاء خطبة لتصحيح هذا المفهوم الذى ذاع وشاع، فأعلن أمام جماهير الأمة (أن العروبة وليست الفرعونية هى أيديولوجيتنا السياسية). وكانت هذه الكلمات بمثابة إعلان جديد يؤكد عروبة مصر وينفى فرعونيتها السياسية كما أراد البعض لها، حيث كانت هناك نبرات فرعونية ودعوات ماضوية يدعو إليها بعض المثقفين المصريين للعودة إلى جذور الأجداد، والتخلى عن العروبة أملاً فى مستقبل أكثر إشراقاً، وهى

الدعوة التى أزعجت الثورة ورجالها.

وفى عام ١٩٥٨ راح جمال عبد الناصر يعمل بكل طاقته من أجل ترسيخ العروبة قولاً وعملاً، وبذل جهوداً حثيثة فى هذا المضمار من خلال وسائل الإعلام وشبكات المخابرات، ولهذا كانت شبكة إذاعة (صوت العرب) هى المنبر والنافذة التى أطل منها ناصر على أبناء أمته العربية لفرض إرادته وسياسته. ونجحت تلك الشبكة فى بث أثيرها من المغرب العربى حتى إيران، ومن قبرص حتى موزمبيق، وساعدهم على ذلك أن الراديو كان هو الوسيلة الوحيدة لمخاطبة تلك الشعوب البعيدة، وانخرط شعراء مصر فى ديباجة الأغانى الوطنية والحماسية لحث الشعوب العربية على اقتفاء الدعوة التى تبناها جمال عبد الناصر لوحدة العرب وتعاونهم.

وظلت خطب ناصر كقطع موسيقية يستمع إليها الجميع فى طرب وكأنه يغنى مثل كوكب الشرق أم كلثوم التى أجبرت العرب على الالتفاف حول صوتها، فقد كان الجميع ينتظرون خطاب عبد الناصر فى المنازل كأنه حفلة غنائية، وكانوا يحفظون خطاباته عن ظهر قلب، وهكذا استولى جمال عبد الناصر على العقول والقلوب والمشاعر العربية، وهو ما أدى إلى إثارة الخوف فى أعصاب بعض الأنظمة الملكية التى رفضت دعوة جمال عبد الناصر وظنت أنها تدعو إلى إنهاء أنظمتها.

وفى عام ١٩٥٨ نجح جمال عبد الناصر فى ضم سوريا إلى مصر وأعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة، وثار أتباعه فى جميع أنحاء العالم العربى يطالبون بضم بلادهم إلى تلك الوحدة العربية وانفجرت المظاهرات الشعبية فى ربوع الوطن العربى، وخاصة فى لبنان واليمن وبغداد، حتى أن الملك فيصل ملك العراق قد وقع صريعاً أمام زحف بعض القوات المسلحة العراقية التى تحركت ضده، وهى الحادثة التى اعتبرها ناصر أعظم لحظات انتصاره ضد ما أسماه بالرجعية العربية.

وفى أثناء تلك الحقبة وقف عبد الناصر يخطب ثائراً كالأسد الجسور قائلاً:

(أخيراً تحررت القومية العربية من قيودها، وأصبحت الشعوب العربية واثقة فى نفسها مطمئنة فى وطنها، ولسوف يرفرف علم الحرية أيضاً فوق عمان وبيروت)، ولكن

فى اليوم التالى اقتحم خمسة آلاف من مشاة البحرية الأمريكية شواطئ بيروت، ومن بين هذه البوارج أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أن ناصر لن يستطيع الإطاحة بحكومة لبنان الموالية للغرب.

ورغم لحظات العز التى شهدها العالم العربى فى تلك الحقبة، إلا أنه سرعان ما تلاشت تلك الفرحة وانزوت أمام انفصال سوريا عن مصر لعجزها ورفضها ديكتاتورية ناصر وهيمنته على مقاليد السلطة فى البلدين، وهى الشهوة التى تملكته.

ومضى عبد الناصر فى طريقه ومنهجه، وأرسل قواته إلى اليمن يوماً بعد يوم حتى شعر أنه تورط فى مستنقع لا يستطيع الخروج منه، وكابر ناصر وعاند حقائق الموقف، بينما كانت المملكة العربية السعودية ـ التى كانت تغذى وتدعم النظام الملكى اليمنى ـ تعمل بكل طاقتها على إفشال مخطط ناصر وإستراتيجيته. وتدهورت أحوال جمال عبد الناصر أمام الخسائر الرهيبة التى منيت بها قواته أمام قوات اليمن الملكية.

وهكذا عاش عبد الناصر ممزقاً مشتتاً، وكبده اليمن عشرات المليارات وآلاف الجنود الذين عادوا بين قتيل وجريح. وعلى الطرف الآخر القريب منه كانت تتربص به إسرائيل وتنتظر الفرصة للانقضاض عليه، حيث إن حالة اللا حرب واللا سلم قد أزعجتها، ومن ثم أرادت أن تضع حلاً لهذا الموقف البارد ولتوسيع أطراف دولتها وإحياء أيديولوجيتها وإعلان قوتها.

السقوط... (حرب يونيو)

حرب يونيو «الانكسار» ١٩٦٧ التى أدت إلى خلخلة التوازن العسكرى فى المنطقة لصالح إسرائيل، والتى أدارتها إسرائيل بدعم أمريكى أوروبى أدى إلى إلحاق الهزيمة بعدة دول عربية على رأسها مصر وسوريا والأردن وفلسطين، كما أدت إلى سقوط القدس فى أيدى اليهود ليصبح الصراع العربى الإسرائيلى شوكة فى ظهر العالم كلما نظراً لحالة عدم الاستقرار التى عمت أرجاء العالم من خلال عمليات فدائية أثارت الرعب والفزع فى القلوب:

فى ربيع ١٩٦٧ أدت خطب جمال عبد الناصر إلى تحرك جماعات من الفدائيين

للإغارة على المستوطنات الإسرائيلية، كما أن تهديدات إسرائيل واستفزازاتها دفعت عبد الناصر أيضاً - والعرب من ورائه - إلى الدخول فى سلسلة من الأحداث التى وصلت الأمور لحافة الهاوية، رغم أن السوريين لم يتوقعوا أن تصل الأمور بهم إلى هذا الحد الخطير. وفى شهر يونيو قام جمال عبد الناصر - الذى كان يبدو أمام أمته كالطاووس المنفوش - بإرسال مزيد من القوات إلى غزة وإرسال كتيبة مدفعية مدربة نصبت مدافعها على تلال شرم الشيخ التى تطل على مضيق تيران الضيق، ثم راح يعلن فى نوبة حماس إغلاق خليج العقبة أمام السفن المتجهة إلى ميناء إيلات الإسرائيلى، بينما ردت إسرائيل فى غضب ونفور بإشهار أسلحتها وأعلنت أن إغلاق خليج العقبة هو إعلان للحرب.

ووصل الجانب العربى - بزعامة ناصر - والجانب الإسرائيلى إلى حافة الحرب، وهرع (يوثانت) سكرتير عام الأمم المتحدة لمقابلة جمال عبد الناصر، وحين وصل إلى مكتب الرئيس قابلته مظاهرات عارمة تندد بإسرائيل وأمريكا وتهتف بحياة جمال عبد الناصر زعيم الأمة والقومية العربية.

وكانت التوقعات المصرية قد ضلت طريقها، حيث ارتكب جمال عبد الناصر خطأ فادحاً حين قام بتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع سوريا، فرغم أن هذا الاتفاق كان المقصود به وقف هجمات الفدائيين الذين كانت ترعاهم سوريا ضد المستوطنات الإسرائيلية، إلا أن الاتفاق خرج من مضمونه وأصبح عبد الناصر رهينة لبنوده الطويلة وشروطه القاسية، خاصة أن السياسة السورية كانت تحكمها الرعونة والسذاجة. ولا شك أن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل قد ارتكب بدوره خطأ آخر من خلال تهديداته المستمرة بشن حرب على سوريا إذا استمرت فى دعم جماعات الفدائيين الذين يشنون هجمات خاطفة ضدها.

أما سوريا فقد تعاملت مع تصريحات ليفى أشكول بمأخذ الجد، وطلبت من ناصر أن يقوم بتنفيذ تعهداته طبقاً لاتفاقية الدفاع المشترك التى قام بتوقيعها. ورضخ ناصر لإلحاح السوريين حتى يظل كما هو كبطل أسطورى، وكانت هناك ورقة وحيدة أراد

ناصر استخدامها للمماطلة ومحاولة الخروج من المأزق الذى وجد نفسه بداخله، وهى ورقة قوات حفظ السلام التى تقف على حدود مصر وإسرائيل منذ عام ١٩٥٦، وقام ناصر بمناورة لاختلاق أزمة قد تدفع الأمم المتحدة لإصدار الأوامر لقوات حفظ السلام بالانسحاب من على الحدود. وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد ارتكب يوثانت الخطأ الأخير، حيث استجاب السكرتير العام لطلب ناصر دون أن يستشير أحداً ـ كما هو متوقع ـ وسط ذهول العالم.

وهكذا كانت هناك سلسلة من الأخطاء شارك فيها جميع الأطراف، وفتحت الحدود بين مصر وإسرائيل وتحركت على الفور قوات المشاة والعربات السورية إلى مرتفعات الجولان، أما فى القاهرة فقد انطلقت العربات نصف المجنزرة السوفيتية الصنع فى الشوارع فى طريقها إلى سيناء وسط شعار ملتهب (حنحارب... حنحارب.. كل الناس حتحارب)، وراح راديو صوت العرب يبث أغنياته النارية وأحاديثه السياسية التى تدعو إلى الجهاد ضد اليهود، بينما راح خطباء المساجد يدعون الشباب وأبناء الأمة للمشاركة فى الجهاد المقدس، حتى أن الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية الحذر، والذى كان يهمز بالعداء لناصر راح يعلن أن أى عربى يتردد فى دخول هذه المعركة لا يستحق أن يكون عربياً، وقام الملك حسين ملك الأردن ـ بدهائه المعروف ـ بتوقيع اتفاق عسكرى مع ناصر فى الأول من شهر يونيو ١٩٦٧ لامتصاص غضب الجماهير الأردنية التى ثارت ضده لعدم تحركه ومساندة جمال عبد الناصر فى حربه ضد إسرائيل.

وفى مساء الرابع من يونيو ١٩٦٧ ظهرت إحدى مجموعات فرقة مشاة إسرائيلية تتبعهم عربات نصف مجنزرة على حافة إحدى الطرق الترابية المؤدية إلى سيناء. وفى صباح يوم الخامس من يونيو ـ وقبل ظهور الشمس ـ انطلقت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية من ممراتها الطويلة إلى سماء البحر المتوسط وانحرفت واحدة تلو الأخرى فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغرب، ثم دارت مرة أخرى صوب الأرض محلقة على انخفاض هائل أثار إعجاب العسكريين.

وأثناء هذا الانخفاض كانت كل طائرة تلقى حمولتها على مطارات مصر، ومنها مطارات بير جفجافة وفايد وبير الحسنة وحلوان وبنى سويف والإسماعيلية والإسكندرية، حيث قامت الطائرات الإسرائيلية بتدمير جميع الطائرات المصرية الرابضة على ممراتها، ثم اتجهت إلى القاعدة الجوية المقامة قرب عمان ودمرت سلاح الجو الملكى الأردنى، وحدث مثل ذلك مع القاعدة الجوية الوحيدة فى سوريا، وحين انتهت الغارة كانت هناك أكثر من ٣٥٠ مقاتلة ميج ١٦ وهوج وبعض الأنواع الأخرى قد تحطمت.

وحين عادت طائرات إسرائيل سالمة إلى قواعدها بعد أن حققت أهدافها بالكامل، اندفعت كتائب المدرعات الإسرائيلية ناحية سيناء وتقدمت قواتها الرئيسية صوب قناة السويس لإغلاق قطاع غزة، وفى اتجاه الشمال أطلقت المدفعية الإسرائيلية ساتراً من النيران الرهيبة على القوات السورية التى كانت تتأهب لملاقاتهم على سفح الجولان، أما فى الشرق فقد تحركت المدرعات عبر حدود الضفة الغربية ـ التى يصل طولها نحو خمسة وسبعين ميلاً ـ وأبادت جيش الفيلق العربى أحد أهم ألوية الملك حسين.

أما الجيش العربى الأردنى فقد كان يتصدى بحماس وفاعلية للإسرائيليين دفاعاً عن القدس، وخلال قذف المدافع الأردنية العنيفة سقطت عدة قذائف بالقرب من منزل ليفى أشكول وحديقة فندق الملك داود وأحد المراكز الطبية الشهيرة داخل القدس الغربية، بينما فتحت إسرائيل نيرانها العنيفة صوب مدينة عمان وحاصرتها قواتها البرية وأحكمت قبضتها عليها وأغلقت منافذها.

وفى ثالث أيام المعركة زحفت قوات إسرائيلية بملابسها المرسوم عليها نجمة داود واقتحمت أسوار القدس واعتلت مرتفعاتها، وتقدم الجنود مهللين بعودة مدينة الرب، وعلى رأسهم وقف أشهر حاخاماتهم المعروف بميوله الدينية المتطرفة وهو يحمل التوراة واتجه صوب حائط المبكى قائلاً: (لقد أخذنا مدينة الله لأننا ندخل فى عهد خلاص الشعب اليهودى)، وفى رابع أيام الحرب تأكد للعالم سقوط سيناء فى مصر والجولان فى سوريا والضفة الغربية لنهر الأردن.

وفى التاسع من يونيو أطل زعيم العالم العربى وبطل القومية ليعترف أمام شعبه

بالهزيمة المخزية التى كانت من أخطر وأبشع هزائم العرب فى العصر الحديث.

وهكذا انكسر جمال عبد الناصر وشاخ وتقوقع داخل نفسه ليسدل الستار على حقبة من أهم وأعظم حقبات عبد الناصر والأمة العربية بعد هزيمة ساحقة أبادت شعاراته وسياسته وثقافته ومنهجه.

وأفاق ناصر من الغيبوبة التى أصابته بسبب تلك الحرب التى مزقته إرباً إرباً وانتفض لإعادة بناء الجيش المصرى محاولاً إعادة الكرامة التى تمرغت فى أوحال سيناء، واتجه بكل ثقله إلى الاتحاد السوفيتى وحصل منه على أحدث الأسلحة، ونجح فى بناء حائط صواريخ استطاع من خلاله تحييد سلاح الجو الإسرائيلى الذى كان يجوب من قبل سماء مصر دون أدنى مقاومة.

وأمام الدعم الأمريكى المطلق لإسرائيل أحس جمال عبد الناصر بأن موازين القوى العسكرية مازالت لصالح إسرائيل، ولهذا وجد نفسه مضطراً لقبول معاهدة روجرز التى تبناها وليام روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية وقتذاك.

وفى صباح السابع من أغسطس ١٩٧٠ وافق جمال عبد الناصر على اتفاقية وقف إطلاق النار مع إسرائيل تحت رعاية الولايات المتحدة الأمريكية، وبهذا تراجع عبد الناصر عن أهم مبادئه وسياسته المعروفة).

نهاية الحلم العربى..

مساء الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠، وهى الليلة التى أدت إلى إصابة العالم العربى بالدهشة والذهول، حتى أن البعض كاد أن يصاب بالجنون، لدرجة أن كثيراً منهم سقط على الأرض مغشياً عليه، وكيف كانت جنازة عبد الناصر من أشهر الجنازات التاريخية التى لا تزال حديث الناس حتى الآن:

ولأن عبد الناصر لم يكن رئيساً فحسب للمصريين وإنما كان زعيماً وأباً وأخاً كبيراً لهم، فقد شعر هؤلاء الذين أذهلهم موته أن الحياة قد توقفت وأن العيش بدونه بات مستحيلاً، وكانت الآلة الإعلامية الرهيبة التى استخدمها ناصر وحليفه محمد

حسنين هيكل هى أهم أدوات تنويم الشعب وتضليله وخداعه، حتى اعتقد المصريون أن عبد الناصر بطلاً والبطل لا يموت.

لقد أصاب الضعف جمال عبد الناصر، سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الجسدية، بل والأهم المعنوية، فقد داهمه مرض السكر فى منتصف عام ١٩٥٨، ثم تدهورت صحته فى بداية الستينيات وازداد ضعفاً عاماً بعد عام، ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل إنه أصيب بمرض تصلب الشرايين إلى جانب معاناته من تورم فى الجزء العلوى من ساقيه. وفى عام ١٩٦٥ أصابته أزمة قلبية بسيطة، ثم فى صيف ١٩٦٨ قضى نحو ثلاثين يومياً فى بوخارست إحدى المدن العلاجية الشهيرة فى الاتحاد السوفيتى للعلاج بالمياه المعدنية.

وفى عام ١٩٦٩ تمدد فى فراشه نحو أكثر من شهر إثر إصابته بأزمة قلبية خطيرة، ولكنه رغم كل هذه المتاعب لم يتوقف عن التدخين، بل كان يدخن أكثر من ستين سيجارة يوميا.

وفى مساء السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠ صعدت روح جمال عبد الناصر إلى بارئها عن عمر يناهز اثنين وخمسين عاماً، وذلك بعد وداعه لأمير دولة الكويت عقب انتهاء مؤتمر القمة العربية الذى شهدته القاهرة مؤخراً.

وفى يوم تشييع جنازة عبد الناصر خرج الملايين من أبناء الشعب المصرى الذين وفد أغلبهم على أسطح القطارات والشاحنات ـ بل وحتى الدراجات ـ وساروا مندفعين من كافة أرجاء مصر صوب القاهرة. وفى أثناء خروج جثمان عبد الناصر ملفوفاً فى علم مصر وموضوعاً على عربة مدفع احتشد حوله نحو أكثر من أربعة ملايين مواطن مصرى وقفوا على طول الطريق يبكون وينتحبون وينعون زعيمهم ورمز وطنهم وبطلهم الذى خطفه الموت.

وكان مألوفاً أن يقف أحد الساسة قائلاً لأحد مراسلى وكالات الأنباء العالمية وهو يبكى: (إن جمال عبد الناصر كان كل شىء لمصر، فهو الصديق والأب والأخ والرئيس، ولكنه الآن غادر وتركنا وحدنا).

إن عبد الناصر بالفعل كان شخصية شديدة التعقيد، كما كان بطبعه يميل للانطواء ويتسم بالكتمان والحذر والحيطة، ولذلك لم يكن له صديق بالمعنى المعروف لمفاهيم الصداقة الشائعة، بل إن صداقته بزميله عبد الحكيم عامر أسدل عليها الستار فى مأساة لا تزال لغزاً يستعصى على الجميع فك طلاسمه، ويعزز هذا التفسير مقولة خلفه الرئيس أنور السادات حيث أكد للكاتب المصرى المعروف أنيس منصور أنه (لم يكن من السهل على عبد الناصر أن يصادق أى شخص بالمعنى الكامل لهذه العبارة، وذلك بسبب ميله للحذر والتشكيك والتوتر العصبى البالغ.

أما بخصوص برنامجه اليومى فقد كان شأنه شأن أى مواطن مصرى بسيط، حيث كان يأكل الفول المدمس ـ أشهر وجبات المصريين ـ إلى جانب شرائح الجبن، وكانت علاقته بالأدب تكاد تكون مقطوعة ولكنه كان شغوفاً بقراءة التقارير والصحف وسماع النشرات الإخبارية المصرية والأجنبية ـ خاصة راديو لندن ـ إلى جانب هوايته المفضلة المتمثلة فى سماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام السينمائية، حيث كان يهوى الأفلام الأمريكية..

كما كان عبد الناصر أيضاً من هواة التصوير الفوتوغرافى وممارسة لعبة التنس وتدخين السجائر الأمريكية.

وقضى جمال عبد الناصر حياته فى منزل بسيط متواضع فى إحدى ضواحى القاهرة، وكان زوجاً مخلصاً وأباً حنوناً كمعظم أبناء الشعب المصرى الطيب.

أما أشهر هوايته على الإطلاق فهو جمع أربطة العنق التى تلقى منها هدايا كثيرة من كافة رؤساء العالم، فضلاً عن احتفاظه بالعديد من كافة أنواع الطيور.

إن عبد الناصر كان زعيماً لا ينازعه أحد فى مكانته، وكان معروفاً بميوله العدائية للأجانب، كما كان المحرك الأساسى للشعوب العربية ضد قوى الاستعمار والإمبريالية، ومصدر التهديد الرئيسى فى المنطقة لإسرائيل، والمعارض للأنظمة الملكية الرجعية والداعى للقومية العربية، والمنادى بالوحدة بين جميع الدول العربية، والقائد الذى لا يستطيع أحد من أعوانه أو محبيه أن يقول له لا.

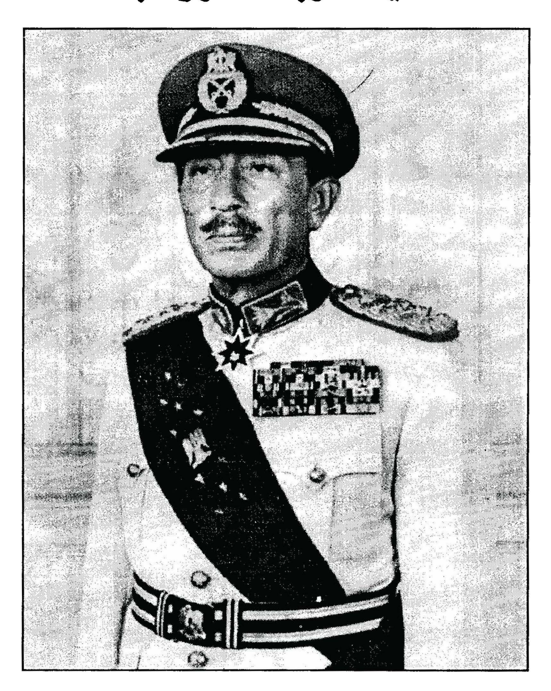
لقد كان زعيماً بكل المقاييس، ويؤمن بأن التحرر من النفوذ الأجنبى من شأنه أن يتيح لمصر أن تلعب دوراً قيادياً لصالح الأمة العربية.

وفى النهاية يمكن إيجاز شخصية جمال عبد الناصر الزعيم والقائد السياسى والرئيس فى أنها مزيج من القومية المصرية والعربية، وقد انصهرتا معاً فى بوتقة الناصرية لتشعلا جذور الوطنية فى نفوس أبناء الأمة العربية الذين كانوا يتطلعون إلى رجل يلتفون من حوله لاسترداد كرامتهم وعزتهم، وكان هذا الرجل بحق هو جمال عبد الناصر.



الفصل الثانى

داهية العرب... المكر والغباء



السادات الثعلب السياسى

سوف نستعرض فى هذا الملف ظروف نشأة السادات وطبيعة تكوينه، وما تمخض عن ذلك من قررات خطيرة غيرت وجه الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر، خاصة أن فترة حكم الرئيس أنور السادات قد شهدت فى مجملها قرارات مصيرية حاسمة وخطيرة، بدأت بالقضاء على مراكز القوى من أتباع جمال عبد الناصر، وطرد الخبراء الروس الذين تغلغلوا داخل أحشاء القوات المسلحة المصرية، وقيامه بحرب أكتوبر التى أعادت الكرامة والنصر لمصر بعد فترة، حالكة السواد عاشها المصريون وهم يتجرعون كؤوس الذل والهوان، كما أعاد فتح قناة السويس بعد أن أغلقتها إسرائيل فترة طويلة وفتح الباب على مصراعيه تحت شعار الانفتاح الاقتصادى، ثم قام بتوقيع معاهدتى فض الاشتباك الأول والثانى مع العدو الصهيونى، فضلاً عن قيامه بمبادرة السلام الشهيرة وتوقيعه لبنود معاهدة كامب ديفيد التى أعادت لمصر أراضيها المحتلة، وإن كانت هذه المعاهدة هى التى عجلت برحيل الرئيس أنور السادات فى حادث المنصة الشهير ظهر يوم ٦ أكتوبر الذى كان يتوافق مع عيد النصر على إسرائيل، ناهيك عن قراراته العصبية التى سبقت اغتياله، حيث أصدر أوامر باعتقال رموز مصر السياسية والدينية فى سابقة خطيرة، وإن كان الجميع يشهد للرئيس أنور السادات بالفضل فى تدشين قواعد الممارسة الحزبية والديمقراطية رغم أن حلقاتها لم تكتمل حتى الآن... هذا هو أنور السادات الذى أثار حياً وميتاً جدلاً واسعاً حول شخصيته وقراراته.

النشأة والمولد

(فى المرحلة التى ترأس فيها الرئيس السادات حكم مصر تعرضت البلاد لرياح عاتية ألقت برمالها الصفراء على جميع أنحاء الوطن العربى.

ولد أنور السادات فى قرية ميت أبو الكوم إحدى قرى محافظة المنوفية بدلتا مصر فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٩١٨، وهاجر مع والده إلى القاهرة بصحبة ثلاثة عشر أخاً، وكان والده مدنياً بالقوات المسلحة، وهى وظيفة كانت تدر عليه دخلاً بسيطاً. ومن خلال شبكة علاقاته الواسعة استطاع الأب الفقير أن يلحق ابنه بالقوات المسلحة ضمن الدفعة الأولى التى سبق أن أشرنا إليها فى ملف جمال عبد الناصر، والتى كانت قد فتحت الباب لأبناء الطبقة المتوسطة فى صيف عام ١٩٣٧، وأعنى بها الدفعة التى التحق بها الرئيس جمال عبد الناصر.

وعقب تخرج أنور السادات من الكلية عام ١٩٣٨ شغلته وأرقت نومه القضية الوطنية وطرد الاستعمار البريطانى من مصر، حيث انضم إلى العديد من الخلايا المناهضة للقصر الملكى والاستعمار البريطانى.

,وفى عام ١٩٤٢ رقى إلى رتبة نقيب، وشارك بنفسه فى عملية تهريب اللواء عزيز المصرى إلى ألمانيا، حيث كان يعرف خبايا القواعد البريطانية، ولكن محاولة هروب عزيز المصرى وذو الفقار صبرى فشلت بعد أن تعطلت محركات الطائرة المتجهة إلى ألمانيا. وقد وشى زملاؤه الخونة به إلى رجال المخابرات البريطانية الذين ألقوا القبض عليه وأودعوه فى سجن الأجانب بصحبة جاسوسين من النازيين.

وبعد عام ١٩٤٤ تزعم السادات إحدى مجموعات الضباط المحتجين على الأوضاع فى مصر، ولكن نظراً لأنه كان يؤمن بأن سياسة القوة والعنف هى السبيل الوحيد لطرد المحتل البريطانى فقد قام بإلقاء عبوة ناسفة على سيارة رئيس الوزراء مصطفى النحاس، وهى الحادثة الشهيرة التى ندد البعض بها ضد الرئيس أنور السادات.

وفى محاولة انتقامية أخرى من أعوان الاستعمار البريطانى راح أنوار السادات يحاول اغتيال أمين عثمان وزير المالية المصرى، الذى صرح لإحدى الصحف المصرية بأن

(العلاقة بين مصر وإنجلترا كالزواج الكاثوليكى ولا يمكن الانفصال عنها)، وهى العبارة التى أثارت جدلاً واسعاً حول أمين عثمان ووضعته فى خانة أعداء الشعب وأتباع الإنجليز. وفى أعقاب هذه المحاولة ألقى القبض على أنور السادات وأودع فى السجن ليقضى بداخله أكثر من عامين ونصف العام.

وبعد أن قضى أنور السادات فترة عقوبته داخل أسوار السجن خرج أواخر عام ١٩٥١، وقد استطاع من خلال علاقته بالدكتور يوسف رشاد ـ طبيب الملك فاروق الخاص ـ أن يعود مرة أخرى للالتحاق بوظيفته العسكرية، وحين استدعاه زملاؤه للاشتراك فى ثورة يوليو ١٩٥٢.

لم يكن دوره مقصوراً على إذاعة البيان أو أن استدعاءه تم ليلة الثورة كما يزعم البعض، ولكن الرجل ـ كما شهد له البعض من ساسة الثورة ـ كان مؤسساً لتنظيم الضباط الأحرار، وهو تنظيم كان سابقاً لتنظيم جمال عبد الناصر، كما أن انضمامه للثورة كان قبل اندلاعها بفترة ولم يكن ليلة الثورة مثلما أشارت، بالإضافة إلى أن أنور السادات الذى تولى إذاعة البيان كان معروفاً بميوله للخطابة وقراءة اللغة العربية بإتقان، وذلك على عكس أغلب زملائه فى ذلك الوقت.

أما أن الضباط الأحرار أسندوا له إذاعة البيان من باب الحيطة والحذر والارتياب فى أمره فهذا قول مردود عليه فى مذكرات عبد اللطيف البغدادى، الذى أكد أن جميع الضباط الأحرار وافقوا على انضمام أنور السادات لتاريخه الوطنى المعروف باستثناء عبد المنعم عبد الرءوف، وهى شهادة تؤكد أن أنور السادات كان مقبولاً من الجميع على عكس ما شاع وذاع، ولو كان الأمر كما أورده هيكل، وأن سبب رفض الثوار انضمام السادات لهم هو خوفهم من شخصيته لجاز لنا أن نتساءل: من الذى أرغمهم على قبول أنور السادات عضواً فى مجلس القيادة؟ وإذا قالوا إنه جمال عبد الناصر، فلماذا أصر ناصر على ضمه رغم معارضة زملائه؟ وهل يجوز ذلك فى خلية سرية تتخلى بأبسط قواعد الحيطة والحذر؟.

(بعد اندلاع ثورة يوليو عام ١٩٥٢ اختفى أنور السادات تقريباً من حياة جمال

عبد الناصر، ولكن بعد هزيمة ١٩٦٧ أطل السادات من جديد وأصبح من أقرب رجال جمال عبد الناصر، حيث كان يثق فيه ويطمئن له، وقد تمت ترقيته رغم عدم شهرته إلى نائب رئيس الجمهورية عام ١٩٦٩.

وفى خريف عام ١٩٧٠ قام بإعلان خبر وفاة جمال عبد الناصر، ثم تولى بعد ذلك رئاسة مصر باعتباره الرجل الطيب المطيع الخائف دائماً من جمال عبد الناصر.

وعلى الرغم من وجود رجال أشداء كانت لهم سطوة ونفوذ ومكانة فى عهد جمال عبد الناصر، إلا أن الجميع وافقوا على تعيين أنور السادات رئيساً للجمهورية رغم عدم ارتياحهم لشخصه، باستثناء محمد حسنين هيكل رئيس مؤسسة الأهرام المصرية الذى أعلن فى صدر مقاله الشهير بصراحة أن تعيين أنور السادات كان تعبيراً ناضجاً ومسئولاً عن المقتضيات التى تحكم الوضع المعقد الراهن. أما أتباع جمال عبد الناصر فقد طمعوا فى استمرار نفوذهم، ولهذا وقع اختيارهم على أنور السادات من خلال إجراء استفتاء عام طبقاً لمواد الدستور المصرى.

من هنا.. ومن هذه الخطوة الشرعية راح أنور السادات يستخدم حقه كرئيس جمهورية لبحث أوضاع البلاد وما تركه جمال عبد الناصر من ميراث مثقل بالهموم والمشكلات والأزمات، سواء على الصعيد الاقتصادى أو الاجتماعى أو العسكرى، بل والسياسى أيضاً. وهتفت جماهير الشعب مرة أخرى (سير... سير يا سادات، وإحنا وراك بالدبابات).

ولكن السادات الداهية الماكر وثعلب العرب لم يكن ساذجاً أبداً، بل استطاع بدهائه المعروف أن يتخلص من جميع القوى المناهضة له والتى كانت تعمل سراً على تقويض نفوذه وسلطاته).

تصفية مراكز القوى

(فى أوائل عام ١٩٧١ حاول على صبرى ـ المعروف بنفوذه الرهيب داخل مطبخ القرار السياسى فى عصر جمال عبد الناصر، والحليف القوى للإتحاد السوفيتى ـ تقييد حق السادات وتحجيم نفوذه، ولكن قبل أن يبدأ مخططه استطاع أنور السادات جمع

أوراق ومستندات تفيد ضلوعه فى مؤامرة لقلب نظام الحكم، الأمر الذى دفع أنور السادات لاتخاذ خطوة خطيرة لتوطيد قواعد حكمه، حيث قام بطرد على صبرى وأودع باقى زملائه من أمثال شعراوى جمعة وسامى شرف وأمين هويدى ومحمد فوزى ولبيب شعير ـ وغيرهم ـ فى السجون والمعتقلات تحت شعار (ثورة التصحيح).

وفى ليلة ١٥ مايو تمكن أنور السادات من تصفية بقية رجال جمال عبد الناصر، وأصبحت له جميع السلطات والصلاحيات).

أما الخطوة التالية التى بدأها السادات فى أوائل عام ١٩٧٢، حين قام بطرد الخبراء السوفييت من مصر، وهى الخطوة التى أثارت ارتياحاً كبيراً فى صفوف رجال القوات المسلحة المصرية وباركوها بعد معاناتهم طويلاً من نفوذ هؤلاء الخبراء الشيوعيين:

(فى أواخر حكم جمال عبد الناصر كانت العلاقة بين الاتحاد السوفيتى ومصر قد بلغت حد التحالف الاستراتيجى، مما أشاع حالة من التذمر فى صفوف الضباط والقادة، الذين شعروا بنفوذ الخبراء الروس، حيث بلغ عدد الخبراء حوالى خمسة عشر ألف خبير روسى كانوا يتولون الإشراف على تدريب القوات المسلحة، بل كان الطيارون السوفييت يحلقون بطائرات الميج ٢١ المصرية ويديرون أنظمة الدفاع الجوى، والأخطر أن هؤلاء الخبراء السوفييت كانوا يتحكمون فى الدخول إلى أهم المنشآت العسكرية المصرية.

كما كان الضباط السوفييت يتولون مناصب رفيعة المستوى فى جهازى المخابرات والشرطة والجيش وباقى الوزارات الهامة حتى، أن السفير السوفيتى كان أشبه بالمندوب السامى البريطانى فى مصر إبان الاحتلال الإنجليزى لمصر، ولهذا كان الضباط المصريون يرددون همساً فى ثكناتهم أن خروج الروس من مصر أصعب من خروج الإنجليز.. أما أنور السادات فقد كان رافضاً لهذا التغلغل الروسى، فضلاً عن أنه كان قد ضاق ذرعاً بأكاذيب السوفييت حول صفقات الأسلحة الحديثة التى لا يوفون بها.

وكان أنور السادات يدرك ببصيرته أيضاً أن الروس لن يغامروا بمواجهة عسكرية مع الولايات المتحدة الأمريكية من أجل عيون مصر أو أى دولة عربية، كما أن

الولايات المتحدة لن تسمح بهزيمة سلاحها أمام السلاح السوفيتى.

لكل هذه الأسباب قام أنور السادات بطرد جميع الخبراء العسكريين السوفييت فى الثامن عشر من يوليو ١٩٧٢ وكانت هذه بحق خطوة كبيرة أضافت لشخصية أنور السادات مكانة هائلة فى نفوس أبناء شعبه. وراح السادات يعمل مع قادة جيشه ليلاً ونهاراً دون انقطاع من أجل الاستعداد للحرب الحاسمة مع إسرائيل لاستعادة الأرض المحتلة منذ عام ١٩٦٧.

وكان السادات قد أكد قبل تلك الأحداث أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم ـ أى عام الحرب مع إسرائيل ـ إلا أن نشوب الأزمة الهندية الباكستانية أدى إلى تأجيل القرار).

القرار....

ونأتى هنا إلى أعظم وأخطر قرارات الرئيس أنور السادات، ألا وهو القرار الذى أدى إلى استعادة الأرض المحتلة فى سيناء وأعاد معه الكرامة لمصر والعرب الذى أدى إلى إحداث ما يشبه الزلزال فى جميع أنحاء العالم، حيث كان قرار حرب أكتوبر بمثابة عبور العرب من الهزيمة إلى الانتصار، ومن الذل إلى العزة، ومن المهانة إلى الكرامة، ومن الليل الأسود إلى النهار المشرق.

لم يكن قرار الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ قراراً عشوائياً، بل كان مدروساً على جميع المستويات الاستراتيجية والتكنيكية، فقد كان قراراً وليد قرابة عقد من الكفاح والنضال والجهود والاستبسال، ونتاج براعة وذكاء ومهارة المخطط والمقاتل المصرى، الذى قرر أن يوم ٦ أكتوبر ـ فى منتصف النهار ـ هو أنسب المواقيت للانقضاض على عدو هزمه غروره وأذله كبرياؤه.

(فى الفترة ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٣ تمكن أنور السادات من تأسيس تحالف ضم كلا من مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية، وكان السادات يرى أن السعودية هى أهم حليف له، بل أكثر أهمية من سوريا نفسها، ولذلك ففى عهده توطدت أواصر العلاقة المتينة بينهما، خاصة بعد أن قام السادات بطرد الخبراء الروس دعاة الماركسية، والتى يعتبرها السعوديون العدو الأول للإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى غياب الخطاب

المصرى المعادى نحو السعودية، والذى كان يتبناه جمال عبد الناصر، والذى اعتمد فى منهجه السياسى على تصنيف الدول العربية إلى أنظمة رجعية تقودها المملكة العربية السعودية وأخرى تقدمية ترأسها مصر.

ولأن المملكة العربية السعودية قد أدركت هدف الرئيس أنور السادات وإصراره على قيام جيشه بحرب محدودة مع إسرائيل لإنهاء حالة اللا سلم واللا حرب، فقد جاهرت بموقفها الداعم لمصر، حتى أنهم أخبروا الساسة الأمريكيين بتضامنهم مع مصر حال نشوب حربها القادمة مع إسرائيل.

وفى شهر سبتمبر أجرى الرئيس السادات اتصالاً هاتفياً بنظيره السورى حافظ الأسد، الذى أبدى موافقته السريعة على انضمامه للتحالف، إذ ربما تعود إليه مرتفعات الجولان المحتلة. وفى نهاية المطاف لاحت فى الأفق خيوط علاقات جديدة بين العرب والأردن، بعد أن عاشت الأردن ردحاً من الزمان فى عزلة تامة بسبب قيام الملك حسين بارتكاب مذبحة أيلول الأسود ضد اللاجئين الفلسطينيين فى شوارع عمان وضواحيها، وقام السادات بمد جسور التفاهم معه على أن تكون العلاقة مع الملك حسين فى إطار محدود لا ينبغى تجاوزه أو القفز عليه.

أما عن الأوضاع الاقتصادية فى مصر، فقد كانت تنذر بالخطر، خاصة أن الخزانة العامة كان رصيدها صفراً، وتعثرت أحياناً فى تدبير موارد القمح الذى تقوم باستيراده، بينما على الجانب الآخر كانت إسرائيل تمتلك قوة عسكرية ضخمة، فضلاً عن الدعم الأمريكى والأوروبى الذى كان يتدفق على هياكلها الاقتصادية والعسكرية، ولهذا كان السادات يشعر بأن قرار الحرب سيدفع الأمور إلى منحدر خطير لا تحمد عقباه إذا هو أقدم على تلك الخطوة.

(وهكذا عاش السادات طيلة الثلاث سنوات الأولى التى حكم فيها مصر ممزقاً تائهاً لا يدرى ماذا يفعل، فقد ثارت عليه جموع طلاب الجامعات والعمال الذين طالبوا بالحرب واستعادة الأرض وإنهاء حالة اللا حرب واللا سلم).

وأمام هذا التخبط وتلك الحيرة التى تملكت الرئيس السادات قرر الدخول فى

معركة فاصلة مع إسرائيل مهما تكن فيها من خسائر. وقد قال أنور السادات فى مذكراته حول هذا الموقف المتضارب: (رأيت أنه من الأفضل لنا ألف مرة ـ لأربعين ألفاً من أبنائى فى القوات المسلحة ولى شخصياً ـ أن ندفن ونحن نعبر القناة من أن نقبل هذا الخزى والعار) وكانت أيام أكتوبر الأولى تمضى بشكل طبيعى لا يلفت انتباه أحد وكان ذلك فى شهر رمضان وهو شهر صوم المسلمين، ولعب السادات أشهر أدوار الخديعة والتضليل مع الإسرائيليين حيث أمر بتسريح العديد من الجنود وإقامة رحلات ترفيهية للضباط، وفتح أبواب العمرة لمن أراد، وابتلعت إسرائيل الطعم، فى الوقت الذى كان يسعى فيه السادات لإطلاق شرارة الحرب مع أعدائه.

وفى تمام الساعة الثانية بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ قامت القوات العربية بالهجوم على إسرائيل على طول جبهة قناة السويس ومرتفعات الجولان فى يوم عيد الغفران ـ أشهر الأعياد اليهودية وأقدسها ـ بينما كان اعتقاد اليهود أن مصر والعرب لن يفكروا فى الهجوم عليهم فى مثل هذا اليوم.

وبدأت المدفعية السورية الثقيلة تدك المستوطنات الإسرائيلية فى مرتفعات الجولان بوابل من الدانات الثقيلة، فى نفس الوقت الذى انطلقت فيه أكثر من خمسمائة دبابة وفرقتان من فرق المشاة السورية متجاوزة خطوط وقف إطلاق النار لعام ١٩٦٧، وقد تقدمت فى طريقها صوب حدود إسرائيل، ولكن لحظات العز والمجد الحقيقى كانت تصنع على رمال سيناء، حيث قام الجيش المصرى بعبور قناة السويس الذى تدربوا عليه كثيراً، وقد أدت شحنات الديناميت الناسفة الضخمة التى زرعها رجال الصاعقة المصرية بالتعاون مع الضفادع البشرية فى الليلة السابقة للحرب إلى فتح ثغرات فى قلب الساتر الترابى الذى بلغ طوله أكثر من ستين قدماً وأقيم على الجانب الشرقى للقناة.

وعلى الجانب المصرى قفز مائة جندى من جنود الفرقة السابعة داخل القوارب المنتظرة وانطلقوا بأقصى سرعة تحت وابل من نيران المدفعية الثقيلة، واندفعوا من خلال إحدى الثغرات فى الحاجز الرملى لرفع العلم المصرى مرة أخرى فوق سيناء، كما قامت

القوات المصرية باستخدام مضخات المياه ذات الضغط العالى التى صنعت فى ألمانيا الغربية لتدمير هذا الحائط الرملى الإسرائيلى.

ومن هنا بدأت طلائع القوات المصرية فى مهاجمة ثلاث دبابات، وامتدت من خلفهم الجسور العائمة من جنوب القنطرة حتى شمال الإسماعيلية عبر الممر المائى الضيق الذى كان يعد حاجزاً معوقاً للجنود المصريين للانطلاق إلى الأراضى التى تحتلها إسرائيل. وبعد أن بدأت جحافل القوات المصرية فى العبور الكبير تحت صيحات (الله أكبر الله أكبر)، رفع الجنود بنادقهم مهللين فى ظل نشوة الانتصار.

لقد شهد العرب ميلاد كرامتهم وبعثها من جديد بعد أن عانوا طويلاً من الذل والعار الذى حاق بهم، وهاهم يشهدون يوماً أشرقت فيه شمس الكرامة والكبرياء. وقد كتب الأستاذ ملحم مكرم ـ أشهر صحفى فى لبنان ـ على صدر صفحة جريدته الأولى (لقد انتصرنا حتى وإن تحولت مدننا وقرانا إلى خراب ودمار فى الأسابيع المقبلة).

وسرعان ما سقطت خمسة وعشرون من النقاط الإسرائيلية الضخمة، وتلاها سقوط خط بارليف، وبدأت توابع الزلزال تتكشف رويداً رويداً، فها هم الأسرى الإسرائيليون الذين قيدتهم حبال المصريين، وها هى أحذية زملائهم الذين أصابهم الرعب فلاذوا بالفرار، حتى أن إذاعة إسرائيل أصبحت تكذب مثل إذاعة صوت العرب أثناء حرب ١٩٦٧، فقد فاحت منها الأكاذيب وفقدت مصداقيتها وصاح أحد المذيعين العسكريين العاملين فى إذاعة الجيش الإسرائيلى قائلاً: (أيها العرب الجبناء، سوف نسحق عظامكم ونحول نهاركم إلى ليل أسود، وسنمرغ وجوهكم فى التراب وستتكبدون نفقات باهظة).

وفى اليوم التالى اندفعت الدبابات المصرية نحو الدبابات الإسرائيلية، وتمكنت الدبابات المصرية من تدمير جميع الدبابات الإسرائيلية التى تصدت لزحفها، وسقط اللواء عساف ياجورى ـ قائد اللواء ١٩٠ مدرعات ـ أسيرا ومعه نحو ٢٥ دبابة تعمل تحت قيادته، وقد ظهرت صورته هو وزملاؤه على شاشة تليفزيون القاهرة. وكان الأخطرمن ذلك أن سلاح الطيران الإسرائيلى قد تم تحييده بعد أن تجلى دور حائط

الصواريخ الذى أرغمها على الانكماش، ومن ثم أدركت قوات سلاح الطيران فى إسرائيل أن دورها قد تقلص وتراجع أمام ثقة النسور المصريين.

وزحفت القوات المصرية نحو ثلاثة عشر ميلاً داخل سيناء، أى قبل الممرات بنحو تسعة أميال، بينما كانت المعركة تدور فى عنفوان قوتها على مرتفعات الجولان بين سلاح المدرعات السورى ونظيره الإسرائيلى.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع تغير سير المعركة ضد العرب، حيث تدفقت طائرات الشحن الأمريكية على مطار مدينة العريش حاملة على متنها أحدث الأسلحة الأمريكية التى لم يسبق استخدامها من قبل.

وأمام تراجع السلاح العربى أمام السلاح الأمريكى، وقعت الثغرة التى قادها إسحق شارون رئيس وزراء إسرائيلى الحالى، وسرعان ما بدأت المعارك الجوية بين سلاح الطيران المصرى والسلاح الجوى الإسرائيلى.

وعلى الجانب الآخر فى الجبهة السورية توقفت جحافل القوات الإسرائيلية عند قرية (سعه) على مقربة من مدينة دمشق، أما على الضفة الشرقية للقناة فقد استبسل المصريون وتمسكوا برأس أحد الجسور الضيقة فى سيناء.

وقف اطلاق النار

وفى نيويورك عاصمة المال الأمريكية أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار رقم ٣٣٨ الداعى إلى وقف إطلاق النار، وكان هذا هو القرار الذى ينتظره أنور السادات على أحر من الجمر، حيث قبلت مصر وقف اطلاق النار دون أى تشاور مع سوريا، وبالتالى فقد وافق السوريون لأنه لم يكن لديهم خيار غيره.

وبدأ سريان وقف إطلاق النار فى تمام الساعة السابعة من مساء الثانى والعشرين من أكتوبر، ولكنه تعرض للخرق على يد القوات الإسرائيلية التى اخترقت وتقدمت نحو مدينة السويس لمحاصرة الجيش الثالث الميدانى، ولكن فى الثالث والعشرين من أكتوبر تم وقف إطلاق النار فعلياً.

لقد استمرت الحرب حوالى ثلاثة أسابيع، وتكبدت فيها جميع الأطراف خسائر فادحة من الأفراد والمعدات، باستثناء العرب الذين انتصروا لكرامتهم وارتفعت معنوياتهم، وهكذا أعادت الحرب مفهوم الوحدة العربية بعد أن تغيرت الظروف لصالح العرب.

وخلاصة القول فى نتائج هذه الحرب أن هناك بعض البلدان العربية التى شهدت وفرة هائلة وسعة فى المال بعد أن ارتفع سعر برميل النفط إلى رقم تجاوز خيال وتوقعات المحللين والمراقبين، وراحت جميع هذه البلدان النفطية تعمل لصالح شعبها فقط من خلال توفير وسائل وأدوات الراحة والرفاهية، وأداروا ظهورهم لمصر وشعبها وأبنائها ورئيسها الذين نزفوا دماء وزرفوا دموعاً وتصببوا عرقاً وبذلوا جهداً وعناء من أجل إعادة الكرامة للعرب، وحققت هذه الدول النفطية كنوزاً من الذهب والدولارات لا حصر لها، بينما عاش الشعب المصرى يعانى الفقر والشح رغم ثراء بعض جيرانه من شعوب الخليج.

وضاق المصريون ذرعاً بهذه المعايير المزدوجة، فهم أصحاب النصر وصناعه بينما غيرهم حصدوا ثماره. وقد ترددت نغمة سادت بين أبناء الشعب المصرى تقول منذ حرب أكتوبر حتى الآن (كتب علينا أن نتضور جوعاً وحدنا، ونموت فى سبيل الوطن والأمة العربية وحدنا، ونحارب وحدنا، ونفلس وحدنا)، كما ترددت نغمة أخرى تقول: (إننا جنود مصر كتب علينا أن نحارب وحدنا حتى آخر جندى مصرى لا عربى).

على أية حال فإن السادات بذكائه ودهائه استطاع توظيف واستغلال مكاسب حرب أكتوبر العسكرية والسياسية من خلال أطروحات مغايرة لواقع الحال تمكنه من استعادة الأراضى المحتلة.

مفاوضات السلام

(فى السادس من نوفمبر ١٩٧٣ وصل إلى القاهرة هنرى كسينجر وزير خارجية أمريكا فى عهد الرئيس ريتشارد نيكسون، وفى أواخر شهر أكتوبر التقت مصر وإسرائيل بين القاهرة والسويس من أجل توقيع اتفاقية تقضى بوقف إطلاق النار

بينهما، حيث إن جيشهما ظلا متشابكين على طول قناة السويس. وبحلول شهر يناير استطاع كسينجر من خلال قيامه برحلاته المكوكية الشهيرة بين القاهرة ودمشق وتل أبيب إقناع الجانب الإسرائيلى بالانسحاب للوراء نحو ١٥ ميلاً من الضفة الغربية للقناة، مما أدى إلى إطلاق سراح ثمانية عشر ألفاً من رجال الجيش المصرى، وكان مطلوباً من مصر نظير تلك الاتفاقية التخلى عن سوريا وترك حافظ الأسد بمفرده للتفاوض مع إسرائيل حول مسألة الجولان).

وفى شهر سبتمبر تفاوض السادات بشأن اتفاقية سيناء الثانية التى استردت مصر بموجبها ألفى ميل مربع من أراضى سيناء، وقد عارض العرب هذه الخطوة خاصة بعد أن تعهدت مصر علناً بعدم لجوئها إلى إصدار التهديدات ضد إسرائيل وأدرك العرب أن الوحدة العربية ذهبت مع هذا الإعلان إلى غير رجعة، ولكن السادات كان يبحث عن معونات ومنح أمريكية بدلاً من الاعتماد على جيران يمنحونه ببطء شديد وأحياناً كانوا يمتنعون، فضلاً عن أن السادات أراد أن ينعم شعبه بالرخاء والرفاهية والاستقرار والأمن بعيداً عن أصوات السلاح، وخاصة بعد أن عانت بلاده طويلاً من الحروب التى راح ضحيتها الآلاف، ناهيك عن أن القوات المسلحة كانت تلتهم بمفردها نحو مليارى دولار وأكثر كل عام، وهو ما كان يعرقل طموحات أنور السادات ويتسبب فى تدهور الأحوال الاقتصادية والمعيشية فى مصر.

الانفتاح..

وفى ربيع عام ١٩٧٣ حاول السادات جاهداً تحسين الأوضاع الاقتصادية من خلال إنهاء النظام الاشتراكى الذى فرضه نظام جمال عبد الناصر طوال حقبة الستينيات، وقد تمخض عن سياسة الانفتاح الاقتصادى انتعاش طفيف أنقذ الاقتصاد المصرى من الانهيار، رغم نشوء طبقة أطلق عليها المثقفون المصريون لقب القطط السمان والطفيليين وأغنياء الحرب، وغيرها من المسميات الهزلية.

وقد استمدت هذه الطبقة الانفتاحية الجديدة أسلوب حياتها وثقافتها من مخزون الغرب وأمريكا، وتسببت كثيراً فى إثارة حفيظة أبناء المجتمع الذين عانوا كثيراً من

اتساع الهوة بينهم، حيث توافدت على مصر كافة المنتجات الاستهلاكية كالعطور والبرفانات ومساحيق التجميل والشامبوهات وغيرها من السلع الاستهلاكية التى أثرت باستيرادها شريحة كبيرة من الذين هبطوا على المجتمع المصرى بباراشوتات، فضلاً عن اتجاه بعضهم للاتجار فى منتجات غذائية فقدت صلاحيتها أملاً فى ربح سريع ووافر.

وفى صباح الثامن عشر من يناير عمت المظاهرات أنحاء البلاد بعد أن ترددت أنباء تفيد بارتفاع الأسعار، ومع تعامد الشمس على العاصمة كانت البلاد قد شهدت أسوأ حالات التدمير والخراب، ثم توالت المظاهرات فى اليوم التالى، مما أدى إلى نزول قوات الجيش إلى الشوارع لإعادة الاستقرار، بعد أن تراجع أنور السادات عن قراراته التى أثارت جموع الشعب. وقد أطلق السادات على هذه الانتفاضة تعبيراً ظل شائعاً حتى اليوم وهو (انتفاضة الحرامية) مشيراً إلى حالات السرقة والنهب التى قام بها هؤلاء المواطنون الذين اقتحموا المتاجر والملاهى، إلا أن السادات قوبل بعاصفة احتجاج وغضب من المثقفين، وعلى رأسهم هيكل الذى أسماها (مظاهرات الطعام).

وحوصر السادات أمام هذه الورطة وتلك الضغوط، وخاصة بعد أن تخلى العرب عن مساعدته ومساندته، وراح يرمى شباكه فى مغازلة علنية للأمريكان، لعل هذه المحاولة تعمل على سد الرتق الواضح فى الثوب الاقتصادى المصرى الذى أصبح مهلهلاً.

وفى خريف ١٩٧٧ أعلن السادات أمام أعضاء مجلس الشعب المصرى أنه على استعداد للسفر إلى إسرائيل إذا كان ذلك من شأنه أن ينهى حلقة الصراع العربى الإسرائيلى، وكانت لكلمات السادات صداها، حيث ظن البعض أنها مناورة منه، بينما أدرك آخرون أنه صادق بالفعل خاصة أنه رجل القرارات الصعبة والمفاجئة.

وفى صباح الاثنين الرابع عشر من نوفمبر ١٩٧٧ أعلن السادات لأحد مراسلى محطة سى بى إس الأمريكية أنه متمسك بالعرض الذى طرحه فى البرلمان المصرى، وأنه فى انتظار دعوة من قادة إسرائيل، وبعد ساعات أجاب مناحم بيجن بأنه على استعداد لتوجيه الدعوة للرئيس أنور السادات لزيارة إسرائيل..

وتلقى السادات الدعوة وذهب إلى إسرائيل فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ فى خطوة جريئة أذهلت الخصوم والأصدقاء. وعند زيارة السادات شنت الدول العربية ـ وعلى رأسها ليبيا وسوريا والعراق ـ أعنف هجوم على أنور السادات، حتى أنهم اتهموه بالعمالة وبالخيانة، ولكن السادات الماكر كان يدرك أن شعبه قد ضاق ذرعاً بالحروب ولم يكن راضياً عن حالة التأهب المستمرة للحرب مع إسرائيل، حيث كان الشعب يتطلع إلى حياة هادئة مطمئنة ومستقرة. وعانى السادات من قائمة هذه الاتهامات التى حاصرته، وغضب أشد الغضب من أصدقائه السعوديين الذين أعلنوا رفضهم لهذه الخطوة التى أخرجت مصر من حلبة الصراع العربى الإسرائيلى.

وفى مساء ١٩ نوفمبر صعد أنور السادات طائرة مروحية هبطت به فى مطار أبو صوير سراً، ثم صافح أعضاء مجلس الوزراء وبعض أعضاء البرلمان المصرى ومراسلى وكالات الأنباء العالمية الذين كان السادات يتودد إليهم لتلميع صورته وموقفه وقراراته فى أعين الشعب والقادة الأمريكيين، حيث كان السادات بحق خبيراً فى فن الدعاية والإعلام.

وعلى متن الطائرة الرئاسية اتجه الرئيس السادات إلى تل أبيب، وعلى أحد ممرات مطار بن جوريون حطت الطائرة الرئاسية عجلاتها أمام مؤسسات ووكالات الأنباء العالمية لمتابعة أخطر أحداث المنطقة العربية. وهبط السادات من الطائرة بينما كانت إحدى الفرق العسكرية الموسيقية تعزف السلام الوطنى المصرى والسلام الإسرائيلى، ثم تبع حرس الشرف الإسرائيلى وتفقد طابور مستقبليه وسط دهشة وذهول العالم أجمع. وقد تقدم طابور المستقبلين أشهر وأكبر قادة إسرائيل، وعلى رأسهم رئيسا الوزراء السابقين إسحق رابين وجولدا مائير، وإلى جوارهما وقف موشى ديان وزير دفاع إسرائيل السابق وأريل شارون قائد القوات الإسرائيلية فى سيناء، والذى داعبه أنور السادات قائلاً بصوت مسموع (كنت هضربك فى الثغرة يا شارون)، كما كان هناك بالطبع مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل، والذى كان فى مقدمة مستقبليه بصفته

رئيساً لوزراء إسرائيل ومحاربا يهوديا قديماً.

وقضى أنور السادات تلك الليلة التاريخية فى فندق الملك داود، وهو الفندق الذى تعرض لعلميات إرهابية قادها بيجن عام ١٩٤٦، كما تعرض لقصف مدفعى من القوات الأردنية عام ١٩٦٧. ووافق اليوم التالى عيد الأضحى، وهو أحد أهم الأعياد المقدسة لدى المسلمين، خاصة أن إبراهيم أبو الأنبياء قد قبل التضحية فيه بابنه كما أمره الرب، وهذه قصة أخرى.

المهم أن الرئيس السادات قام بأداء الصلاة داخل المسجد الأقصى، وتكريماً لأقباط مصر قام بزيارة كنيسة القيامة، ثم فى حركة تليفزيونية اتجه إلى رياد فاشيم، وهو النصب التذكارى لمحرقة اليهود الشهيرة بـ(الهلوكست) التى صنعها النازى، وكان أغرب ما فعله السادات هو قيامه بوضع إكليل زهور على نصب الجندى الإسرائيلى المجهول.

وفى عصر هذا اليوم ـ وبالتحديد فى تمام الساعة الرابعة عصراً ـ ذهب أنور السادات إلى مبنى الكنيست وألقى خطاباً تاريخياً استغرق حوالى ساعة فقط، وقد اعترف من خلاله بوجود دولة إسرائيل وحقها فى الوجود والحياة، وقد قال بالنص: إننا نوافق على العيش معكم. لقد أصبحت إسرائيل أمراً واقعاً يعترف به العالم العربى.

ولكن السادات الذى اعترف وشهد بأحقية الجوار بين إسرائيل والعالم العربى هو نفسه السادات الذى نادى من على منبر الكنيست مطالباً بإعادة جميع الأراضى العربية المحتلة، بما فيها مدينة القدس، والاعتراف بأهمية وجود وطن فلسطينى لإنهاء حالة الصراع العربى الإسرائيلى.

وفى فرحة غامرة خرج نحو خمسة ملايين مصرى تأييداً للسادات على تلك المبادرة التى غيرت مجرى تاريخ الأمة العربية، حيث ظن أبناء الشعب المصرى أن الرخاء قادم وأن الحرب قد انتهت وأن الحالة الاقتصادية فى طريقها للتحسن والنمو، وراح كل منهم يرفع لافتات كتب عليها: (أهلاً ببطل الحرب والسلام، مرحباً يا بطل السلام).

وهكذا خرج المصريون لا يكترثون بالوحدة العربية أو القومية التى نادى بها من قبل جمال عبد الناصر، فقد خرجوا يهللون لتأييد دعوته، إذ إن المصريين الذين عانوا طويلاً من الحرب كانت لديهم الرغبة فى التخلى عن العرب والعروبة والأمة وقوميتها ويهودة للجذور الفرعونية.

لقد جاهر أنور السادات بالتخلى عن عروبته والالتفات إلى مصلحة بلاده دون أن يعبأ بمصالح الدول العربية الأخرى.. ونتيجة لذلك فقد ابتعدت مصر عن العرب وابتعد العرب عنها، وحين قامت مصر بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد حدثت الوقيعة الكبرى، واجتمعت الدول العربية المناهضة والمعارضة لمبادرة السلام لمعاقبة أنور السادات، حيث أعلنوا فى مؤتمر طرابلس المنعقد فى ديسمبر ١٩٧٧ عدم حضور اجتماعات جامعة الدول العربية إلى جانب تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر، وهو القرار الذى أثار حفيظة أنور السادات فقام بطرد دبلوماسيى هذه الحكومات. وقد أدت هذه القرارات العصبية الصادرة من الجانبين إلى تصعيد الأمور وفرض العزلة على مصر وانكماشها، حتى جاءت قمة بغداد التى عقدت فى أكتوبر ١٩٧٨، وقد عرضت السعودية خلالها منح مصر معونة مالية ضخمة إلا أن السادات رفضها حرصاً على كرامة مصر وعزتها، وأكد أن بلاده لا تنتظر منحاً من أحد بهذا الشكل وهذه الطريقة، وأن مصر لا تساوم على مصالحها الوطنية والإستراتيجية.

ودارت حرب ساخنة بين مصر من جانب وباقى الدول العربية من جانب آخر من خلال وسائل الإعلام والصحف، وكانت رسومات الكاريكاتير هى المادة المقررة التى تنال من رؤساء الدول العربية، سواء المنشورة فى صحف مصر أو سوريا أو غيرها.

وكانت أشهر هذه الرسومات التى نشرها مصطفى حسين الرسام العربى المعروف، والذى كان ينشر رسومات عديدة استخفافية بالرئيس الليبى معمر القذافى وقادة المنظمات الفلسطينية الذين يعيشون فى العوامات النيلية أو فى الفنادق العائمة فى مصر والعالم.

وقاد نجيب محفوظ وأنيس منصور وتوفيق الحكيم حملة عنيفة على العرب،

مؤكدين أحقية مصر فى بناء نهضتها من خلال الجنوح للسلام. أما أكثر هذه الدعوات تطرفاً فكانت تتمثل فى الملصقات التى وضعت على واجهة السيارات فى شوارع مصر، وقد جاء فيها (مصر.. إما أن تحبوها وإما أن تتركوها).

وفى سبتمبر ١٩٧٥ ذهب أنور السادات وتبعه بيجن إلى واشنطن، وتوجها للقاء الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى منتجع ولاية ميريلاند. وعلى مدار ثلاثة عشر يوماً ظل العالم يتلهف وينتظر نتائج هذه الاجتماعات المغلقة التى أثارت الأقاويل والتكهنات والعديد من الألغاز والتوقعات والافتراءات.

وطوال هذه الأيام كان السادات يسعى جاهداً لإعادة سيناء كاملة والقدس للفلسطينيين ووقف بناء المستوطنات اليهودية، بينما كان بيجن متمسكاً بكل هذه الأراضى.

وكادت المفاوضات تتعرض للانهيار لولا التدخل المستمر للرئيس الأمريكى جيمى كارتر، الذى بذل جهوداً خارقة من أجل إنجاح تلك الاجتماعات التى اعتبرها كارتر قضيته وشغله الشاغل.

وفى اليوم الخامس عشر بلغت الأمور حداً غير مسبوق، حيث أمر الرئيس أنور السادات رجاله بحزم حقائبهم للعودة إلى القاهرة، رافضاً اقتراحات بيجن. وسعى كارتر كالعادة محاولاً تهدئة السادات الثائر، وأعلن بوجه شاحب ـ رغم لون بشرته البرونزى ـ أن السادات وبيجن بصدد توقيع معاهدة سلام قريباً، وأن التطبيع سوف يتم بينهما بعد عام مقابل عودة سيناء إلى مصر خلال الثلاثة أعوام القادمة. أما فيما يتعلق بقضية القدس وغزة فقد اكتفت الأطراف الثلاثة بتوقيع معاهدة للوصول إلى حكم ذاتى للفلسطينيين فى الضفة وغزة وتجميد بناء مستوطنات جديدة، ولكن هذه المعاهدة لم تر النور نظراً للهجوم العربى الكاسح على السادات، وبالطبع فقد تراجع بيجن عن المعاهدة التى تتعلق بالفلسطينيين، خاصة أنه استغل عصبية الرئيس السادات ضد العرب وهجومهم عليه.

ومن جانبها كانت إدارة البيت الأبيض بالولايات المتحدة ترى أنها قد فعلت ما لم

تستطع أى إدارة أخرى أن تفعله، وأن مصر هى الدولة الوحيدة التى ينبغى على إسرائيل أن تمد لها يد السلام.

وفى سوريا اجتمعت جبهة الصمود والتصدى التى ضمت سوريا وليبيا والعراق واليمن وفلسطين وتونس، ووجهت كل دولة هجوماً عنيفاً على السادات. وفى السعودية رفض آل سعود كل أشكال مبادرة السلام وما ترتب عليها، مطالبين بضرورة عودة مصر للحظيرة العربية وذلك من منطلق عقلية آل سعود القبلية التى ترفض التشتت.. أما السادات فقد تعهد لأمريكا بالسفر إلى السعودية والأردن لشرح ملابسات وظروف اتفاقية كامب ديفيد، ومحاولة إقناعهم بتأييده إلا أنه رفض ذلك بعد عودته من أمريكا، فقد أحس أنه كالطاووس وأنه بطل الحرب وبطل السلام الذى أثار إعجاب العالم كله.

وراح الرئيس أنور السادات يردد مقولته الشهيرة (لا قيمة للعرب بدون مصر)، كما أدان الملك حسين علنا بأنه حفيد الملك عبد الله الذى كان على صلات بالإسرائيليين منذ قيام الدولة، ورد الملك حسين بأن السادات الذى يتهم جده فى هذا الصدد لا ينبغى عليه الحديث فيما يتعلق بالعلاقات مع اليهود لأنه هو الذى جاهر وأعلن اعترافه بهم دون مواربة. وزادت حدة الخلافات الساداتية العربية، وشعر الرئيس أنور السادات بالعزلة.

ولم تقف المعارضة عند حد الدول العربية المناوئة لاتفاقية كامب ديفيد، بل إنها وصلت إلى صفوف المثقفين المصريين، وخاصة قادة حزب التجمع وعلى رأسهم الأستاذ خالد محيى الدين، وإبراهيم شكرى رئيس حزب العمل، اللذان رفضا مبادرة السلام وبنود معاهدة اتفاقية كامب ديفيد. واتسعت عزلة السادات فى الداخل والخارج، واعتمد كلياً فى اقتصاد مصر على المنح الأمريكية ومعوناتها التى دعمت الاقتصاد المصرى، بالرغم من أن عام الرخاء الذى وعد به أنور السادات الشعب المصرى لم يأت فى ظل التحديات الاقتصادية الرهيبة التى واجهت مصر بعد أن تخلى العرب عنها.

السادات فى الميزان

وفى ٥ سبتمبر عام ١٩٨١م قام السادات الغاضب على قوى الداخل والخارج باعتقال نحو ١٥٣٦ مثقفاً وسياسياً مصرياً من أشهر معارضى اتفاقية كامب ديفيد من كافة الفصائل والقوى الوطنية، وعلى رأسهم السياسى الوفدى محمد فؤاد سراج الدين والكاتب محمد حسنين هيكل والكتاب عمر التلمسانى المرشد العام للإخوان المسلمين وغيرهم من رموز مصر الثقافية والسياسية والدينية. ومرت البلاد بفترة عصيبة لم تشهدها من قبل فى حكم أنور السادات، الذى تميز برحابة الصدر وسعة العقل، إلى أن قامت مجموعة من فصائل الجماعات الدينية المتشددة ـ والتى اتهمت السادات بالكفر والانحلال ـ بالانقضاض عليه ظهر يوم السادس من أكتوبر ١٩٨١، لتنتهى حقبة من الأحداث التى أثارت دهشة الجميع.

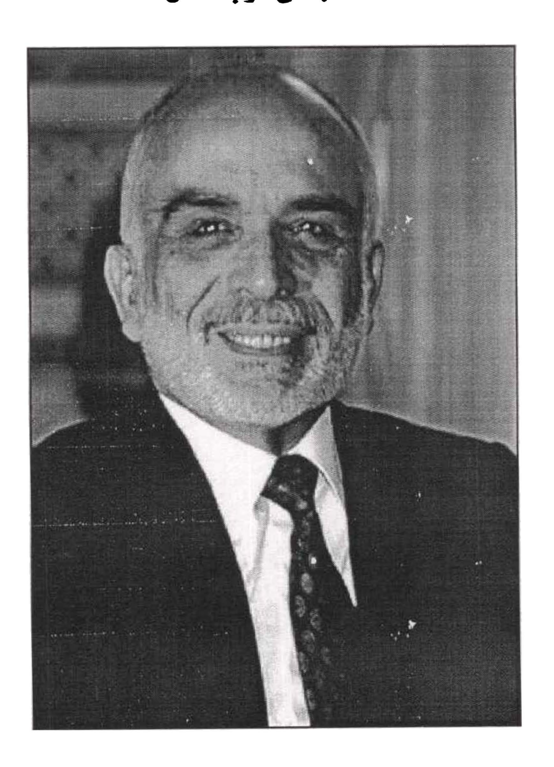
وظل السادات فى الميزان بين مؤيد لسياسته ورافض لها، وإن كانت بعض الدوائر التى عارضت حكمه فى الماضى صارت على نهجه الآن، سواء فى أنظمة الحكم فى سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، أو فى جميع دول الوطن العربى التى كانت ترفض سياسة السادات، فقد أعلنت هذه الدول صراحة أن الدول العربية تعتقد أن السلام أصبح مطلباً استراتيجياً، معلنة تبنيها مبدأ (الأرض مقابل السلام).

وهكذا عادت رؤى السادات الذى تعرض لرصاصات غادرة بسبب حكمته وسياسته الرشيدة التى لم يستطع البعض قراءتها وتفسيرها فى حينها، ولكن التاريخ أنصف السادات أخيراً. والسؤال الآن هو: إذا كانت القوى العربية قد اعترفت أخيراً بفضله، فما هو وضعه فى ميزان الشعب المصرى؟.



الفصل الثالث

«الملك حسين... قصة الخيانة»
ثعلب فى ثوب حمل



الملك حسين.. الخيانة والدهاء

حين اندلعت شرارة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان عمر الملك حسين لا يتجاوز الثلاثة عشر عاماً وكانت عيناه تتابعان جده عبد الله وهو يتودد تارة لأبناء أمته العربية علناً وتارة أخرى يتودد فى الخفاء للصهاينة.

وعندما نشبت الحرب بين الدولة اليهودية الوليدة والقوى العربية راح الملك عبد الله يضم الضفة الغربية لنهر الأردن، بما فى ذلك الخليل وأريحا ونابلس والقدس الشرقية، وربما دفعت هذه التصرفات المتناقضة الجامعة العربية للتهديد بطرد الأردن من عضوية الجامعة العربية.

وواجه عبد الله هذا التهديد بذكاء ودهاء، فقد وجد نفسه بين عزلة تنتظره من جيرانه العرب والتمسك بالأراضى الفلسطينية التى احتلها، واختار أقلها ضرراً فى تقديره وهو الحفاظ على مكاسبه فى فلسطين وأظهر عدم احترامه وتقديره للزعماء العرب الذين توحدوا ضده وواصل استمراره فى دعم أواصر الصداقة مع قادة إسرائيل.

وفى ديسمبر ١٩٤٨ اجتمع عبد الله بمجموعة من الفلسطينيين المدنيين فى مجلس مدينة أريحا، وبعد أن وافقوا على رأى عبد الله بأن فلسطين والأردن تربطهما علاقات تاريخية مشتركة منحوا عبد الله تفويضاً كاملاً بتمثيلهم. وكان الفلسطينيون من قبل قد سادت بينهم الخلافات الشديدة والانقسامات، وجاءت خطوة مباركتهم لسياسة عبد الله الجديدة بمثابة إسدال الستار على الخلافات المتفاقمة بينهما.

(وفى أعقاب هذه الخطوات الخطيرة انقسم رعايا الملك عبد الله بين الجنسية الأردنية والجنسية الفلسطينية. وفى عام ١٩٤٩ قام الملك عبد الله بتغيير اسم البلاد من شرق الأردن إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وذلك فى انعكاس واضح لأطماع الأردن الجغرافية، وبغض النظر عن هوية التركيبة السكانية.

وفى عام ١٩٥٠ خامرت الملك عبد الله أحاسيس بالخوف والقلق حين لاحظ ازدياد عدد مواطنى الضفة الغربية الذين بلغوا نحو تسعمائة ألف فلسطينى وما يقرب من خمسمائة ألف من اللاجئين الفلسطينيين أيضاً، حيث إن هؤلاء الفلسطينيين الذين منحهم عبد الله حق المواطنة فاق عدد الأردنيين بنسبة اثنين إلى واحد.

عبد الله سياسته.. وأغتياله

كان هناك عدد محدود من أبناء الأردن يعيشون فى منطقة غرب نهر الأردن، وقد نشبت الخلافات والصراعات بين السكان الأردنيين الأصليين واللاجئين الفلسطينيين الذين اندمجوا معهم فى الضفة الشرقية، وكان معروفاً أن رعايا عبد الله الأصليين يمثلون الحدود السكانية.

وتفاقمت العداءات بينهم يوماً بعد يوم خاصة أن الفلسطينيين نجحوا فى التوافق الفكرى مع ثقافات أبناء سواحل البحر المتوسط، وتحول أغلبهم إلى الطبقات الحرفية والمهنية، حيث صاروا تجاراً وأصحاب عقارات ومحلات وحرفيين نظراً لتفوقهم ونبوغهم، وبسبب هذه الفجوة التى حدثت لصالح الفلسطينيين الذين كانوا يتمسكون بالعادات البدوية وتقاليد الصحراد، وبدلاً من اللجوء إلى المنافسة والاعتماد على العقل والمهارة، أصبح الفلسطينيون من هذا المنطلق ضيوفاً غير مرغوب فيهم، واتهمهم الأردنيون بسلب حقوقهم ومكانتهم رغم أنهم أصحاب البلاد الأصليين. أما الفلسطينيون فلم يشعروا بأى عاطفة ولاء للأردنيين رغم تقدمهم وتفوق أحوالهم المعيشية على أبناء البلاد الأصليين من الأردنيين البدو.

وأدرك الملك عبد الله أن المتعلمين والمثقفين من أبناء الشعب الفلسطينى يمثلون خطراً داهماً على مملكته، خاصة أنه لاحظ أن بعض هؤلاء الفلسطينيين لا يروق لهم أن

يحكموا أحد أبناء البدو وهم أصحاب ثقافة وتاريخ عريق، بالإضافة إلى أن الفلسطينيين كانوا يرون فى الملك عبد الله رمزاً للخيانة، وأنه الذى قام بمصافحة اليهود وتعاون معهم وأنه صنيعة الساسة اليهود.

وكان الملك عبد الله هو الآخر لا يثق إطلاقاً فى الفلسطينيين ولا يكن لهم أى احترام، ولكن مصالحه كانت تتطلب نفاقهم والتودد إليهم. وحاول الملك إزالة أى شعور بوجود كيان فلسطينى منفصل داخل مملكته الوليدة، فقام بمحو التاريخ والثقافة الفلسطينية، كما أزال أيضاً علم فلسطين من فوق دور المبانى الحكومية والمدارس والمرافق العامة، ولأن عبد الله أحس بخطر قادم على مملكته فقد استنكر بشدة النزعة الانفصالية الفلسطينية على اعتبار أنها ضربة موجهة لمعنى الوحدة المقدسة داخل ضمير كل مواطن عربى ولكن الحاج أمين الحسينى الذى كان يتميز غيظاً فى منفاه لم يكن على استعداد للتهاون فى حق بلاده المشروع الذى تربصت به الدول الكبرى بالتعاون مع اليهود والملك عبد الله.

وفى يوم ٢٠ يوليو ١٩٥١ اتجه الملك عبد الله إلى القدس لأداء صلاة الجمعة رغم المعلومات التى توافرت لديه حول مؤامرة لاغتياله يتأهب لها البعض. وكان السفيران الأمريكى والإنجليزى قد ناشداه عدم التوجه إلى القدس أو الصلاة فى المسجد الأقصى نظرا للمؤمرات التى تحاك ضده، ولكن الملك أصر على الصلاة فى المسجد الأقصى ضارباً بتحذيرات السفراء والخبراء الأمنيين عرض الحائط، وحين عبر عتبة المسجد الأقصى قبيل أذان الصلاة اقتحم موكبه شاب يدعى مصطفى شكرى ينتمى إلى جيش الخلاص القادم الذى يتزعمه الحاج أمين الحسينى. ولأن القاتل كان فلسطينياً فقد احتدم الخلاف بين الأردنيين والفلسطينيين، وأصبح عداء علنيا، حتى أن جنود الفيلق العربى التابع للملك عبد الله كانوا يطاردون هؤلاء التابعين للشيخ أمين الحسينى.

حسين واستكمال المسيرة

كان الملك حسين كعادة أهل الأردن الأصليين محافظاً على هويته متمسكاً بزيه البدوى، حيث كان يضع غطاء الرأس المشهور بالمربعات الحمراء والبيضاء، وهو زى

أهل البدو الذى يميزهم. وراح الملك يجوب أنحاء الضفة الشرقية يلتمس المساعدة، وطبقاً لعادة أهل الصحراء فقد اتجه إلى إتباع سياسة التودد والتقرب إلى الشيوخ المحليين من خلال زياراته لهم. وبنفس أسلوب المرشح البرلمانى قام بعرض خدماته على من رأى فيه إمكانية مساعدته مستقبلاً.

وكان طلال ـ والد حسين وأكبر أبناء عبد الله ـ هو الملك الذى خلف والده طبقاً لنص الدستور بصفته أكبر أبنائه. ولكن طلال عانى كثيراً من الوحدة وتقلب المزاج، وقيل إنه كان مصاباً بالانفصام فى شخصيته وكثيراً ما تعرض لنوبات من الهياج العصبى وقيل أيضاً على لسان البعض إنه كان عاقلاً ووطنياً ويرفض مصافحة اليهود والتعاون معهم كما كان يفعل أبوه، ولذلك توحدت ضده القوى الغربية والصهيونية واتهمته بالجنون حتى لا يتم إفشال مخطط قيام دولةُ إسرائيل واتساع حدودها.

وبعد فترة ليست طويلة من الوصاية على العرش والقيد فى كلية ساند هيرست بلغ حسين السابعة عشرة من عمره، واعتبر عمره ثمانية عشرة عاماً طبقاً لحسابات التقويم الهجرى، فوقف أمام مواطنيه يحلف قسم اليمين كملك جديد خلفاً لعرش والده الذى تم إيداعه فى إحدى دور المصحات النفسية.

والواقع أنه ذو شخصية انطوائية تميل للوحدة وعدم التجاسر على مواجهة الآخرين بشجاعة، حيث كان خجولا على عكس جده الملك عبد الله الذى اشتهر بمرحه وتواضعه وبساطته، إلا أن الملك حسين كان لديه أيضاً قدر كبير من الاعتزاز والثقة بالنفس، خاصة أنه نجا من إحدى عشرة محاولة اغتيال، بالإضافة إلى تفاخره بأنه أحد أحفاد النبى محمد ﷺ وبأنه حفيد الرجل الذى أشعل نيران الثورة العربية. الشريف حسين. ورغم عراقته وانتماء سلالته إلى نبى الإسلام والمسلمين، إلا أن حسين كان أكثر ميلاً وجنوحاً للغرب، حتى أن لغته الإنجليزية كانت تخلو من الأخطاء وكان يتقنها ويتحدث بها بطلاقة، وقد درس فى إحدى المدارس الداخلية التبشيرية فى عمان وكلية فكتوريا فى الإسكندرية وكلية ساند هيرست.

الصراع مع عبد الناصر

خلال الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ كانت حياة حسين رهينة فى أيدى أتباع جمال عبد الناصر القوميين، ففى داخل قصره تم اكتشاف أحد عملاء ناصر، وقد كان يعمل طاهياً خاصاً للحسين. وجاء الاكتشاف نتيجة وجود نحو ١٥ قطة ماتت بفعل تجارب السموم التى قام بها هذا الطاهى على تلك القطط بأنواع مختلفة من السم. وفى محاولة أخرى قام شخص آخر بوضع حامض فى زجاجة نقط الأنف الخاصة بالملك حسين، وقد لاحظت إحدى مديرات المنزل ذلك من خلال نقل النقاط إلى زجاجة أخرى، حيث لاحظت وجود تآكل على أطراف الزجاجة فتوجهت إلى رئيس الديوان، الذى استدعى بعض الخبراء وتبين أنه سم تم وضعه لقتل الملك.

وهناك محاولة أخرى تعرض لها أثناء زيارته لجامعة عمان لمتابعة بعض ما حدث بها من تطورات، حيث ألقى أحد الأشخاص قنبلة لكنها لم تنفجر. وفى داخل مكتب رئيس الوزراء وضع أحد الأشخاص قنبلة شديدة الانفجار كانت فى انتظار قدوم الملك حسين لمقابلة عدة شخصيات سياسية طلب مقابلتها فى مكتب رئيس الوزراء، إلا أنها انفجرت قبل قدومه بثوان وأودت بحياة كل من كان فى مكتب رئيس الوزراء.

وفى عام ١٩٦٠ أصبح الملك حسين حصناً منيعاً ضد عبد الناصر، الأمر الذى دعا الغرب لدعم مركزه من خلال شحن صفقات الأسلحة والمعونات والمنح التى لا ترد، حتى صار الملك حسين هو رجل الغرب فى المنطقة، ولكنه لم يستطع الابتعاد عن العرب أو حتى الاستمرار فى معاداتهم، بل حاول التقرب من دعوة جمال عبد الناصر وأبدى مفهوماً جديداً ذا صيغة رائعة تؤكد أن قوة العرب تكمن فى عناصر متنوعة ومتباينة، وأنه لابد من إيجاد تنسيق مشترك يجمع مزايا الملكية والجمهورية لإعطاء دفعة جديدة للأمة العربية.

وفى بدايات حقبة الستينيات تغيرت الأحوال الداخلية فى المملكة، واقترب الملك حسين من اللاجئين الفلسطينيين الذين تحسنت أوضاعهم الاقتصادية حتى بات فى مقدور الملك السيطرة على مشاعرهم.

فى عام ١٩٦٤ فكر جمال عبد الناصر فى تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية بهدف تجميع الفلسطينيين اللاجئين تحت راية واحدة يتحد عليها الجميع ويعملون تحت مظلتها، ولكن موقف الملك حسين كان مشوباً بالحذر من تلك الفكرة، ولذلك وافق على تأسيسها بشرط ألا تصبح المنظمة الوليدة عنصراً منافساً لنفوذه وسلطته التى يمارسها على أبناء الشعب الفلسطينى فى الأردن، فضلاً عن رفضه القيام بأية أنشطة معادية تنطلق من أراضيه إلى إسرائيل، ولكنه فشل فى الحصول على تعهد بذلك.

والحاصل أن جماعات كثيرة من الفدائيين الفلسطينيين من أبناء الضفة الغربية كانت تخترق حدود إسرائيل وتقوم بتوجيه ضربات عنيفة إليها ثم سرعان ما تعود إلى داخل الأراضى الأردنية، ومن هنا راح الملك حسين يضع جنود فيلقه العربى على الحدود المشتركة مع إسرائيل لمنع تسلل الفدائيين إليها خشية الانتقام الإسرائيلى، وبالفعل تمكنت قواته من اغتيال أعداد غفيرة من الفدائيين الفلسطينيين الذين تجاوز عددهم حداً غير مقبول.

وفى صباح ١٣ نوفمبر ١٩٦٦ اندفعت قوة يهودية قوامها أربعة آلاف رجل وخمس دبابات من طراز باتون نحو قرية السموع بالضفة الغربية تحت شعار إعادة الأمن والقضاء على المخربين. وقد قام الجنود الإسرائيليون باستخدام رشاشات عوزى فى تشتيت أبناء القرية وطردهم من مساكنهم وأجبروهم على التجمع فى ساحة القرية ثم قاموا بتدمير المنازل والمساجد والعيادات أمام أبناء القرية. وعندما انتهت المهمة عادت الجحافل اليهودية إلى قواعدها، تاركين وراءهم أكثر من عشرين قتيلاً فلسطينياً من مواطنى الملك حسين.

وفى أعقاب هذا الحادث الإجرامى خرجت المظاهرات تجوب أنحاء الأردن، وقام المتظاهرون الثائرون بتمزيق صور الملك حسين وتحطيم اللافتات التى تؤيد نظام حكمه. وهللت مصر وسوريا للمظاهرات، وشارك راديو صوت العرب فى شن أعنف هجوم على الملك حسين الذى تقاعس عن رد العدوان أو شجبه، كما انضمت منظمة التحرير الفلسطينية إلى حلبة مصر وسوريا ونذد بتصرفات الملك السلبية إزاء العدوان، ومن ثم

وجد الملك حسين نفسه محاصراً بين فلسطينى الداخل والقوى العربية المجاورة له، والتى نددت بهدوئه وسعيه للتفاوض مع إسرائيل على غرار سياسة جده عبد الله.

والواقع أن الملك كان يسعى بالفعل لمغازلة الساسة اليهود، إلا أن مذبحة قرية السموع دفعته للتخلى عن هذه الفكرة مؤقتاً حتى تعود الأحوال كما كانت عليه قبل وقوع المذبحة، ثم قام فى حركة تمثيلية تتعارض مع ما يدور فى خلده ونفسه بتوزيع شحنات الأسلحة الأمريكية على رجال الفيلق العربى. وأمام تحديات الداخل والخارج مارس الملك حسين سياسته المعروفة بالمكر والدهاء من خلال توطيد أواصر المودة مع قادة جيشه، خاصة قادة الفيلق العربى، ولكن التحديات كانت تفوق إمكانيات أنصاره.

وفى شتاء ١٩٦٧ وأثناء اشتعال الأزمة بين عبد الناصر وإسرائيل واجه الملك حسين مرة أخرى مظاهرات عارمة تطالب بضرورة الانخراط فى الوحدة العربية والانضمام لصف جمال عبد الناصر، ورغم أن الملك حسين كان لا يريد الدخول فى مواجهة مع إسرائيل إلا أنه وجد نفسه مندفعاً نحو جمال عبد الناصر تحت وطأة الضغوط الشعبية العنيفة التى أجبرته على الإقدام على هذه الخطوة، وذلك تجنباً للدخول فى حرب أهلية مع الفلسطينيين الذين يعيشون تحت مظلة حكمه، ثم فى نهاية مايو ١٩٦٧ وجد الملك حسين نفسه جالساً على حجر جمال عبد الناصر رغم أنفه).

اتفاقية الدفاع المشترك

فى ٣٠ مايو ١٩٦٧ وصل الملك حسين إلى القاهرة مرتدياً الزى العسكرى وهو يتمزق داخلياً، وقد ابتلع سنوات الشتائم والإهانات التى بثها راديو صوت العرب ضده، وجلس الملك حسين مع ناصر وجهاً لوجه، ووجد نفسه مرة أخرى يوقع أمام جمال عبد الناصر على اتفاقية الدفاع المشترك، على أن يتولى لواء مصرى قيادة القوات العسكرية الأردنية حال وقوع الحرب، وكان هذا اللواء هو عبد المنعم رياض.

وكعادة العرب أذاع راديو صوت العرب بنود المعاهدة، وأظهر الملك حسين قائداً وفارساً نبيلاً من أصول هاشمية وجذور طاهرة، بعد أن كان من قبل رمزاً للخيانة والعمالة والإمبريالية. وهكذا أصبح الملك حسين راسخاً فى قلوب أبناء الشعب

الأردنى والفلسطينى ـ بل فى قلب كل مواطن عربى ـ بفعل ما قام به مؤخراً.

وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ لم يحارب الأردن سوى ثلاثة أيام فقط، فقد قامت إسرائيل فى ساعات الحرب الأولى بتدمير إحدى وعشرين طائرة مقاتلة من مجموع ٢٢ طائرة أردنية من طراز هنتر كان يمتلكها جيش الملك حسين.

والحاصل أن إسرائيل لم تكن ترغب فى مهاجمة الأردن، وهو نفس الشعور الذى كان يراود الملك حسين. وحدث أن بعث ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل برسالة عاجلة إلى الملك عن طريق قائد قوات الأمم المتحدة، مفاداها أن إسرائيل لن تهاجم الأردن ما لم تقم الأردن بمهاجمتها، ولكن الرسالة وصلت بعد فوات الأوان، وكانت النتيجة الحتمية لذلك تدمير أسلحة جيش الملك حسين.

وكانت هناك أيضاً نحو أربع فرق من قوات المشأة تسيطر على الضفة الغربية، كما كانت هناك فرقتان مسلحتان أخريان تتمركزان فى المؤخرة، الأولى مرابطة على جسر داميا فوق النهر الأردنى، والأخرى فى مدينة أريحا، أما بقية قوات الجيش فكانت موزعة فى الضفة الشرقية.

وفى اليوم التالى للحرب أحس اللواء عبد المنعم رياض بالضيق والسخط من مجريات الأمور التى جرت على عكس ما أراد وخطط. فطلب من الملك حسين أن يقوم بسحب قواته إلى الضفة الشرقية وأن يسعى للسلام مع إسرائيل، ولكن الملك حسين رفض هذا العرض التكتيكى، فأصدر عبد المنعم رياض أوامره للقوات بالانسحاب إلا أن الملك رفض تنفيذ هذا القرار وأمر بالصمود والقتال حتى تعرضت قواته لحالة من اليأس والانهيار نظراً لتضارب الأوامر الصادرة إليها، ثم بعدها حدث الانسحاب فى حالة من الفوضى رغم وجود قوات رمزية لحماية المسجد الأقصى.

وفى اليوم الثالث من حرب يونيو فقد الملك حسين مدينة القدس وجميع أراضى مدينة الضفة الغربية، وبالتالى فقد جغرافيا مساحة هائلة اقتطعتها إسرائيل بسبب انتمائه لأنصار القومية العربية، حيث انتقلت مدن الخليل ورام الله ونابلس وبيت لحم من أيدى الملك إلى أيدى إسرائيل، وأحس الملك بأنه فقد توازنه وعاش ممزقاً ومذبوحاً لإحساسه بالعار بعد أن فقد الأقصى وقبة الصخرة: المكان المقدس للمسلمين.

وتعرض حسين لضغوط عصبية أرقت نومه، لدرجة أنه أجرى عملية جراحية فى الفك العلوى عام ١٩٦٩، بينما كان الأردن هو الآخر يتجرع المرارة من هذه الحرب الخطيرة. وإذا تأملنا الجانب السياسى نجد أن أكثر من مائتين وخمسة وخمسين ألف لاجئ فلسطينى قد اندفعوا تحت نيران إسرائيل إلى داخل المملكة، بينما على صعيد الجانب الاجتماعى فقد خسر الأردن أبناء الضفة الغربية الذين كانوا يتسمون بالمهارة والنبوغ، والذين كانوا بالفعل يمثلون أعمدة الحياة الثقافية والفكرية والخدمية داخل الأردن. وعلى الجانب الاقتصادى فقد الأردن حوالى ٨٥٪ من انتاج المملكة الزراعى، ونحو ٤٨٪ من الإنتاج الصناعى للضفة الغربية.

وخلاصة القول أن الاقتصاد الأردنى تعرض للانهيار، وكان على الملك أن يسرع فى تدبير الأموال اللازمة لإنقاذ البقية الباقية من مملكته المنهارة، ولذلك لجأ إلى حث الدول الغربية على مساعدته، كما تمكن من جمع مائة واثنى عشر مليون دولار أخرى من ليبيا وبلدان الخليج العربى.

بعد ذلك سعى حسين إلى المثقفين وشرائح المتعلمين فى بلاده ودفعهم للهجرة إلى دول الخليج النفطية لكى يلتحقوا بوظائفها لدعم الاقتصاد الأردنى المتهالك.

وتمكن الملك حسين من إنقاذ مملكته تدريجياً بالمقارنة مع اقتصاده المحفوف بالمخاطر، وإن كان ذلك لم يحقق له آماله التى كانت تحققها له الضفة الغربية، والتى كانت تبيض له ذهباً.

ورغم أن الملك حسين كان يتطلع بين الحين والآخر إلى التفاوض مع اليهود، إلا أن البعض قد همس فى أذن الملك ناصحاً له بعدم الاندفاع للتفاوض مع اليهود، حتى لا يتعرض للقتل كما سبق أن تعرض جده عبد الله من قبل.

حسين ومنظمة التحرير

نتعرض فى هذا الجزء لواجهة الملك حسين مع منظمة التحرير الفلسطينية وما تمخضت عنه تلك المواجهة من مذابح تقشعر لها الأبدان، وكيف أغرقت شوارع عمان ببحور من الدماء التى كانت تسيل من قلوب وأجساد الفلسطينيين الثائرين على

الملك، والذى لجأ فى نوبة غضب إلى القضاء على جميع الفلسطينيين بعد أن لاحظ نشوء دولة داخل دولته، مما أدى إلى تقويض القرار السياسى الأردنى.

وواجه حسين أعمال العنف الفلسطينى بحزم أخيراً بعد أن عانى سنوات طويلة من الإذلال والمهانة، نظراً لاستفحال أنصار جمال عبد الناصر الذين أشعلوا الحرب ضد اليهود داخل الأراضى المحتلة وسحبوا البساط من تحت أقدام الملك حسين وأعوانه.

ومع ظهور ياسر عرفات قائداً لمنظمة فتح، استفحل نفوذ المنظمة داخل الأردن وجمع الفلسطينيين أقوى الأسلحة وأقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة حول حصونهم ومواقعهم، وتدريجياً اتسع نفوذهم داخل الأردن، مما أثار غضب الملك حسين.

وثارت الخلافات بين الملك والفدائيين، لدرجة أنه حين أقبل عام ١٩٦٨ واجه الملك عشرين ألفاً من الفدائيين المسلحين إلى جانب أعداد كبيرة من السكان.. وبينما كان الفدائيون يتملكهم الخوف فى أول الأمر تغيرت الأمور فيما بعد لصالحهم واستفحل خطرهم واستفزوا بأسلحتهم جنود البدو الأردنيين الذين كانوا يمتلئون حقداً على أبناء فلسطين المدنيين.

وأمام هذه التصرفات الاستفزازية التى انتشرت فى شوارع عمان وأثارت غيظ الأردنيين، أصدر الملك حسين أوامره بتجميع شباب الفلسطينيين وترحيلهم إلى أماكن صحراوية نائية حتى لا ينخرطوا فى صفوف منظمة فتح، التى أصبحت خطراً يتربص بالملك والمملكة. ولم تقف استفزازات الفلسطينيين عند حد إظهار أسلحتهم فى وجه الشعب الأردنى، بل إنه فى ديسمبر ١٩٦٩ صعد الفلسطينيون الأمور وأوقفوا سيارة الأميرة زوجة الملك أثناء سيرها فى شوارع عمان واحتجزوها، ولم يتم إطلاق سراحها إلا بعد أن تلقوا أوامر عاجلة وصارمة بإطلاق سراحها قبل استفحال الموقف وتصعيد الأمور.

وفى صباح يوم العاشر من فبراير ١٩٧٠ أصدر الملك حسين قراراً ملكياً يتضمن عدة بنود، وكان أهمها وأخطرها مصادرة الأسلحة التى يحملها الفدائيون داخل المدن، كما أمر بضرورة إصدار تراخيص لسياراتهم وإجبارهم على استخراج بطاقات هوية تحدد شخصيتهم.

والشاهد أن هذه القرارات أدت لإشعال المظاهرات الغاضبة التى هزت أنحاء عمان طوال أربعة أيام، والتى نتج عنها اغتيال نحو ثمانية عشر شخصا وسيطر الفدائيون الفلسطينيون على نصف مدينة عمان الأردنية.

وفى أواخر يونيو ١٩٧٠ اصطدم الجيش الملكى مع الفدائيين مرة أخرى عقب قيام أحد الفدائيين بإطلاق النار على أحد ضباط الجيش الأردنى. وفى اليوم التالى قام الفيلق العربى بفتح نيرانه على معسكرات الفدائيين الذين تصدوا لهم بعنف مماثل.. وازدادت أحداث العنف بين جيش حسين والفدائيين فى كافة أنحاء عمان، وتدهورت الأمور بينهما، وخاصة بعد تعرض موكب الملك حسين لإطلاق النار من قبل الجماعات الفدائية، وقد قام الملك بالرد عليهم بمسدسه الخاص، ونجا من القتل بفرار سيارته وهو يشعر بالحرج والمهانة.

وفى اليوم التالى لهذا الحادث الخطير قام الجيش الأردنى بالرد على هذه الإهانة بواسطة قصف مدفعى عنيف على مخيمات الفلسطينيين، وفقد الملك سيطرته على الأمور داخل المملكة. ومع تدهور الأحداث قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باقتحام فندق إنتركونتيننتال المشهور واحتجزت نحو اثنين وستين من النزلاء الأجانب كرهائن، فكانت تلك لطمة قاسية جديدة على وجه الملك حسين، خاصة أنه كان من بين الرهائن أصغر أبناء الرئيس اللبنانى كميل شمعون وحوالى أربعة عشر أمريكياً وعدد آخر من الأوروبيين وكافة الجنسيات الأخرى، وقد عاشوا فى ظل الحصار الفلسطينى على البيرة المثلجة وعلى البوظة وأطباق الهامبورجر.

ثم تبع ذلك قصف صاروخى لمحطة الطاقة الرئيسية فى عمان، ثم قام الفدائيون باقتحام فندق فيلادلفيا واحتجزوا بداخله نحو خمسة عشر مواطناً أجنبياً، ثم قاموا بسرقة المتاجر والسيارات. واتجهت أعمال العنف إلى حدود من الصعب التسليم بها من قبل الملك حسين، الذى هاج وماج، إلى أنه تلقى مكالمة عاجلة تشير إلى قيام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باحتجاز موريس درابر السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية أثناء ذهابه لحضور حفل عشاء، ثم قاموا بقتل روبرت ديبرى الملحق العسكرى الأمريكى.

وتأرجح الملك حسين بين رأى يطالبه بأهمية التفاوض مع الفدائيين لإلقاء السلاح ووقف نزيف الدم السائل، ورأى يدفعه للحرب الشاملة ضد الفلسطينيين، وخاصة أن هذا الرأى تبناه قادة جيشه البدوى الذين كانوا يشعرون بالإهانة من تصرفات الفلسطينيين.

وأثناء تفقد الملك حسين لوحدات جيشه فوجئ بإحدى الدبابات ترفع صديرية للثديين فى هوائى الراديو الخاص بها، وكانت هذه علامة مخزية للملك تدل على أن الجيش يبدو كامرأة. وهمس الملك أمام هذا التصرف لرئيس ديوانه بأن صبره قد نفد، وأن الجيش على وشك التمرد والعصيان على هذه الأوضاع.

وفى عام ١٩٧٠ قامت جبهة التحرير الشعبية بخطف إحدى الطائرات الأمريكية وأجبرتها على النزول فى أحد الأماكن النائية، وقد أصدر الفدائيون تحذيراً بعدم اقتحام الطائرة وإلا واجه المقتحمون والرهائن ما لا يحمده عقباه.

وحدث أن تفاوض رجال الصليب الأحمر مع الفدائيين مباشرة، فى إشارة واضحة لتجاهل الملك وحكومته، الأمر الذى أضاف هماً إلى هموم الملك حسين الجريح. وفى ١٦ سبتمبر ١٩٧٠ توجه الملك إلى إذاعة عمان لإعلان فرض الأحكام العرفية فى ربوع البلاد قائلاً بالنص: (لقد أصبح علينا فرض سلسلة من التدابير اللازمة لفرض القانون والنظام لحماية أرواح المواطنين وممتلكاتهم وأعراضهم)، ثم بعد ذلك جاءت مذبحة أيلول الأسود).

المذبحة...

عاشت عمان ساعات عصيبة، فقد أغلقت المتاجر وأسرع الجميع للعودة إلى منازلهم لمراقبة ما سيحدث بعد ساعات فى عمان، وتوقفت السيارات الأجرة والحافلات وتعطلت الحياة وأصابها الشلل التام، وغادر رجال الشرطة مواقعهم وأغلق المطار.

ومع بزوغ خيوط فجر السابع عشر من سبتمبر تحركت إحدى دبابات فيلق الملك العربى ومن ورائها العشرات من حاملات الجنود المصفحة التى انطلقت من الأستاد الرياضى الذى تكلف ملايين الدولارات فى الجزء الشرقى من المدينة حتى بلغت قلبها.

وفى لمح البصر كانت أرتال طويلة من المصفحات تجوب الشوارع الضيقة الموازية لجبل عمان وجبل وحدة، وتنتشر فوق تلال عمان السبعة ذات الألوان القاتمة، وفتحت نيران المدفعية الملكية صوب البيوت والأسواق وهدمتها حتى تساوت بالأرض، وقام الفدائيون بالرد على هذا القصف العنيف، حيث كانوا يتمتعون بقدرات دفاعية هائلة وحصون ومتاريس ضخمة.

وكان الملك حسين يتوقع أن تنتهى الحرب فى غضون ساعات، وهذا ما كان يصبو إليه ويحلم به، بينما رفض الفلسطينيون الاستسلام وتخندقوا وراء المنازل ذات الحجارة السميكة المنتشرة فى مدينة عمان وضواحيها.

وبينما كان الطرفان متشابكين والقتال تتصاعد حدته ساعة بعد ساعة، كان ياسر عرفات والملك حسين يتفاوضان معاً من أجل إنقاذ مكانتهما، على الرغم من أن قائد قوات الأردن قد أصدر أوامره الصارمة بضرورة تسليم الفدائيين أنفسهم دون شروط، وعانى الطرفان كثيراً من نفاذ الأطعمة والأدوية والمشروبات حتى بات الموت جوعاً وعطشاً خطراً يحاصر الجميع، وكان غريباً أن تقوم قوات جيش الملك بكسر أصابع الأسرى الفدائيين حتى لا يتمكنوا مرة أخرى من إطلاق النيران، وهى عادة بدوية قديمة.

.ومع استمرار عجلة الحرب فى الدوران اتحد الفدائيون مع إخوانهم من السكان الفلسطينيين الأمر الذى جعل المخيمات الفلسطينية هدفاً للمدفعية الأردنية.

وفى الأيام الأولى لنشوب الحرب اتجهت أرتال طويلة من الدبابات الأردنية صوب مخيمات اللاجئين المعروفة بقوتها وصلابتها كأكبر قلاع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وتحولت مخيمات الفلسطينيين إلى مراكز لتجميع الموتى والقتلى. لدرجة أنه فى مخيم الحسين ـ الذى كان يضم بداخله نحو ٤٥ ألف فلسطينى ـ تحولت عشرة أكواخ إلى أشلاء متناثرة. وبعد مرور أيام من القصف المدفعى الأردنى العنيف تهدمت جميع المبانى والمنازل وتحولت إلى حطام، إلا أنه رغم هذا الدمار الشامل الذى خلفته آلة الحرب فإن الفدائيين ازدادوا صلابة وقوة.

وتصاعدت الأمور على عكس ما توقع الملك حسين، والذى تلقى برقية عاجلة تشير إلى تحرك قوات سورية وعراقية صوب الحدود الأردنية لإنقاذ الفلسطينيين تحت شعارات حزب البعث الرامية إلى الوحدة والتعاون وتفعيل مفهوم القومية العربية وإبقاء سلاح الأشقاء لمواجهة العدو الإسرائيلى، وأدرك الملك حسين مخاطر تلك الخطوة فأصدر أوامره السريعة إلى رئيس ديوانه بتجميع أفراد الأسرة الملكية للتوجه إلى العقبة.

وتغيرت الأمور وانقلبت الأحوال رأساً على عقب حين أعلن الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون استعدد أمريكاً للرد على اختطاف الطائرة التى احتجزها فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الأمر الذى دفع العراق إلى سحب قواته وتراجع سوريا وإعلان جمال عبد الناصر أن مصر ليست مستعدة لإرسال قوات عسكرية إلى الأردن.

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ وقبل رحيل جمال عبد الناصر بساعات، جمع عبد الناصر عرفات وحسين فى قاعة ألف ليلة وليلة بردهة فندق هيلتون الشهير، معلناً انتهاء الحرب بين الفلسطينيين والأردنيين وفى صباح السابع من نوفمبر قام جميع الفدائيين بتسليم أسلحتهم للقوات الأردنية وغادروا عمان رغم أنوفهم.

وقامت منظمة الصليب الأحمر بحصر أعداد الضحايا الفلسطينيين، فتبين أن العدد قد تجاوز خمسة وثلاثين ألفاً من القتلى والجرحى. وفى أعقاب ذلك انضمت جميع عشائر البدو إلى جانب الملك حسين، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الفلسطينيين فشعر الملك بثبات الموقف السياسى واستقراره وتوازنه.

ويمكن القول بأن الفلسطينيين قد اكتشفوا أن العالم العربى لم يؤازرهم أو يساندهم فى هذه المذابح سوى بالشجب والاستنكار والتنديد والمظاهرات الغاضبة، وهى إحدى الأدوات العربية الشعبية المعروفة عند إعلان الغضب والتذمر والاحتجاج.

وخرج الملك حسين منهزماً فى كافة النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فعلى الصعيد العربى قوبل بعاصفة من الاحتجاج الشعبى ضده، وعلى الصعيد الإسرائيلى شنت إسرائيل ضده هجوماً عنيفاً لتخاذله وتهاونه أمام الفدائيين الفلسطينيين، أما أمريكا التى أعلنت استياءها منه فقد دعمته بشحنات من الأسلحة.

وخسر حسين شعبيته التى كان قد اكتسبها بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، وعادت اتهامات الخيانة والعمالة تطارده من وقت لآخر حتى تعرض لأزمة صحية عنيفة أجبرته على الخضوع للفحوصات الطبية فى إحدى مستشفيات لندن لعدم انتظام ضربات قلبه.

وخرج الملك يبحث عن حل سلمى مع إسرائيل يسترد من خلاله كافة الأراضى التى سلبتها منه إسرائيل، وذلك من خلال مفاوضات ثنائية سرية أجراها مع أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل، الذى التقى به فى أحد فنادق لندن، كما تمت بعض المفاوضات السرية بينهما ليلاً فى الخفاء تحت أضواء قاربين فى مياه خليج العقبة، إلا أن إسرائيل لم تحقق له آماله التى حلم بها وتطلع إليها كثيراً.

وجاءت حرب أكتوبر والتزم الملك حسين بالحياد، رافضاً التدخل إلى جانب مصر تجنباً لخسائر جديدة قد يلحقها به الإسرائيليون على غرار ما حدث فى عام ١٩٦٧، ورغم أن إسرائيل قد أبادت له عدة عربات مصفحة وبعض الأسلحة، إلا أنه أحس بخروجه منها منتصراً، حيث إن شرفه العسكرى لم يتعرض للمساس من أحد. وحاول جاهداً التفاوض مع اليهود لاستعادة الضفة الغربية، ولكنه كان عاجزاً عن إقناع الفلسطينيين بأن يقوم بتمثيلهم..

وفى أكتوبر ١٩٧٤ انعقدت الجامعة العربية فى الرباط لتحديد الممثل الشخصى للفلسطينيين وكان ياسر عرفات قد حضر مؤتمر القمة بصفته رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد أعلنت الجامعة العربية أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى.

وشعر حسين بالخزى والعار واكتنفته العزلة والانطوائية مرة أخرى، ولكنه قبل القرار العربى متظاهراً بالرضا والقناعة.

ومنذ عام ١٩٧٤ راحت المنظمة والملك يتنافسان على تمثيل الشعب الفلسطينى، وخاصة تمثيل أبناء الضفة الغربية الذين يعيشون تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى، وحاول عرفات جاهداً ألا يترك الأمور فى يد الملك حسين الذى أباد مخيمات شعبه، أما الملك حسين فقد أراد استعادة الأراضى التى تركها له جده وسلبها منه اليهود.

وزار السادات القدس، وسار الملك فى ركاب البلدان العربية حرصاً على مشاعر شعبه الأردنى واللاجئين الفلسطينيين، كما أراد أن يحافظ على المعونات التى ترسلها إليه المملكة العربية السعودية وعدم الاصطدام بالدول المجاورة له كالعراق وسوريا، ولكنه كان فى داخله يرغب فى الاشتراك فى تلك المفاوضات لاستعادة الضفة الغربية، التى كانت تمثل أمله وحلمه الذى داعبه كثيراً.

وحين وقع السادات اتفاقية كامب ديفيد اعترض حسين عليها لعدم تضمنها تحديد مصير الضفة الغربية وعودتها للأردن، وقام الملك حسين بقطع علاقاته الدبلوماسية مع مصر تنفيذاً لقرارات مؤتمر جبهة الصمود والتصدى.

وفى عام ١٩٨٢ اقتحم شارون ـ وزير الدفاع الإسرائيلى ـ العاصمة اللبنانية بيروت وقام بتدمير قلاع وحصون منظمة التحرير الفلسطينية، وكان الملك يشعر بالاستقرار لأن الحرب بعيدة عنه. وحين قام الرئيس رونالد ريجان بطرح مبادرة سلام تدعو الأردن إلى تمثيل الشعب الفلسطينى وافقه الملك لعل هذه المبادرة تساعده على إعادة الأراضى المحتلة، وخاصة الضفة الغربية لنهر الأردن، ولكن مفاوضاته مع ياسر عرفات تمخضت عن إصرار الأخير على تمثيل الشعب الفلسطينى فى أية مفاوضات تتعلق بتسوية القضية الفلسطينية، الأمر الذى دفع الملك حسين إلى توجيه اللوم إلى أشقائه من الملوك والرؤساء العرب الذين أيدوا ياسر عرفات فى رفضه لمطالبه.

وبأسلوب أخر أراد الملك الالتفاف حول منظمة التحرير الفلسطينية لكسب تأييدها وهنا تصنف ساندرا مكى، الخطوات التى اتبعها الملك حسين فى هذا الشأن قائلة: (قام الملك حسين بفتح أبواب معتقلاته لإخراج المعتقلين من أبناء الشعب الفلسطينى، كما قام بدعم أواصر التعاون المشترك بين الأردنيين والفلسطينيين فى شتى النواحى الاجتماعية والاقتصادية، وأتبع ذلك بموافقته على عقد المؤتمر الوطنى الفلسطينى فى العاصمة عمان، ثم وقع اتفاقاً مع ياسر عرفات يتضمن التوصل إلى مبادرة للسلام تستند على مبدأ (الأرض مقابل السلام)، وهو الاتفاق الذى أخرجه من عزلته.

وفى أعقاب ذلك وافقت إسرائيل على إجراء مفاوضات ثنائية معه للتحدث باسم فلسطين. وفى فبراير عام ١٩٨٦ قام الملك حسين بإنهاء اتفاقه الهش مع ياسر عرفات

نظراً للخلافات المتفاقمة بين كافة الفصائل الفلسطينية المعارضة للاتفاق المبرم بين الأردن والمنظمة.

وفى التاسع من ديسمبر انتفض الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة من خلال الحجارة التى ألقاها الصبية الفلسطينيون على الجنود الإسرائيليين، وهى الانتفاضة التى وقفت وراءها منظمة التحرير الفلسطينية فقطعت بذلك أواصر الترابط، مع المملكة الأردنية الهاشمية.

وفى عام ١٩٨٨ توجه أعضاء جامعة الدول العربية إلى الجزائر لإعلان منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً وحيداً وشرعياً للفلسطينيين. ومع اشتعال حدة الانتفاضة الفلسطينية اعتبرها الملك حسين موجهة له مثلما هى موجهة لليهود، وتملكه الغضب واليأس فتوجه إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون فى العاصمة عمان لإعلان تخليه تماماً عن تمثيل الشعب الفلسطينى وحقه فى الضفة الغربية، وذلك فى ٣٠ يونيو ١٩٨٨، لتنتهى بذلك آماله وطموحاته فى استعادة الضفة الغربية.

وبعد ذلك التفت الملك حسين إلى الضفة الشرقية للحفاظ عليها، خاصة بعد أن لاحظ ازدياد أعداد الفلسطينيين بالمقارنة بالأردنيين البدو. وفى عام ١٩٨٩ اندلعت أحداث شغب ضد الملك بسبب تدنى المستويات الاجتماعية والاقتصادية، وهو ما أسفر عن انتخابات حكومية فازت فيها جماعة الإخوان المسلمين بأكبر نسبة من مقاعد البرلمان الأردنى، مما سبب له إحراجاً أمام أمريكا وأوربا الرافضة لهذا التيار المتشدد.

وفى عام ١٩٩٠ قام رئيس العراق المتهور صدام حسين باجتياح دولة الكويت، وبينما عارضت أغلب البلدان العربية هذا الغزو كان الملك حسين من أشد مؤيدى صدام حسين طمعاً فى استعادة أمجاد الشريف حسين كما أوهمه الرئيس العراقى، كما أن الملك لاحظ أن حوالى ٧٠٪ من أبناء الضفة الشرقية يؤيدون الغزو فأراد ألا يفقد ولاءهم له، ومن ثم أبدى تأييده للغزو العراقى الشامل للكويت، معلناً شعار توزيع الثروات الذى رفعه صدام حسين.

وهكذا قضى الملك حسين فترة حكمه فى شد وجذب مع كافة القوى التى تواجهه.

الفصل الرابع

«آل سعود.. قوة المال وضعف الإرادة»





آل سعود... بين النفط والرفض

ميلاد المملكة

ما من شك فى أن ميلاد المملكة العربية السعودية واتساع أطراف الجزيرة العربية قد أدى إلى تغيير شامل فى خريطة منطقة الخليج العربى والجزيرة العربية، سواء على الصعيد السياسى أو الجغرافى أو الاجتماعى، حيث إن المجتمع السعودى الذى كان يعيش فى صحراء قاحلة جافة تغيرت معالمه وتحول إلى مجتمع مدنى متحضر يملك أحدث الأجهزة الإلكترونية والتكنولوجية:

حين هدأت عاصفة الحرب العالمية الأولى وسكتت مدافعها وعادت القوات إلى ثكناتها وتلاشت رائحة البارود من أجواء المنطقة، ألقى عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود نظرة فاحصة وعميقة ناحية الأراضى التى كانت خاضعة لممتلكات الدولة العثمانية فى السابق. ولأن عبد العزيز كان يفتقد إلى وجود قوات نظامية مرهوبة الجانب وتستطيع تنفيذ وتحقيق أهدافه، فقط اضطر إلى تعبئة أنصار وأبناء الحركة الوهابية المتشددة.

واتجه عبد العزيز إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية وقام بزيارة جميع القبائل والنجوع، وبدأ تحركه من الرياض ـ مقره الرئيسى ـ ثم بعدها تحرك إلى ناحية الشمال والجنوب وتلت ذلك رحلة إلى المنطقة الشرقية ناحية الخليج، ثم اتجه ناحية أراضى الهاشميين فى الغرب، والذين كانوا يتولون حماية مدينتى مكة والمدينة المنورة.

ولأن الإنجليز كانوا أصحاب خبرة طويلة فى معرفة أحوال العلائلات، فقد أدركوا أن الرياح فى صالح عائلة عبد العزيز آل سعود، ولذلك تخلوا عن الشريف حسين قائد الثورة العربية وأبرز أبناء الهاشميين فى العصر الحديث، حيث تركت انجلترا شريف مكة يواجه الإعصار الوهابى، وتراجع الشريف واستسلمت قواته بمكة فى أكتوبر ١٩٢٤ للوهابيين، لتنتقل بذلك مسئولية حماية أقدس الأماكن الإسلامية من الهاشميين إلى آل سعود.

وبعد مرور أسبوعين امتطى عبد العزيز جواده الأبيض كفارس أحلام فتاة الجزيرة العربية، وقد ارتدى ثياباً بيضاء اللون مفتوحة الصدر، ودخل مكة وهو يردد الكلمات التى يرددها جميع زوار مكة من الحجاج (لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك)، واتجه عبد العزيز وأنصاره من الوهابيين وأبناء القبائل البدوية إلى الحجاز وجبال عسير وسهل الساحل الشرقى ونجد وقاموا بضمها إلى مملكتهم الجديدة، وفى أواخر عام ١٩٣٢ نصب عبد العزيز نفسه ملكاً على المملكة العربية السعودية، إلا أن نفوذه لم يصل إلى أبناء سكان المناطق الساحلية.

وقد كان رعايا عبد العزيز آل سعود يعيشون بحكم تكوينهم فى عزلة تامة عن العالم بحكم عادات وتقاليد القبيلة البدوية، كما أنهم كانوا عازفين عن الاختلاط بمن لا تربطهم بهم صلة قرابة، وفى داخلهم إحساس بالتفوق على غيرهم من حيث اللغة والدم والجذور، فضلاً عن الانتماء للمذهب الوهابى المتشدد، بل وكانوا يظنون أن سلالتهم طاهرة نقية ولم تلوث بالاختلاط العرقى مع أبناء الهلال الخصيب، إلى جانب إحساسهم بالمسئولية الدينية عن حماية المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة.

وربما كانت كل هذه الأسباب مجتمعة هى العنصر الرئيسى للكبرياء الذى اتصف به السعوديون.

الوهابيون...

تمتد المملكة العربية السعودية التى أسسها عبد العزيز من الغرب إلى الشرق: من البحر الأحمر حتى الخليج العربى، ومن الشمال إلى الجنوب: من شمال العراق حتى جبال اليمن.

وقد كانت المملكة تضم فى جغرافيتها قبائل تتصف بالعنف والقسوة والخشونة، وتمكن عبد العزيز من كسب ولاء وتأييد شعبه، وخلع على نفسه لقب حامى حمى الإسلام والمسلمين.

وهكذا صار المذهب الوهابى المتشدد أحد أهم وأخطر البدائل فى الأيديولوجيات السياسية بالمنطقة للقومية العربية، ولذلك أصدر الملك عبد العزيز قرارات صارمة من أجل سيطرة المذهب الوهابى على كافة نواحى الحياة الاجتماعية والأخلاقية فى المجتمع السعودى الجديد، كما تمكن من تجسيد منظومة من القيم والمبادئ استندت عليها شرعية آل سعود.

وربما ساعد على ذلك انضمام مجموعة العلماء وزعماء القبائل إلى الملك، مما أدى إلى تأسيس الدولة وتوحيد مذهبها، وتطبيق حدود الشريعة الإسلامية التى انبثقت منها أحكام ومواد القضاء السعودى. وتعامل عبد العزيز مع مجتمعه الجديد كأب ووالد يعاقب ويكافئ، وكان يطوف أرجاء البلاد ومعه خزانة الدولة فى صندوق خشبى يتمايل على ظهر أحد الجمال، أما إدارة شئون الحكم فقد كانت مسئولية مجلس شيوخ القبائل.

وقد كان الملك المهيب طويل القامة، ويجتمع بمستشاريه وكبار رجاله غالباً فى خيمته، حيث كان يقوم بكافة أمور القضاء بنفسه ويقدم كافة الخدمات الحكومية إلى رعايه، وكان يربط القبائل بشخصه بالزواج من عدد كبير من الزوجات، كما كان عبد العزيز فى حاجة دائمة للمال لدعم زعماء العشائر والقبائل.

وكان الناس يتوافدون يومياً على مقر الملك من أجل كيس أرز أو وجبة طعام، وكان من غير الممكن أن يعود سائل منهم صفر اليدين، كما كان موسم الحج هو الدجاجة التى تبيض ذهباً لعبد العزيز آل سعود، ولذلك كان ينتظره دائماً.

وفى عام ١٩٣٣ حصد عبد العزيز فى فرح شديد امتيازات عدة للتنقيب عن النفط لمدة ستين عاماً بواسطة شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» نظير مائتين وسبعة وخمسين ألف دولار. وقد استفاد الملك كثيراً من هذا الاتفاق، فإلى جانب المكاسب المادية قام بتوطيد أواصر صداقة مع الغرب، الذى كان يتطلع للارتباط به لحماية مملكته الوليدة.

وقد حكم الملك عبد العزيز البلاد نحو خمسين عاماً، تمكن خلالها من فرض سياسته التى نجح فيها، حتى أصبح طبقاً لأراء المؤرخين من أعظم حكام الجزيرة العربية، فهو الذى قام بنشر الاستقرار فى ربوع البلاد، وأخضع أبناء القبائل الشرسة لقبضته، وقام بمفرده ببناء وتكوين وتأسيس الدولة الحديثة فى شبه الجزيرة العربية، وبعد وفاة عبد العزيز تم الاتفاق على اختيار أكبر أبنائه سعود خلفاً له، إلا أنه كان يفتقر إلى مهابة والده وقوة شخصيته وذكائه ومهارته وحنكته التى أدار بها الدولة.

وربما ساعد على نهوض الدولة حاجة الغرب الشديدة لشراء البترول السعودى عقب الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى خروج المملكة من شرنقة الاقتصاد المتدهور، حيث قامت شركة أرامكو (الشركة العربية الأمريكية للنفط) فى عام ١٩٥٤ بانتاج نفط بلغت قيمته ٨٥ . ١٣٤ مليون دولار سنوياً.

ولكن سعود كان لا يروق له العيش المتواضع كعهد أبيه، الأمر الذى دفعه إلى الانتقال إلى الناصرية، وهى إحدى المدن الجميلة التى تقع على أطراف العاصمة الرياض، حيث أراد التشبه بالخلفاء الأمويين الذين كانوا يتزوجون بالقوة أجمل نساء الدولة، كما اشتهر بكثرة الانفاق والبذخ والترف والإسراف فى الملذات التى تتعارض مع تقاليد الإسلام والمذهب الوهابى المتشدد.

ونظراً لأن شعبيته فى نظر القبائل البدوية ومجلس العشائر تدهورت وساءت، فقد اجتمع مجلس العشائر والقبائل وأقام أهل الحل والعقد مجلساً للوصاية على العرش بشكل مفاجئ برئاسة الأمير فيصل. وبعد عدة سنوات من الصراع العائلى أصدر العلماء فتوى أعلنوا فيها عدم أهلية سعود للحكم، ثم بعد سبعة أشهر ـ وبالتحديد

فى أوائل شهر نوفمبر عام ١٩٦٤ ـ اتجه سعود إلى المنفى بعد أن أعلن تنحيه عن حكم البلاد، تاركاً كافة مقاليد الأمور للأمير فيصل ثانى أبناء الملك عبد العزيز، والذى تولى مهام سداد ديون ثقيلة تركها سعود على المملكة، ومعالجة سياسات عدة أدت لشيوع الفساد فى عهد سعود.

وتولى فيصل حكم المملكة، وقد كان فيه الكثير من مزايا والده، حيث كان طويل القامة وذا قوام ممشوق وأنف معقوف وعينين واسعتين بارزتين تشعان قوة ومهابة. وبدأ الملك فيصل فى فرض سياسة حازمة من شأنها إعادة الأمور إلى نصابها كما كانت فى عهد والده الملك عبد العزيز، ولذا فقد أمر بمنع استخدام سيارات الكاديلاك التى كانت تعبر عن طبقة الفساد التى انتشرت فى ربوع البلاد، كما أمر بوقف مظاهر الترف والبذخ التى اتصف بها أفراد الأسرة المالكة.

وكان الملك فيصل يضع مهاجمى الحركة الوهابية وأنصار جمال عبد الناصر نصب عينيه، إذ من المعروف أن عبد الناصر قد قام بتصدير أفكار القومية العربية إلى كافة بلدان العالم العربى، وخاصة تلك الدول التى أطلق عليها الدول الرجعية، وعلى رأسها نظام آل سعود فى الجزيرة العربية.

ودفعت أيديولوجية جمال عبد الناصر السعوديين إلى السير على حبل مشدود حرصاً على مصلحة المملكة وحفاظاً على تماسكها، خاصة أن الأحقاد قد دبت فى نفوس الثوار العرب نحو بلدان النفط التى تعوم على بحور من البترول وتعيش حياة مترفة، وذلك على عكس جيرانهم الذين كانوا يعانون من الجدب والجفاف، حتى كان شعار تلك المرحلة هى (بترول العرب لكل العرب) بالإضافة إلى أن هؤلاء الثوار القوميين كانوا يطالبون فى برامجهم الثورية بأهمية توحيد الدول العربية وإزالة معوقات الحدود التى وضعها الاستعمار لإثارة الخلافات والصراعات بين كافة الدول العربية، كما طالب هؤلاء أيضاً بأهمية إيجاد وتأسيس السوق العربية المشتركة والوحدة الاقتصادية لرفاهية جميع الشعوب العربية، وقد قوبلت دعوة الثوار الوحدويين التقدميين بهدوء وترحاب مشوب بالحذر من قبل بعض المتعلمين والمثقفين، الذين تفهموا أهمية الوحدة

بين العالم العربى، فضلاً عن ارتياح عدد قليل منهم لعدالة توزيع الثروات.

وفى الوقت الذى ارتبط فيه آل سعود بالأمريكيين لحماية عرشهم، كان أنصار القومية العربية فى مصر وسوريا يعززون علاقاتهم بالاتحاد السوفيتى الشيوعى، الذى كان أحد أخطر مصادر التهديد للملكة العربية السعودية.

مع بداية عام ١٩٦٢ دانت الأمور لفيصل وراح يهيمن على كافة النواحى السياسية، سواء على الصعيد الخارجى أو حتى الداخلى، كما تمكن من مجابهة عبد الناصر وأنصاره من خلال توظيفه للدين الإسلامى كسلاح ردع للقوميين العرب وكدرع واقى وحصن منيع للملكة العربية السعودية وأنصارها، وراح فى شجاعة يضع خطاً فاصلاً للبلدان الصغيرة الضعيفة التى تخضع لنفوذ المملكة، وأعلن أنها مناطق لا ينبغى لأحد الاقتراب منها أو المساس بها، وهكذا أعلن تصديه للقومية العربية.

أحداث اليمن...

وقعت الأحداث عند أبعد أطراف العالم العربى، وبالتحديد فوق أرض اليمن، ففى عام ١٩٦٢ تجمهر سكان مدينة عدن والشياخات المحيطة بها وراء جيش يرفع شعارات جمهورية ماركسية، وقد أرادوا محاربة رجال الإمام محمد البدر. وفى السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ اصطف جيش الجنوب بدباباته لمحاصرة جيش الإمام محمد البدر. فى مدينة صنعاء، وأطلق النيران فتهاوى الطابق الثانى من القصر.

وكان الصراع يدور بين القبائل وبعضها البعض، فمنهم من كان يرفع شعارات ايديولوجية تدور حول الماركسية والقومية والشيوعية والناصرية. واشتعل الموقف بعد ظهور تلك النزعات المتصارعة مع التقاليد القديمة التى يتزعمها الإمام البدر، ثم أعقب ذلك قيام جمال عبد الناصر بإرسال قوات إلى اليمن رافعين شعار الثورة الاشتراكية والقومية العربية، ورد فيصل على هذه الخطوة العنيفة بتدعيم النظام الملكى بالدولارات النفطية.

وظلت الحرب دائرة طوال خمس سنوات كانت فيها اليمن ساحة قتال بين أنصار جمال عبد الناصر وقوات فيصل المحافظة، فى محاولة لتحديد مستقبل العالم العربى.

ولأن الأمور لم تكن كما توقع جمال عبد الناصر فقد عاند وأصر على إنهاء الصراع لصالحه، ولهذا قام فى نوبة غضب بإرسال نحو خمسة عشر ألف جندى ـ وهو ما يعادل سدس الجيش المصرى ـ إلى مرتفعات جبال اليمن الشاهقة الوعرة، ولكن براعة قناصة اليمن أنصار الإمام البدر مكنتهم من اصطياد جنود جمال عبد الناصر والحاق أفدح الخسائر بهم.

وأمام ضعف قوات جمال عبد الناصر وتخاذلها أمام صلابة رجال الكهوف والجبال اليمنيين أمر الرئيس جمال عبد الناصر طائراته بقصف مدينة نجران السعودية الملاصقة لحدود اليمن، بل وأغارت أيضاً على السهل الساحلى حول جيزان، الأمر الذى أدى إلى هروب حوالى أربعين ألف شخص فى خوف وهلع.

وقد أدى هذا التصعيد إلى وقف دعم فيصل للإمام خوفاً من اتساع المواجهة، أما الأمر بالنسبة لجمال عبد الناصر فقد أدى إلى إصابته بالذعر من وقوع قواته فى مستنقع لا يستطيع التخلص منه، وما إن نصحه بعض رجاله بإرسال المزيد من القوات لحسم الموقف لصالحه حتى رضخ وأرسل أربعين ألف مقاتل مصرى كبدوا الخزانة المصرية المليارات والآلاف من الجنود الذين لقى البعض منهم مصرعه وأصيب البعض الآخر.

وبالفعل تمكن هؤلاء العملاء من زرع قنابل شديدة الانفجار فى مبنى وزارة الدفاع السعودية فى الرياض، فضلاً عن زرع قنابل أخرى فى قصر من بين القصور الملكية، وخط أنابيب التابلاين الذى يقوم بنقل البترول داخل موانئ البحر المتوسط. وتجاوزت النتائج السياسية السلبية الأضرار المادية، حيث جاهرت بعض حركات التحرير بالإعلان عن نفسها بعد ظهور الانقسامات والخلافات داخل إطار أسرة آل سعود، ففى الوقت الذى قام فيه فيصل بنفى أحد أشقائه بسبب جنوحه للجمهورية الاشتراكية، حاول الملك سعود المخلوع استعادة عرشه من خلال إذاعة القاهرة.

وأدت كل هذه الأحداث إلى هذيمة جمال عبد الناصر فى حرب يونيو ١٩٦٧، الأمر الذى أدى إلى شعور آل سعود بالراحة والاطمئنان بعد زوال هيبة الثائر القومى جمال عبد الناصر.

والحقيقة أن آل سعود تجرعوا هذيمة يونيو ١٩٦٧ بعد وقوع القدس فى أيدى اليهود - غير عابئين بما فقدته الأمة من الأراضى الأخرى - حيث إن الملك فيصل كان يحلم بأداء الصلاة داخل المسجد الأقصى ثالث الحرمين.

وبعد شهور استيقظ آل سعود على مظاهرات تعم المخيمات الفلسطينية وتطالب الأنظمة العربية الرجعية بدعم القضية الفلسطينية، وهى الدعوة التى أعادت الرعب إلى قلوب آل سعود مرة أخرى، وخاصة بعد أن قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بتفجير خط التابلاين الذى يقوم بنقل نحو ٢٣ مليون طن من النفط سنوياً إلى موانئ البحر المتوسط، وقد تحطم تماماً.

وأمام الهجمات الفدائية الجديدة التى أزعجت آل سعود، قام الملك فيصل بمطالبة الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون بضرورة حل القضية الفلسطينية للحفاظ على أواصر الصداقة بين البلدين وتهدئة خواطر العالم العربى الغاضب، ثم اتجه فيصل لكسب ود منظمة فتح الفلسطينية التابعة لياسر عرفات مادياً وأدبياً، وأعلن عزمه على قطع العلاقة مع الشركات التى تتعامل مع إسرائيل.

وراح فيصل يعمل بكل طاقاته لمحاصرة المد الشيوعى، وحين مات جمال عبد الناصر غازل السادات الملك فيصل وقام بطرد الخبراء السوفييت الشيوعيين الأمر الذى أدى للتقارب بين البلدين وإنهاء حقبة من الصراعات الدموية والإعلامية بينهما.

فيصل وحرب أكتوبر

وضع أنور السادات مع صديقه الملك فيصل خططاً تهدف إلى شن حرب عربية كبرى ضد إسرائيل، نظير قيام السادات بطرد الخبراء الروس من مصر عام ١٩٧٢.

وقدم الملك فيصل للسادات معونة اقتصادية بلغت مائتين وخمسين مليون دولار، إضافة إلى خمسمائة مليون دولار أخرى من باقى بلدان الخليج لدعم ميزان المدفوعات. وفى صيف عام ١٩٧٣ اتجه الملك فيصل إلى القاهرة لإعلان ولائه لمصر حكومة وشعباً إذا أقدمت على الحرب ضد إسرائيل. وبلغ الأمر بالملك فيصل أن أعلن استعداده لفرض حظر البترول على الدول الغربية المساندة لإسرائيل من أجل استعادة الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧.

وقوبل فيصل بحفاوة من السادات وشعب مصر فأدرك أن هناك اختلافاً جذرياً بين سياسة عبد الناصر وسلفه السادات.

واندلعت شرارة حرب أكتوبر ١٩٧٣، وكان الملك فيصل شريكاً خفياً لمصر وسوريا، وقد أصدر تهديداته للولايات المتحدة بحظر البترول، إلا أن نيكسون لم يتعامل مع تهديداته بنفس جدية الملك فيصل الحازمة.

وتابعت المملكة العربية السعودية أحداث الحرب ساعة بعد ساعة، فقد كان هناك خطاً ساخناً ربط القاهرة بالرياض، وكانت المخابرات المصرية تنقل الأحداث إلى المملكة السعودية أولاً بأول فى حرية تامة. وبعد أن هدأت نيران الحرب فى جبهتى سيناء والجولان وأشهر فيصل سلاح البترول وأوقف ضخه إلى أمريكا، مما أدى إلى تعطيل الحياة وشل حركة السيارات والمصانع فى مدن أمريكا، وهو ما دفع الرئيس نيكسون إلى القول فى يأس: (إذا تجمد المرء حتى الموت فليس ثمة فرق أن يكون الهواء نقياً أو حتى ملوثاً).

واستمر قرار الحظر الذى فرضه فيصل حتى بداية عام ١٩٧٤، وقفزت أسعار البترول من ٦٥ . ١١ دولار للبرميل قبل اندلاع الحرب إلى ١ . ٣٠ دولار بعدها، ثم تبع ذلك التزام جميع الدول المنتجة للبترول بسياسة الحظر المفروض على أمريكا وأوربا.

وأمام هذا القرار الشجاع استعادت المملكة مهابتها ونفوذها داخل أقطار العالم العربى. وفى مارس عام ١٩٧٤ وبعد فصل القوات المصرية والسورية والإسرائيلية قامت المملكة العربية السعودية برفع الحظر عن أمريكا أقرب حلفائها من الغرب. وعقب ذلك القرار ذهب وفد أمريكى رفيع المستوى لإجراء مفاوضات مع السعودية لوضع استراتيجية عسكرية من شأنها الحفاظ على أمن وسلام المملكة العربية السعودية.

إن قرار حظر البترول الذى انتهجه الملك فيصل كان صفعة على وجه الغرب الاستعمارى الذى تنبه لتلك الخطوة التى ألجمته وأذهلته، حيث لم يمكن يتوقع حدوثها بأى حال من الأحوال. وشهد العرب ميلاد كرامتهم من جديد بعد أن غاصت طويلاً فى أوحال القهر الأمريكى والإسرائيلى.

مع ارتفاع أسعار النفط عادت الدعوات القومية لتوزيع بترول العرب على العرب، خاصة أن الهوة الاقتصادية قد اتسعت لصالح المواطن الخليجى بعد عامى ١٩٧٣ و١٩٧٤، حيث كان دخل الفرد السعودى ٦٩٩١ دولاراً سنوياً وفى سوريا ٣٤٠دولاراً، فى نفس الوقت الذى لا يزيد فيه على ٢٤٠ دولاراً فى مصر، الأمر الذى أدى إلى إثارة النعرات القومية التى تثير إزعاج السعوديين دائماً.

واتجه آل سعود إلى دعم الحكومات العربية فى شكل منح وقروض ومساعدات لإنهاء حالة التذمر التى سيطرت على كافة شعوب المنطقة، بينما صرح أحمد الشقيرى زعيم منظمة فتح السابق قائلاً (لقد انتصر بترول العرب على العرب).

وهكذا عبر الشقيرى عن مظاهرات الغضب والتذمر التى سادت المنطقة بسبب ثراء شعوب الخليج وافتقار البلدان العربية الأخرى. ولأن النعرات القومية تصاعدت حدتها فقد تبنى آل سعود دعوة أحد الكتاب الرامية إلى إحياء الخلافة الإسلامية مرة أخرى، على أن تكون المملكة العربية السعودية هى مركز الخلافة، وفيصل هو خليفة المسلمين المنتظر الذى سيجلب الخير والرخاء لأبناء الأمة، وهى الدعوة التى عارضتها أنظمة حزب البعث فى العراق وسوريا وهاجمتها ليبيا، كما عارضتها مصر التى تعتبر نفسها زعيمة العالم العربى بلا منازع، ولكن فيصل أراد أن يمتص الغضب العربى من خلال الدعوة إلى العودة إلى التعاليم الإسلامية التى تحافظ عليها المملكة العربية السعودية.

اغتيال الملك فيصل

سقط الملك فيصل الذى تبنى سياسة البترو - إسلام (أو بمعنى أدق الإسلام البترولى) قتيلاً فى ٢٥ مارس ١٩٧٥، ومرة أخرى دبت الخلافات بين آل سعود لتحديد من يخلف الملك فيصل ويتولى مقاليد الأمور، حيث تم حسم الأمور فى اختيار الملك خالد رابع أبناء الملك عبد العزيز.

والواقع أن الملك خالد كان يفتقد مكانة الملك فيصل وهيبته رغم ورعه وإيمانه واتجاهه لدعم الإسلام، حيث كانت موارد المملكة العربية السعودية تبلغ فى ذلك الحين

أكثر من سبعة وثلاثين بليون دولار سنوياً، وهو ما جعل آل سعود يدعمون العالم الإسلامى بسخاء وعطاء غير محدود، ورغم ذلك فقد ظلت الدعوة للوحدة العربية صداعاً فى رأس آل سعود، الذين ظنوا أن هذه المنح والهبات من شأنها أن تنهى هذه الدعوات الراديكالية التى تهز عرشهم.

وحين قام السادات بمبادرته الشهيرة نشبت الخلافات بين آل سعود داخل جدران القصر الملكى العتيق، وتطايرت الشائعات التى تؤكد أن الأمير فهد أطلق آنذاك رصاصة أصابت الأمير عبد الله رئيس الحرس السعودى الملكى احتجاجاً على معارضة الأمير عبد الله لمبادرة السلام، الأمر الذى أدى إلى سفر بعضهم - طبقاً لروايات المقربين من القصر - إلى أسبانيا للنقاهة والابتعاد عن دائرة المشاحنات التى دبت فى أرجاء القصر الملكى الحاكم.

وفى النهاية قرر آل سعود الإبتعاد عن إعلان موقفهم من المبادرة خوفاً من الغضب الأمريكى، وإن تراجعوا فيما بعد عن هذا الموقف وأعلنوا رفضهم لها خشية التهديدات التى كان يطلقها بعض دعاة القومية العربية، وخاصة قادة جبهة الصمود والتصدى، حتى أصبح الموقف السعودى غير واضح وغير مفهوم، وإن كان قد بدا أمام الجميع أن المملكة تقف ضد المبادرة بعقلها وتؤيد السادات بقلبها، ثم تبع ذلك زلزال الثورة الإيرانية التى قامت بتنصيب الإمام الخومينى كحاكم لإيران يقف على رأس الثورة الإسلامية التى أصبحت مصدراً مخيفاً يفوق دعاة البعث والقومية العربية.

عانى آل سعود بعد وقوع مكة المكرمة فى أيدى بعض المتمردين الإسلاميين فى نوفمبر ١٩٧٩، وزادت الأمور حدة حين انتفض السكان الشيعة لتأييد الثورة الإسلامية فى إيران، وقامت إيران بوضع شحنات متفجرة داخل البحرين والكويت، وبات الخطر متربصاً بالمملكة التى كادت تفقد شرعية بقاءها.

وبما أن شتائم عبد الناصر لآل سعود قد أثارت هلعهم فقد دك أنصار الخومينى حصون آل سعود بأبشع الاتهامات والأوصاف، مما أصاب آل سعود بالرعب، ومن ثم تقوقعوا داخل قصورهم يبحثون عن مخرج لهذه الأزمة الخطيرة التى اجتاحت حدودهم.

وعرضت الولايات المتحدة على آل سعود إمكانية إنشاء قواعد عسكرية تعمل على حماية المملكة من خطر الثورة الإسلامية، إلا أن هذه الدعوات قوبلت بالرفض السعودى خوفاً من الغضب العربى والإيرانى معاً، ثم بعد ذلك اندلعت الحرب العراقية الإيرانية فى سبتمبر ١٩٨٠، ووجدت السعودية نفسها حائرة بين مساندة العراق البعثى وتأييد إيران الإسلامية، إلا أن أمرهم استقر على دعم العراق البعثى رغم خشيتهم منه، خاصة أنه قريب الصلة بحدودهم الجغرافية، ومن هنا تدفقت شحنات الدعم من المملكة على العراق.

بعد ذلك بحث آل سعود عن مخرج لأزمتهم، وقد وجدوا الحل فى تأسيس مجلس التعاون الخليجى الذى تأسس فى مايو ١٩٨١ بدعم من آل سعود، وضم السعودية والبحرين والكويت وعمان وقطر والإمارات العربية المتحدة وهو ما ترتب عليه تأسيس قوة دفاع مشتركة. وكانت المملكة تهدف من وراء ذلك إلى التحرر من التدخل الأمريكى السافر فى شئونها، ولمواجهة إيران المعادية لنظامها الحاكم.

الملك فهد والحكم

كان فهد يقوم بدور الوسيط فى الحرب اللبنانية الأهلية عام ١٩٧٥، وقد استوعب كافة أحداث المنطقة وما ترتب عليها، بينما كانت المملكة تبحث لها عن دور يرد لها نفوذها وكرامتها.

وفى شهر يونيو ١٩٨٤ دخلت الحرب العراقية الإيرانية عامها الرابع، وكان النصر بعيداً عن الجبهة، بينما كانت الهزيمة قابعة فى قلب البلدين نظراً لنزيف الخسائر الرهيبة التى منى بها البلدان. وأمام مساندة السعودية للعراق قام الطيران الإيرانى باختراق الأجواء السعودية، حتى إن إحدى الطائرات السعودية قامت بإسقاط طائرة إيرانية فى نفس اليوم الذى استولى فيه الإيرانيون على الحرم المكى، وهو ما أدى إلى إحداث حالة من الفوضى عمت ربوع المملكة.

وعادت الولايات المتحدة مرة أخرى تعرض تسهيلات عسكرية لحماية النظام السعودى، إلا أن طلبها قوبل برفض حاسم لنفس الأسباب التى سبق وأن أشرنا إليها.

وبعد أحداث دموية وعنيفة دارت بين العراق وإيران وضعت الحرب أوزارها بعد ثمانى سنوات من نزيف الدم المتدفق. والخلاصة أن خوف آل سعود من المارد الإيرانى أدى إلى مساندتهم لصدام حسين، الذى توحش وتعملق وأصبح فيما بعد خطراً يتربص ببلدان المنطقة.

فى عام ١٩٩٠ قام صدام حسين باستفزاز دولة الكويت بهدف إرغامها على تقديم تنازلات خاصة بحقل بترول الرميلة، إلى جانب تنازلها عن ديونها العسكرية للعراق. وراح صدام حسين يواصل الضغط حتى أقبل الثانى من أغسطس ١٩٩٠ واجتاحت قوات صدام الكويت، لدرجة أن الأمير جابر قد أطلق ساقه للريح هارباً إلى السعودية.

ومن داخل ملاذ آل الصباح فى مرتفعات جبال الطائف، أدرك آل سعود خطورة قوات صدام حسين على مملكتهم وما قد يترتب على عبور نحو مليون جندى عراقى إلى بلادهم، وتأرجحت الأمور فيما بينهم بين مؤيد لدعوة القوات الأجنبية لصد صدام حسين، وبين رافض لها حتى لا تتدنس الأراضى المقدسة بهؤلاء الذين لا ينتمون إلى الديانة الإسلامية.

وفى سادس أيام الأزمة توجه ديك تشينى وزير الدفاع الأمريكى إلى السعودية حاملاً معه صور الأقمار الصناعية والخرائط التى تؤكد نوايا صدام حسين فى التوجه صوب المملكة العربية السعودية، وهى الزيارة التى دفعت الملك فهد لإعلان موافقته على وجود قوات أجنبية فى أراضى المملكة لحمايتها.

وتدفقت بعد ذلك على المملكة حشود عسكرية أمريكية بلغت حوالى نصف مليون مقاتل، إلى جانب المعدات والآلات والطائرات والصواريخ والبوارج الحربية التى وقفت على أهبة الاستعداد فوق مياه الخليج تنتظر أوامر قادتها بإطلاق النار، وعادت الدعايا السوداء ضد آل سعود الذين استدعوا قوات أجنبية تنتشر من جديد فوق أراضيهم، وذلك من خلال المنابر وأشرطة الكاسيت، بل إن بعض الدعاة زعم أن المجندات اليهوديات يسرن فى شوارع الرياض جهاراً نهاراً وهن عاريات، وهو ما أدى

إلى اندلاع مظاهرات الغضب ضد آل سعود فى جميع أنحاء العالم العربى.

وبلغ الأمر أن بعض الخطباء أصدروا فتاوى بأن آل سعود قد تخلوا عن إسلامهم وارتموا فى أحضان دعاة الصليبية الذين توافدوا على المنطقة لإشعال حرب طويلة ضد الإسلام والمسلمين، ولكن جاء رد الشيخ المبجل عبد العزيز بن باز بفتوى تؤكد أحقية آل سعود فى استدعاء تلك القوات الأجنبية لقتال عدو الله صدام حسين.

وهكذا تعرض العالم العربى للانقسام والتمزق أمام الفتاوى المتضاربة التى أطلقها البعض، والتى رد عليه دعاة المذهب الوهابى المتزمت.

ولأن الملك حسين قد أيد الغزو، فقد قامت المملكة السعودية بطرد العمالة الأردنية ووقف شحنات الدعم للأردن، لمعاقبتها على هذا التأييد. وتبع ذلك قرار آخر يدعو لطرد العمالة الفلسطينية ووقف جميع أشكال الدعم لمنظمة التحرير الفلسطينية التى أعلنت هى الأخرى مساندتها لغزو دولة الكويت وتأييد خطوات صدام حسين فى هذا الشأن.

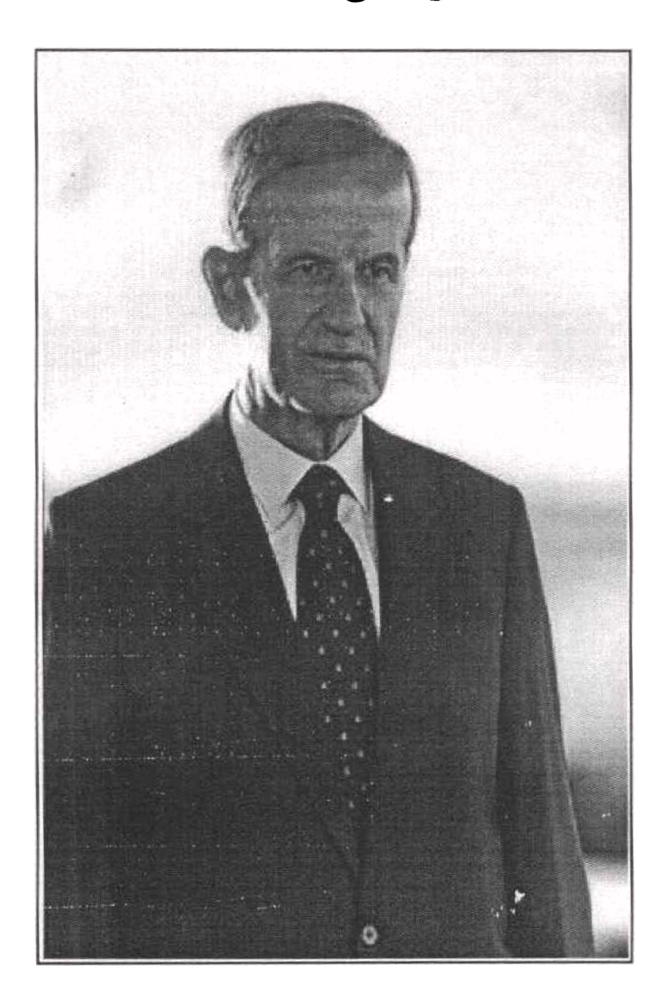
ثم التفت آل سعود لمعاقبة نحو مليون يمنى، فتم طردهم رداً على إعلان الرئيس اليمنى على عبد الله صالح مباركته الغزو العراقى للكويت، الأمر الذى أدى إلى، إلحاق خسائر رهيبة بالاقتصاد اليمنى بلغت نحو ٥ ملايين دولار شهرياً.

وانتهت الحرب الأمريكية الأوروبية ضد صدام حسين، الذى قام بسحب قواته من الكويت، وخرجت السعودية سالمة من تلك الأزمة الرهيبة التى كانت تعد من أخطر الأزمات التى واجهتها طوال تاريخها الحديث.

وهكذا عاشت مملكة آل سعود بين كماشة الدول العربية التى ترفع شعار الوحدة والقومية وتوزيع الثروات، وبين الولايات المتحدة الأمريكية التى ألقت بكل ثقلها العسكرى فى منطقة الخليج، وعزمت على ألا تعود إلى قواعدها كما تعهد ديك تشينى وزير دفاع الولايات المتحدة الأمريكية، وأغلب الظن أنه ما دامت هناك فجوات هائلة بين أغنياء النفط الخليجى ـ خاصة فى السعودية ـ وفقراء مصر وسوريا واليمن فستظل مملكة آل سعود تعيش على حافة بركان).

الفصل الخامس

«حافظ الأسد.. أوهام الوحدة وأطماع السلطة»



حافظ الأسد

أوهام الوحدة.. وأطماع السلطة

يروى هذا الملف قصة صعود الرئيس السورى حافظ الأسد إلى مقاليد السلطة فى بلاده، حيث نتعرض لبعض الأحداث السياسية والتاريخية التى تعرضت لها سوريا حين كانت تحت مظلة الاحتلال الأجنبى، كما نتعرض فى عجالة إلى سلسلة الانقلابات العسكرية التى شهدتها سوريا قبل وصول حافظ الأسد إلى رأس السلطة وتمكنه من فرض سيطرته وإحكام قبضته على جميع فئات شعبه الذين يتوزعون بين طوائف دينية وسياسية متباينة.

وننتقل إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧ وسقوط الجولان فى أيدى اليهود أثناء تولى حافظ الأسد وزارة الدفاع السورية وقتذاك، ثم استعدادات سوريا وخطوات التعاون والتفاهم والتنسيق المشترك بين حافظ الأسد وأنور السادات استعداداً لدخول معركة السادس من أكتوبر، وما أحرزته سوريا من انتصار فى بداية المعركة، ثم ما ترتب على ذلك فى الجبهة السورية من اخفاقات نظراً للضغط الإسرائيلى على جبهتها.

ونروى تفاصيل مفاوضات فك الاشتباك الأول مع إسرائيل ورحلات هنرى كسينجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية المكوكية بين دمشق وتل أبيب.

ونشير إلى الخلاف الشديد بين السادات وحافظ الأسد بعد أن أعلن الأول اعتزمه

زيارة إسرائيل فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٩، حتى قيل إن حافظ كاد أن يعتقل الرئيس أنور السادات فى مطار دمشق لولا أنه أدرك المخاطر التى ستنجم عن هذا القرار، بالإضافة أيضاً إلى موقف حافظ الأسد من اتفاقية كامب ديفيد واستقباله لقادة الدول العربية المعارضة لمعاهدة السلام، وتكوين تحالف عدائى لمصر تحت مسمى راديكالى هو (جبهة الصمود والتصدى)، والتى كانت سوريا من أهم وأكبر أعضائها، فضلاً عن أنها كانت من أولى الدول التى قامت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر.

كما سوف نتعرض للدور السورى الذى لعبه حافظ الأسد فى لبنان، ومحاولته السيطرة على كافة الأمور فى لبنان، بالإضافة إلى حرصها الشديد على رصد حالة حافظ الأسد الصحية التى كانت محل اهتمام من الخبراء والمراقبين والسياسيين فى إسرائيل طوال العقود المنصرمة، وإبراز موقف الأسد من حزب البعث العراقى وأوجه الخلاف بينهما، وموقفه المفاجئ بتأييد الثورة الإيرانية نكاية فى صدام حسين، وهو الموقف الذى كشف مدى التناقضات الجلية فى موقف الثورة الإيرانية، إذ إن هذه الثورة تفجرت خلافاتها مع البعث العراقى بسبب مخالفة برنامجه وتعارضه مع الأيديولوجية الخومينية، رغم أن برنامج البعث العراقى هو نفس برنامج البعث السورى، ومن ثم فإن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: فيم كانت الخلافات إذن إذا كانت أيديولوجية حزب البعث فى كلا البلدين واحدة، ناهيك أيضاً عن أن الشعار الذى رفعه قادة حزبى البعث فى دمشق وبغداد كان واحداً، ألا وهو (حرية. وحدة. اشتراكية)، إلا أنه كما نعرف جميعاً فإن الحرية قد تم ذبحها وسلخها فى معتقلات البعث فى كلا البلدين.. أما الوحدة فحدث عنها ولا حرج بين الدول العربية.

والمضحك فى هذا الأمر أن كلا البلدين قد نشب خلاف حاد بينهما لا نظير له، وليس أقل حدة من الخلاف الفلسطينى الإسرائيلى، حتى أن كلا البلدين كان يرفض استقبال أى مواطن مصرى فى حقبة سابقة إذا كان يحمل جواز سفر عليه تأشيرة دخول وخروج من البلد الآخر، أى أن الوحدة كانت درباً من دروب الخيال.

أما الاشتراكية فهذه قصة أخرى، وخلاصتها أن الجميع اشتركوا فى قمع الشعبين

السورى والعراقى وحكمهما بالحديد والنار والسباط والدم. على أى حال نعود إلى ملف حافظ الأسد وسوف نتعرض فيما بعد لموقف حافظ الأسد من غزو العراق لدولة الكويت ووقوفه إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية، وهو الموقف الذى أدهش كافة المراقبين، حيث ظن الجميع أن حافظ الأسد سيتخلى عن خلافه مع جاره اللدود حرصاً على مصلحة الشعب العراقى، خاصة أن سوريا البعثية كانت تشن هجوماً من وقت لآخر ضد بلدان الخليج العربى النفطية لتخاذلها فى تقديم الدعم المالى اللازم والمطلوب لدول المواجهة، ولا سيما بعد ارتفاع أسعار برميل النفط بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وسوف نشير للصراعات الخطيرة التى تعرض لها حافظ الأسد، وخاصة صراعه مع أبناء حزب البعث، فضلاً عن صراعه الشهير مع جماعة الإخوان المسلمين، التى أباد منها عشرات الآلاف فى مذابح جماعية فى حمص وحماة وحلب، الأمر الذى أدى لإظهاره أمام العالم كزعيم دموى سفاح يحكم بلاده على غرار حكم ستالين فى روسيا.

وأيضاً إلى تراجع حافظ عن موقفه الرافض لإجراء مباحثات سلام مع الجانب الإسرائيلى، حيث جلست سوريا برئاسة وزير خارجيتها فاروق الشرع وجهاً لوجه مع إسحق شامير فى مؤتمر مدريد للسلام الذى أقيم تحت رعاية الرئيس بوش، وتحت شعار (الأرض مقابل السلام).

وننتقل بعد ذلك إلى تدهور حالته الصحية، والخطوات التى اتخذها لتسليم دفة الحكم لنجله بشار، حيث أرسله فى عدة أسفار سياسية إلى أوروبا تمهيداً لخلافة والده.

ونتطرق أيضاً لدور مجلس الشعب السورى فى تعديل الدستور لكى يتواءم مع ظروف بشار الأسد، خاصة فيما يتعلق بالعمر الزمنى الذى اشترط الدستور السورى توافره فى رئيس الجمهورية.

وهكذا جاء ملف حافظ الأسد ساخناً ومليئاً بالنقاط المثيرة والخطيرة بالإضافة إلى احتوائه على علامات استفهام كبيرة وعلامات تعجب كثيرة.

ونبدأ رحلتنا الطويلة فى ملف حافظ الأسد بسرد تاريخ سوريا بعد سقوط وانهيار الإمبراطورية العثمانية.

سوريا والبداية

عقب سقوط الإمبراطورية العثمانية بدأت سوريا الكبرى فى التفتت والاندثار، حيث تولت بريطانيا أمر الانتداب على فلسطين، ومن ثم فصلت عن سوريا الإقليم الجنوبى لها، أما فرنسا فقد وضعت يدها على غربى سوريا وضمته إلى الجزء المسيحى من بيروت الشمالية حتى تتمكن من تأسيس دولة لبنان، وبالتالى فقدت سوريا بوابتها الغربية وأهم منافذها المطلة على البحر.

وفى عام ١٩٢١ تولت فرنسا الإشراف على المرحلة الثانية من مراحل تقليص سوريا: وذلك من خلال تسليم الأسكندرية إلى لبنان، وفى تلك الأثناء كان السوريون يشعرون بالعجز إزاء هذه السياسات الاستعمارية.

والواقع أن هذه التقسيمات أدت إلى إثارة الخلافات بين العشائر والقبائل، فضلاً عن الفوضى العارمة التى عمت أرجاء سوريا الممزقة وذات الاقتصاد المنهار. والشاهد أن دولة سوريا الموجودة حالياً على خريطة العالم السياسية والجغرافية تكونت من مجتمعات متصارعة ومتناحرة، حيث إن أبناء المدينة يناصبون أبناء الريف العداء، كما أن الديانات أوعية منفصلة عن بعضها البعض، والقبائل والعشائر صراعاتها معاً لا تنتهى، بينما الولاء هنا شديد الصلة بالموقع والعقيدة وصلة الدم، وهو ما يعنى أن سوريا تعيش على فوهة بركان قبلى وطائفى وعقائدى.

وربما كانت مقولة الرئيس السورى الأسبق شكرى القوتلى للرئيس جمال عبد الناصر عقب توقيعهما على اتفاقية الوحدة بين مصر وسوريا أصدق تعبير عن هذا حيث قال القوتلى مداعباً ناصر: (هنيئاً لك سوريا يا سيادة الرئيس، ولكن عليك أن تعرف أن شعب سوريا ينقسم إلى نصفين، النصف الأول يظنون أنهم زعماء، والنصف الثانى يعتقدون أنهم أنبياء).

وسوريا طبقاً للتعريف التاريخى هى بلد زراعى، وجميع قراها كانت تمارس الزراعة الجماعية، إلا أن الحكم العثمانى أنهى هذا الأسلوب حين منح كافة العائلات الكبيرة العديد من الأراضى الواسعة نظير ولائهم للدولة والخليفة الحاكم.

وبعد أن جاء عام ١٨٥٨ أصبحت معايير الرجل تقاس بعدد القرى التى يضع يده عليها وبعدد الفلاحين الذين يعملون فى خدمته ومدى رحابة بيته وسعته فى المدن من أمثال دمشق وحمص وحماة وحلب، وهى المدن التى صارت مراكز القوة والمال والنفوذ، وإن كان أغلب سكان هذه المدن من المسلمين السنيين الذين كانوا ينخرطون فى مجتمع التجار ورؤساء العشائر الصغيرة، حتى أن هذه الكيانات أفرزت طبقات متصارعة ومتنافسة على غرار النموذج الإيطالى القديم.

وإذا كانت سوريا قد تم تقسيمها طبقاً للمدن، فإنه تم تقسيمها أيضاً وفقاً للديانات، مما ساعد على خلق الطوائف الدينية فى سوريا. وفى المثلث الغربى من سوريا أدت الانحدارات التضاريسية فى الأرض إلى جذب المجموعات المتباينة من المنشقين الدينيين، وقد تم حصارهم داخل مقطاعتهم المقصورة عليهم وحدهم أما مصطلحا مسلم ومسيحى فقد أصبحا فى زمن ما وصفان يثيران الأزمات والمشكلات، ففى عصر الديانة المسيحية فى سوريا نشبت أحداثاً خطيرة لا تزال تداعياتها واضحة حتى الآن.

وفى دمشق توجد العديد من المزارات المسيحية القديمة، كما أنه خارج العاصمة دمشق ـ وبالتحديد فى قرية ملولة الواقعة بجانب التلال ـ لا يزال السكان من أبناء الديانة المسيحية يتحدثون اللغة الآرامية التى كانت لغة السيد المسيح. وبصرف النظر عن هذه الأواصر التى تجمعهم بتاريخ الكنيسة المسيحية منذ نشوئها، فإن الاختلاف والتناقض الذى أفرزته الجغرافيا والظروف الاقتصادية والاجتماعية واللاهوتية يقسم المسيحيين فى سوريا إلى مارونيين كاثوليك وروممانيين، فضلاً عن فرعين ينبثقان عن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، ومجموعة أخرى صغيرة مكونة من أبناء طوائف البروتستانت، وهذه بالطبع ليست مجرد طوائف فحسب، ولكنها بالفعل جماعات طائفية لديها الدوافع والاستعدادات لتدمير العقيدة حفاظاً على مصالحها الخاصة، ومع ذلك فالانقسامات والخلافات بين المسيحيين تبدو باهتة إذا قورنت بنظيرتها بين المسلمين.

فى الوقت الذى بلغت فيه نسبة سكان سوريا المنتمين إلى الديانة الإسلامية نحو ٨٥٪ من مجموع السكان، فإن واحداً من كل خمسة من أبناء الديانة الإسلامية ينتسب بالفطرة إلى إحدى الطوائف المتمردة، ولكن من الملاحظ أن الغلبة فى سوريا للطائفة السنية التى تتركز فى المدن والمناطق الريفية فى قلب سوريا، أما المسلمون غير السنيين ـ وأعنى بهم الدروز والعلويين ـ فهم يتجمعون فى مرتفعات الجبال الشمالية والجنوبية، وكلاهما على صلة بالمذهب الشيعى.

وقد بلغ سكان سوريا السنيين حوالى ٦٩٪ من المجموع الإجمالى للسكان، ١٢٪ من العلويين، و٥٪ من الدروز، و١٠٪ من المسيحيين وأما نسبة ٤٪ المتبقية فتتألف منها الأكراد والأرمن والتركمان والشركس الذين ما زالوا يتحدثون بلغتهم الأصلية، فضلاً عن وجود نصف مليون من قبائل البدو الذين يقطنون فى الصحراء السورية، وحوالى ربع مليون لاجئ فلسطينى ينتشرون حول سوريا.

واللافت للانتباه أن هوية المواطن السورى لا ترتبط بتحديد وتصنيف ديانته فقط، ولكن تعتمد أيضاً فى الأساس على معتقداته الطائفية والعرقية والطبقية، حيث إن كل سورى يمثل بشكل أو بآخر جماعة أو طائفة أقلية، وكل أقلية من هذه الأقليات تتميز بخصائصها النفسية المشتركة التى من شأنها أن تعرقل تصرفات أى جماعة معارضة لها إلى مستوى ربما يهدد مصالحها أو حتى وجودها.

وخلاصة ذلك أن سوريا تشبه أرخبيلا من الجزر يقف خلف مصالحها، وفى عام ١٩٦٤ حين أعلن الفرنسيون تخليهم عن انتدابهم عليها، كانت سوريا تعتمد أساساً على الزراعة، حيث يتولى شئون الزراعة حوالى مليونين ونصف المليون من الفلاحين الذين كانوا يقطنون فى قرى من الطين والحجارة بدون ماء أو كهرباء أو حتى طريق مرصوف بالإضافة إلى انتشار كافة الأمراض ـ وخاصة المعدية ـ بينهم.

نشأة حزب البعث

انتشر الفكر البعثى فى صالونات الأدباء والمثقفين فى سوريا فى حقبة الثلاثينيات، وحين تمزقت أوصال سوريا الكبرى التاريخية بعد الحرب العالمية الأولى

راح هؤلاء المثقفون البعثيون يتنافسون على تحديد الهوية الوطنية السورية وعلاقة بلادهم بتلك البلاد التى تتحدث العربية مثلها، فوجد هؤلاء المثقفون البعثيون أن سوريا الصغرى قد يتسع حجمها إذ هى توحدت مع أبناء العالم العربى وذلك بواسطة طرح أيديولوجية البعث العلمانية.

وبينما كانت صالونات المثقفين تتحدث عن مفهوم البعث وأهمية انتشاره فى ربوع الأمة، راح المسيحيون والدروز والعلويون والجماعات المنشقة فى سوريا يعلنون تحديهم لهيمنة رموز الاقطاع فى سوريا، وقد استغل البعثيون هذه الاحتجاجات وشرعوا فى شرح مذهبهم الاشتراكى الغامض والهجوم على الاقطاعيين الذين تتركز السلطة والثروة فى يدهم رغم قلة عددهم.

ولاشك أن سياسة البعث أدت إلى خلق سياسة ذات صبغة علمانية، لإرساء مذهب اقتصادى يتسم بالمساواة، مما أدى إلى جذب بعض الأفراد من أقليات سوريا، وفى مقدمتهم الشاب العلوى حافظ الأسد.

الأسد.. وفترة التكوين

ونتطرق هنا إلى نشأة وتكوين حافظ الأسد حتى نستطيع فهم مغزى قراراته التى اتسمت فى بعض الأحيان بالدهاء وفى أحيان أخرى بالقوة والعصبية والعنف، وبالطبع فإن طبيعة التكوين البيئى والأسرى والتثقيفى هو الذى يفرز مكونات الشخصية لدى أى فرد، وحافظ شأنه فى ذلك شأن أى فرد فقد تأثر ببيئته وثقافتها ومناهجها وعلومها وعاداتها وتقاليدها.

فى صباح السادس من أكتوبر ١٩٣٠ ولد الطفل حافظ الأسد فى منزل متواضع مكون من حجرتين تم بناؤهما من الحجر الخشن أعلى التلال الواقعة فى قرية قرداحة شمال شرق ميناء اللاذقية، وكان والده مزارعاً يجيد زراعة التين والتبغ أيضاً. وقرية قرداحة ـ مسقط رأس حافظ الأسد ـ تنتسب إلى الطائفة العلوية، وهى تتكون من مجموعة أكواخ ذات أسطح مستوية تقع فى أقصى طرف أحد الطرق الضيقة.

وتلقى حافظ الأسد علومه الدراسية فى مدرسة فى العراء قامت إدارة الاستعمار

الفرنسى بتأسيسها، وفى عام ١٩٣٩ ذهب إلى اللاذقية ـ أشهر المدن الساحلية بسوريا ـ للانخراط فى مدارسها، وهناك تنبه وأدرك حقيقة معنى ومفهوم الطائفة العلوية فى سوريا.

وحين بلغ حافظ سن السادسة عشرة انضم إلى حزب البعث الذى كان يجهز الأقليات لتولى أرقى المناصب السياسية والاجتماعية داخل النظام الحاكم فى سوريا. وكان الأسد يجيد فنون الرسم على الجدران الحجرية بموهبة فطرية كانت تلازمه، ثم تخلى عن تلك المرحلة إلى كتابة المنشورات البعثية السياسية.

وفى بواكير حقبة الخمسينيات التحق حافظ الأسد بصفوف القوات المسلحة السورية التى كانت إدارة الانتداب الفرنسى قد قامت بتطويرها كلها، وكان الجيش هو ملاذ أبناء الطبقات الفقيرة التى عانت كثيراً من العمل فى زراعة الأرض.

من هنا كانت طبقات ملاك الأراضى والتجار تأبى الانضمام إلى الجيش باعتباره ملاذ الفقراء، مما أدى إلى انتشار أبناء الطبقة المتوسطة فى كافة وحداته، وانضمام هذه الطبقة الفقيرة إلى حزب البعث، بحيث تحالف الجيش والحزب معاً وأصبح من العسير الفصل بينهما لقوة ترابطهما. وقام القادة العسكريون والبعثيون بتوزيع الأدوار على نحو يتواءم مع النظام السائد فى سوريا، فقام حزب البعث بتولى مسئولية العمل البيروقراطى فى الإدارات الحكومية، بينما أدار الجيش الأمور السياسية فى سوريا. وفى عام ١٩٥٨ صعدا معاً إلى قمة النظام السياسى الفاسد فى سوريا، حيث كانت سوريا تغوص فى فوضى لا مثيل لها، وخاصة فى النواحى السياسية والاقتصادية.

وكان لافتاً للانتباه كثرة الانقلابات والتوجه إلى دور الإذاعة لإعلان اسم قائد الانقلاب الجديد، حتى أصبح موضة غريبة على العالم العربى يتندر بها الجميع ويتفاكهون حولها. ودارت طاحونة الانقلابات عدة سنوات حتى قام حزب البعث بتولى السلطة.

وقد كان حزب البعث آنذاك يفتقد التأييد الشعبى. ونظراً لأن الحزب كان يدعو دائماً إلى الوحدة العربية وإحياء القومية والعروبة فقد وافقت قيادته السياسية والعسكرية على الانضمام إلى جمال عبد الناصر وإقامة وحدة بينهما، حيث كان هذا المطلب يمثل أسمى أمانى البعثيين، إلا أن الوحدة لم تدم طويلاً، فقد تفجرت

الخلافات بينهما حتى انفرط عقدها فى عام ١٩٦١ فى لحظات عصيبة أدت إلى إثارة حنق عبد الناصر وأنصاره.

والواقع أن سياسة عبد الناصر الخاطئة فى إدارة الجمهورية العربية المتحدة كانت أهم أسباب فشلها، فقد كان معروفاً أن ولع جمال عبد الناصر بإمساك جميع خيوط السلطة فى يده هو الذى أدى إلى إشاعة السخط، والتذمر بين قادة القوات المسلحة السورية الذين استاءوا من أسلوب جمال عبد الناصر الديكتاتورى فى الحكم، وخاصة عندما أقام بتعيين عبد الحكيم عامر فى شهر أكتوبر ١٩٥٩ حاكماً على سوريا وكأنها إحدى مدن الإمبراطورية الناصرية.

وأمام تلك السياسة الخاطئة تذمرت جميع قوى الشعب وطبقاته، حيث تظاهر العمال والتجار وملاك الأراضى والموظفين ورجال الأعمال ورجال الجيش، الذين رفضوا الانصياع لسياسة عبد الناصر الاشتراكية التى أدت إلى تمزيق حزب البعث وتفتيت مؤسساته بسبب قراراته التعسفية.

وكانت قرارات التأميم الصادرة فى عام ١٩٦١ القشة التى قسمت ظهر البعير، حيث أدت إلى تفاقم الاحتجاجات والمظاهرات والاضطرابات، إلى أن تم إعلان انفصال سوريا عن مصر فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ بواسطة المقدم عبد الكريم النحلاوى الذى قاد التمرد. وتلت ذلك دائرة من العنف والانقلابات، وكانت هناك لجنة عسكرية عبارة عن تنظيم سرى من شباب الضباط فى الجيش السورى ينتمون إلى حزب البعث ويؤمنون بأفكاره الخاصة، وعلى رأسهم حافظ الأسد.

وفى ليلة ٧ مارس ١٩٦٣ أصدرت اللجنة العسكرية أوامرها للدبابات والمدرعات بالتحرك نحو دمشق، وسقطت العاصمة فى لمح البصر، وتقبل أبناء سوريا أنباء الانقلاب بإهمال وعدم اكتراث. وقبل قيام هذا الانقلاب كان حافظ الأسد يعمل فى صمت مع زملائه ـ رغم إدراكه للمخاطر المحفوفة التى تتربص بهم ـ حتى تمكنوا من إنجاح انقلابهم وتدعيم مركزهم، ثم بدأوا فى اتباع سياسة التطهير داخل الجيش، والذى تعرض لسلسلة من التغييرات لبعض ضباطه بإعفائهم من الخدمة وإلحاق أعضاء الحزب

بدلاً منهم، ومن ثم تم دمج البعثيين فى جميع وحدات وصفوف الجيش السورى، وذلك لنشر مبادئ وأهداف الحزب وتلقينها للضباط والجنود.

وفى نهاية المطاف أدت تلك السياسة التى انتهجها حزب البعث داخل الجيش إلى تلاحم الجناحين العسكرى والسياسى بهدف تشكيل أدوات ثورية راديكالية للتخلص من النظام الفاسد القديم، ولكن هذه المجموعة البعثية كانت لا تعبر فى الأساس عن الحزب نفسه، ولهذا فقد تعرضت البلاد لسلسلة من الاضطرابات والفوضى، نظراً لأن حزب البعث كان يفتقد الشعبية داخل قطاعات الشعب، ولذلك تعرض للعديد من المؤامرات ضده من القوى السياسية، ففى شهر مايو ١٩٦٣ قام البعثيون بسحق إحدى المؤامرات التى قادها نفر من الناصريين المؤمنين بالوحدة مع جمال عبد الناصر، وفى عام ١٩٦٤ تمردت الطائفة السنية ضد النظام السياسى الذى تسيطر عليه الأقليات، وراح خطباء المساجد المنتمون لجماعة الإخوان المسلمين يدعون أبناء الشعب للتمرد على حزب البعث العلمانى، كما دعا رموز الجماعة أعيان المدن وطبقات التجار ورجال الأعمال إلى الجهاد ضد هؤلاء العلمانيين.

وفى مدينة حماة - التى كانت إحدى قلاع جماعات الإخوان المسلمين - خرجت الجماعة من مخابئها بشتى أنواع الأسلحة، كما شيدت المتاريس والحصون، وبدأت الهجمات تنهال على أعضاء حزب البعث الذين تساقط عدد كبير منهم فى غضون أيام. وقد أدت هذه الهجمات القاتلة إلى تحرك حزب البعث، الذى أصدر أوامره لقوات الجيش بالنزول إلى الشوارع. وبعد مرور ٤٨ ساعة من القتال وسقوط أكثر من سبعين قتيلاً أسدل الستار على مسرح الانتفاضة.

حزب البعث ومقاومة الإخوان

بعد إخماد هذا التمرد السنى الذى قادته جماعة الإخوان المسلمين تحول حزب البعث إلى تطهير نفسه بنفسه، حيث قامت اللجنة العسكرية بضم ميشيل عفلق وصلاح البيطار وعدد آخر من مؤسسى البعث فى الحكومة، ثم تبع ذلك انقسام قوات البعث إلى قوتين بموجب اتفاق صاغه رواد البعث، حيث تولى ميشيل عفلق قيادة الحزب بصفته أحد رموز الحرس القديم، بينما قاد حافظ الأسد اللجنة العسكرية للحزب.

وكان الأمر بالنسبة لميشيل عفلق يتعلق بمدى ولائه وارتباطه بالحزب الذى كان يعتبره أحد مصادر الفكر والثقافة العربية، كما كان الحارس الساهر على سياسة الحكومة والحفاظ علىٰ طهارتها وأيديولوجيتها، بينما كان حافظ الأسد يعتبر أن الحزب هو الأداة السياسية للتغيير الشامل فى البلاد، وأنه المؤسسة المركزية للدولة. وفى اعتقادى أن هذا التباين الفكرى بينهما كان هو جوهر الخلاف الفلسفى.

وعلى الصعيد الداخلى أدى هذا الصراع داخل أركان البعث إلى تحرك طبقات العمال والمزارعين الفقراء فى القرى الريفية ضد شريحة المثقفين الذين يقطنون المدن.

ومن خلال هذا الغليان الذى شهدته الساحة السياسية فى سوريا، قام شباب الفلاحين الذى كانوا قد التحقوا بالقوات المسلحة بالتظاهر فى الثالث والعشرين من فبراير ١٩٦٦، وألقوا القبض على صلاح البيطار وقذفوا به فى أحد المعتقلات، بينما فر ميشيل عفلق هارباً إلى بيروت، مما أدى إلى انفراط عقد حزب البعث مرة أخرى، فدانت الأمور للأقليات من أبناء العلويين والدروز وسيطروا على مقاليد الأمور، ثم تطورت الأحداث وتمكن العلويون من طرد الدروز، وبالتالى آلت الأمور للطائفة العلوية التى ينتمى إليها الرئيس حافظ الأسد، والذى قام بدوره بعملية تطهير جديدة قام خلالها بطرد من يضمرون الأحقاد والمكائد، ولم يبق سوى أولئك الذين أيدوا حافظ الأسد وناصروه فى مخططاته الرامية للسيطرة على البلاد.

وفى ١٦ نوفمبر اطمئن الأسد على استقرار الأمور بين يديه فأعلن توليه رئاسة البلاد. وقد قام العقيد الليبى معمر القذافى ـ الشاب الثائر ـ بزيارة مفاجئة لدمشق لدعم حافظ الأسد، الذى استقبله بصفته رئيس سوريا الجديد.

وعلى الرغم من أن الأسد كان يتبنى منهجية حزب البعث إلا أنه غض الطرف عن مطلب الوحدة العربية الشاملة التى كان ينادى بها رواد البعث، مبرراً ذلك بظروف المجتمع السورى.

ويبدو أن الغرور قد سيطر على حافظ الأسد الذى حكم البلاد، فقد همس فى أذنه أحد المقربين منه قائلاً: (لماذا نعتقد أن حكم هذا الشعب أمر عسير؟!.. إن الأمر فى

غاية البساطة، فالذى لا يملك سيارة يريد أن يملكها، والذى ينام فى العراء يطمع فى منزل، ونحن بمقدورنا أن نقدم لهم هذه المطالب، وفى تلك الحالة لن نجد لنا أى معارضين اللهم إلا عدد قليل قد لا يتجاوز المائة ممن يتعاملون مع السياسة بشكل جدى وهؤلاء سيعارضوننا من أجل المعارضة، ولهذا فقد فرغت من بناء سجن من أجلهم).. ولكن الرياح أتت بما لا تشتهى سفن حافظ الأسد، وسرعان ما أدرك صعوبة استمراره فى إدارة شئون البلاد.

كما يبدو أن حافظ الأسد قد غفل عن انتمائه لإحدى طوائف الأقليات، وهو الأمر الذى أثار حفيظة غالبية السنة فى سوريا، ومن ثم فإن حافظ الأسد الذى حاول إدماج كافة الطوائف فى إدارة شئون البلاد تراجع وانكمش أمام هذه الخطوة، حيث شعر بخطورتها على نظام حكمه، فراح يضع كافة السلطات والصلاحيات فى أيدى أبناء طائفته العلوية، ضارباً بمشاعر الأقليات والأغلبية المناوئة له عرض الحائط.

فى عام ١٩٧٩ تحركت جماعة الإخوان المسلمين التى تضم أكثر من عشرة آلاف فدائى كانوا ينتظرون الأوامر للعمل ضد النظام البعثى العلمانى. وفى بدايات شهر مايو من نفس العام أطلق الإخوان النار على سيارة كانت تقل حافظ الأسد حين كان يجوب شوارع العاصمة دمشق، إلا أنه قد نجا منها بأعجوبة.

وفى خطوة خطيرة أقدم عليها الإخوان المسلمين، قامت مجموعة مسلحة يقودها أستاذ جامعى باقتحام إحدى مدارس الجيش العسكرية، واقتحمت القاعة التى كانت تضم العديد من الطلاب العلويين وفتحت نيران بنادقها الآلية عليهم حتى سقطوا جميعاً وسط حمامات من الدم والدموع، وهى الرسالة التى وصلت إلى حافظ الأسد فى إشارة واضحة لا غموض فيها، مؤكدة بداية المعركة الفاصلة بين الإخوان والعلويين.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل امتدت إلى شرق نهر الفرات، حيث عمت الفوضى من خلال حركة عصيان شامل دعا إليها الإخوان المسلمين، ثم سرعان ما امتدت غرباً إلى اللاذقية والتى كانت بمثابة المدخل الأساسى لأبناء الطائفة العلوية. وانضم بعض التجار والحرفيين الذين عارضوا حكم حافظ الأسد إلى هذا التمرد، كما

انضم عدد كبير من أبناء السنة حتى تضخم عدد المنتمين إلى العصيان والتمرد مع الإخوان المسلمين ضد حافظ الأسد.

وفى الفترة الزمنية ما بين عامى ١٩٧٩ و١٩٨٠ كان الإخوان المسلمين يسيطرون على كافة أمور البلاد، وفى خطوة استعراضية خرج هؤلاء المتمردون من كهوفهم فى المدن المكتظة بهم ـ كحلب وحماة ـ نهاراً جهاراً دون خوف أو مواربة، حيث تولوا قيادة المظاهرات المعادية لحافظ الأسد وإشعال النيران فى دور الحكومة والمتاجر والسيارات، وحين أرخى الليل أستاره أطلقوا بعض الخلايا الفدائية لمهاجمة أعضاء حزب البعث من أنصار الأسد، والذين لقى أغلبهم مصرعه فى غرفة نومه وأمام أسرته. وظلت الأمور تسير على هذا النحو حتى منتصف عام ١٩٨٠ نظراً لأن الأسد واجه تلك الفوضى بصبر وحذر شديدين.

وفى الثامن من مارس تلقى الأسد إشارة عاجلة وخطيرة تؤكد أن مدينة حلب أعلنت حالة الإضراب العام الأمر، الذى دفعه لتزويد أنصاره بأعتى الأسلحة لأقتحام مدينة حلب، فسقط فى هذا الهجوم أكثر من مائتى فدائى من الإخوان المسلمين، إلا أن سقوط هذا العدد لم يحل دون التمسك بالإضراب الشامل والتظاهر ضد الأسد.

فى صباح التاسع من مارس ١٩٨٠ قامت القوات المحمولة جواً فى مروحيات عمودية بشن عمليات عسكرية عنيفة ومدمرة على مدينة جسر الشغور الملاصقة لمدينة حلب، وبعد ساعات اتجهت القوات المهاجمة إلى مدينة حلب نفسها، وقامت فرقة تضم حوالى عشرة آلاف جندى ومن ورائهم أكثر من مائتى عربة مدرعة بإغلاق جميع منافذ المدينة، وأعلن اللواء شفيق فياض أنه على استعداد لقتل ألف رجل يومياً لتطهير حلب من الإخوان المسلمين.

وقوبل هذا التصريح العنيف بحالة من عدم الاكتراث واللامبالاة، واستمر أبناء المدينة فى عصيانهم وتمردهم، بل وثار العصاة فى شجاعة ضد الأسد معلنين عدم تراجعهم عن إقالة الأسد أو اغتياله.

وفى السادس والعشرين من يونيه تصاعدت الأمور إلى حد غير مسبوق، حيث

ألقى أحد الفدائيين قنبلتين على الرئيس الأسد أثناء استقباله رئيس دولة مالى فى ساحة المطار، وقد قذف الأسد إحدى القنابل بقدمه بعيداً عنه، بينما دفع أحد الحراس حياته ثمناً لدفاعه عن الرئيس وألقى بنفسه على القنبلة الأخرى فأردته صريعاً فى الحال. وبعد ثوان عاد الفدائيون وأطلقوا وابلاً من الرصاص صوب الرئيس، الذى نجا مرة أخرى بأعجوبة من هذا الحادث. وتميز الأسد غيظاً وثار أبناء طائفته العلوية ضد الإخوان المسلمين مطالبين ابن عشيرتهم بالانتقام السريع والحاسم.

وفى فجر السابع والعشرين من يونيه ١٩٨٠ أقلعت حوالى ٢٢ طائرة عمودية، وحملت على متنها العديد من جنود الجيش الذين قفزوا منها بمظلاتهم على أسطح سجن تدمر القريب من مدينة تدمر التاريخية، ثم قامت هذه القوة بفتح نيرانها على المعتقلين من الإخوان المسلمين الذين بلغ عددهم أكثر من ستمائة قتيل.

وفى الأسبوع التالى أعلن الأسد أن الانضمام لجماعة الإخوان المسلمين جريمة عقوبتها الإعدام رمياً بالرصاص، ورغم هذا فقد مضى الإخوان المسلمين فى تمردهم دون خوف أو تراجع، ومرت الأحداث الدموية بين الجانبين على هذا النحو حتى جاءت ليلة الثانى من فبراير ١٩٨٢ لتبدأ أبشع فصول المأساة فى تاريخ سوريا، وخاصة فى مدينة حماة.

ففى تمام الساعة الثانية صباحاً قام أحد الفدائيين بقتل نحو عشرين جندياً من أتباع الأسد أثناء تجوالهم فى دورية ليلية، وفجأة فتحت أبواب المساجد وعلت صيحات المؤذنين يدعون للجهاد ضد البعث الكافر، مرددين: (الله أكبر.. هيا إلى المساجد أيها الأشاوس لحمل الأسلحة ومحاربة أعداء الله فى سوريا).

وهب الإخوان من كهوفهم وحملوا الأسلحة وفتحوا النيران ضد أعضاء حزب البعث، الذين سقطوا بين جريح وقتيل. وفى الصباح أعلن الإخوان التخلص من البعث والعلويين واستقلال مدينتهم.

وبينما خرج راديو دمشق الرسمى معلناً ضرورة التحرك ضد هؤلاد المتمردين، كان حافظ الأسد الماكر يعد خطته فى السر لوضع نهاية لتلك الأحداث، التى باتت تهدد

شرعية حكمه فى كافة البلاد فقد أدرك الأسد أن انفصال حماة واستقلالها إذا لم يواجه بحسم وحزم فسوف تقتفى باقى المدن أثرها، وهو ما سيعرضه وأبناء طائفته العلوية لحمامات دم لا يعرف أحد كيف ستبدأ ومتى ستنتهى؟.

وأصدر الأسد أوامره لقوات جيشه بإشعال النيران فى مدينة حماة، وقام الجيش بتنفيذ أوامره دون تردد، حيث اجتاحت الدبابات والمروحيات المدينة، فحولتها على مدار أسبوع إلى دمار وخراب، وتدفقت سيول من الدماء فى شوارعها، حتى أن عدد القتلى تجاوز العشرين ألفاً من جماعة الإخوان المسلمين، وهو ما دفع المتمردين إلى التراجع والانكماش والاستسلام لقوات جيش حافظ الأسد بعد المذبحة التى أبادت المدينة، ولتظل حماة رمزاً لدموية حافظ الأسد ودهائه ومكره.

وخرج الأسد منتصراً فى المعركة الحاسمة، معلناً على شاشة التليفزيون أن ما حدث فى حماة حدث وانتهى ولن نقف عنده، وراح حافظ الأسد يخاطب شعبه بأبناء الأمويين للالتفاف حوله ولكن الكل كان يعلم أن الأسد لا يعترف بالماضى وإنما يعترف فقط بوجوده وبقائه هو شخصياً، مهما كانت عظمة الماضى وروعته.

وعلى طريقة الفلاش باك السينمائية نعود إلى المرحلة التى تولى فيها حافظ الأسد حقيبة وزارة الدفاع السورية كأول وزير دفاع علوى، حيث تعرض لهزيمة قاسية فى عام ١٩٦٧ أصابته بالذهول والدهشة من براعة المقاتل الإسرائيلى وتخاذل المقاتل السورى والمصرى والأردنى والعربى عموماً، ولكن حافظ الأسد ترك مكتبه فى وزارة الدفاع واتجه صوب منزله الريفى القديم فى قرية قرداحة للتمعن والتأمل فيما حدث خلال حرب الأيام الستة، وراح يفرض على نفسه عزلة تامة بعيداً عن أعين الناس، كما فعل من قبل ديفيد بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق حين راح يعتزل الحياة السياسية فى مزرعته، ثم خرج للنور معلناً سياسة توسعية جديدة لإسرائيل. وقد نجح بن جوريون فى تنفيذ ما توصل إليه، بينما خرج الأسد إلينا بمفاهيم حالمة لم تجد لها أرضاً خصبة.

خرج الأسد من عزلته حاملاً معه مجموعة من الأفكار، أهمها أن إسرائيل

بطبيعتها قوة توسعية، وأن التصدى لهذه النزعة يتطلب جهد عربياً موحداً، وعاد حافظ الأسد للحياة مسلحاً بتلك الأفكار.

كان الأسد يسعى جاهداً للحرب لاستعادة أراضى الجولان بالقوة، بينما كان أنور السادات من ناحيته يرى أن الحرب وسيلة لفتح القنوات الدبلوماسية، وقد نجح فى إقناع الأسد بمشاركته فى استراتيجية عمل عسكرى مشترك لاستعادة الأراضى المحتلة.

حرب أكتوبر

قضى حافظ الأسد يوم عيد ميلاده الثالث والأربعين فى غرفة عمليات القيادة العامة للجيش السورى بالعاصمة دمشق، وفى الساعة الثانية عبرت القوات السورية القطاع الأوسط من خط وقف اطلاق النار فى حرب ١٩٦٧ على هضبة الجولان.. وقامت المدفعية الثقيلة بفتح الطريق أمام الدبابات والعربات المصفحة للاتجاه صوب مواقع القوات الإسرائيلية التى كانت تقف بقوة وصلابة خلف بطاريات المدفعية وحقول الألغام المنصوبة بمحاذاة وادى الحولة فى إسرائيل، ولكنه كان تقدماً بطيئاً للغاية. وطوال أيام الحرب الثلاثة الأولى تعرضت القوات السورية التى وصلت إلى مرتفعات الجولان لغارات جوية إسرائيلية عنيفة، وقد تمكنت القوات الإسرائيلية من وقف الزحف السورى، ثم أعقبت تلك الغارات العنيفة مرحلة الهجوم فى العمق السورى، حيث قامت بضرب محطات الطاقة ومستودعات الذخيرة ومصفاة البترول فى حمص وميناء اللاذقية، وفى العاشر من أكتوبر قصفت إسرائيل مقر وزارة الدفاع السورية فى دمشق.

ونتطرق هنا إلى مرحلة فض الاشتباك بين مصر وسوريا، حيث شنت سوريا هجوماً على الرئيس أنور السادات اتهمته فيه بأنه تخلى عن الرئيس حافظ الأسد أثناء مفاوضات فك الاشتباك، وأن السادات لم يبلغه مسبقاً، وهو اتهام ليس له أساس من الصحة، إذ إن أنور السادات كان قد أراد استثمار ما حصدته قواته من انتصارات سابقة على جبهة سيناء، على عكس موقف القوات السورية التى تخاذلت وتقهقرت أمام القوات الإسرائيلية. لذلك كان من الطبيعى أن يعمل أنور السادات على إعادة أراضيه المحتلة، وخاصة بعد اختلال الموازين العسكرية فى سيناء لصالح الجيش

الإسرائيلى المدعوم بحماية أمريكية لم تحدث من قبل، وإلا فقد أنور السادات ما أحرزه أبناؤه البواسل الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن بغية استرداد سيناء المحتلة.

وخلاصة القول أن السادات قد نهج الطريق الصحيح نحو إعادة سيناء، حيث راح يتعامل من منطلق المفاوض المنتصر، بينما كانت الأمور على مرتفعات الجولان فى غير صالح المفاوض السورى بالإضافة إلى أن الاتفاق المصرى السورى كان يتعلق ببدء العمليات العسكرية دون الدخول فى تفاصيل، وذلك لصعوبة وجود خط ساخن لالتقاط الإشارات المتبادلة بين القوات المصرية والسورية، وهذه حقيقة يعرفها الجميع إلا الأستاذ حسنين هيكل وأنصاره من بعض المثقفين السوريين.

لم يخطر أنور السادات حافظ الأسد مسبقاً بمشروعه لوقف إطلاق النار الذى قام بعرضه على الهيئة التشريعية فى مصر فى السادس عشر من أكتوبر، وقد اشتاط الأسد غيظاً من أنور السادات وبعث إليه برسالة غاضبة كانت تحتوى على كلمات رقيقة ولكنها لاذعة فى ذات الوقت حيث قال فى رسالته: (لقد كنت أفضل رؤية المشروع الذى عرضته على مجلس الشعب قبل إعلانه على الملأ. ويحزننى أن أكتب إليك بهذه الكلمات، ولكننى لا أرغب فى اخفاء أفكارى وأرائى عنك لأننا مشتركان معاً فى معركة حياة أو موت).. وهكذا وجد الأسد نفسه أمام انهيار هائل لأواصر الوحدة المشتركة بين مصر وسوريا، وتخلى عنه السادات بقبول وقف إطلاق النار، بينما التزم هو تماماً باسترداد الأراضى، حيث لم تكن لديه فرصة للتقهقر بمفرده.

ويأتى هنا رأى البعض أن الأسد ـ ذلك الداهية السياسية الذى اكتسب خبرات كثيرة من حرب جديدة بين العرب وإسرائيل ـ جعل سوريا القوة العربية الرئيسية فى بلاد المشرق العربى، فراح منذ ذلك الحين يتغنى بقضية الوحدة العربية متى كان ذلك ملائماً، ويمزق هذه الوحدة إذا تطلب أمن سوريا ذلك.

ولكن حافظ الأسد الذى يزعم البعض أنه كان يتغنى بالوحدة العربية، لم نراه قد فعل شيئاً من أجل تحقيقها بل إنه على العكس كان على خلافات مزمنة مع الأردن وليبيا والعراق والسعودية والكويت، كما أننا لم نلاحظ على الرئيس الأسد قيامه

بزيارات إلى أشقائه العرب إلا بقدر ملحوظ لا يدعو إلى التفاؤل أو الاعتقاد بأنه داعية للوحدة العربية.

أما حكاية أن حافظ الأسد قد اكتسب خبرات من حربه مع إسرائيل، وأنه استطاع بدهائه أن يتعامل معها كقوة عربية أساسية، فهو كلام ينطوى على أكاذيب، حيث إن الواقع يؤكد لنا لما لا يدع مجالاً للشك أن حافظ الأسد قد فرض على نفسه عدم مواجهة الإسرائيليين، ولتذهب الجولان إلى غير رجعة ما دام ذلك يحفظ له تولى مقاليد السلطة، وقد استغلت إسرائيل ذلك فى اجتياح لبنان وضرب قواعد الجيش السورى فى سهل البقاع دون أن يتحرك الأسد أو ينتفض غضباً على ما حدث اللهم إلا أنه راح يردد بعض كلمات كان يرددها من قبل الرئيس جمال عبد الناصر (إننا نحن الذين نختار موعد ومكان المعركة ولن ندع إسرائيل تختار هى ذلك)، وهو كلام لتخدير أعصاب الشعوب العربية الغاضبة والشعب السورى الحانق.

وقد دفعت دبلوماسية هنرى كسينجر المكوكية فى ١٩٧٤ حافظ الأسد ـ ذلك الشاب العلوى القادم من أغوار سوريا ـ إلى دائرة الضوء العالمية. وخلال صراعه مع كسينجر ـ الذى تمت تغطيته إعلامياً تغطية جيدة ـ لمع نجم حافظ الأسد على أساس أنه بطل عنيد ومدافع عن المصالح السورية والعربية، ولكن شهرته الشخصية التى اكتسبها تفوق ما استردته سوريا من أراضى.

وفى عام ١٩٧٥ هاجم الأسد اتفاقية سيناء الثانية لفض الاشتباك بين مصر وإسرائيل، والتى أفرزت سلاماً مؤقتاً بين مصر وإسرائيل، لأن حافظ الأسد أحس بأن قبوله لهذه الاتفاقية من شأنه أن يضعف مركز سوريا، وهو ما يتعارض مع الكبرياء الأموى، خاصة أنه كان قد تعهد أمام الأمة العربية بمواصلة القتال وتحدى هؤلاء الحكام الذين سلموا بقوة إسرائيل وصلابتها، ولكن الأسد واجه رفضاً عربياً غير معلن، خاصة أن خصومه البعثيين فى العراق كانوا يعارضون أى خطوة يتبناها، كما كان الملك حسين يدير أموره لتسوية خلافه مع إسرائيل وآل سعود مترددين.. وهكذا وقفت سوريا عارية أمام إسرائيل، لا يساندها سوى لبنان الضعيف وجماعات الفدائيين الفلسطينيين اليائسين.

وفى أواخر عام ١٩٧٥ سقطت آخر حصون سوريا، حيث تعرض لبنان لحرب أهلية طاحنة بين جميع القوى السياسية التى تعيش بداخله.

وفى أوائل عام ١٩٧٦ دخل الأسد الحرب مع المارونيين موجها لطمة عنيفة للعالم العربى والإسلامى، حيث إن المارونيين ينتمون للديانة المسيحية.. وقد علل الأسد ذلك بأنه خشى أن يتحالف المارونيون المسيحيون مع القوات الإسرائيلية. ورغم الرفض العربى لدخول الأسد بقواته إلى لبنان خوفاً من إعادة بناء سوريا الكبرى، إلا أنه وجد قبولاً فيما بعد حين ظل على الساحة بمفرده أمام إسرائيل، وبخاصة بعد أن أعلن السادات عزمه على القيام بزيارة إسرائيل. وحاول الأسد قدر جهده إيجاد تماسك عربى بعد خروج مصر من حلبة المواجهة مع إسرائيل كما قام بمحاولة رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط هدفها حماية أمن سوريا.

وعقب خطاب السادات فى الكنيست الإسرائيلى دعا حافظ الأسد العراق وليبيا والجزائر واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لتشكيل جبهة الصمود والتصدى لمهاجمة مصر التى أعلنت عن قيام سلام بينها وبين إسرائيل، وحاول الأسد بدعم روسى إحياء الدولة الأموية لعرقلة خطوات السادات نحو السلام، إلا أن السادات كان لا يعير لخطوات الأسد أى وزن، مما أدى إلى عجز الأسد عن عرقلة السادات.

وحين وقع السادات اتفاقية كامب ديفيد اتحد الخصمان اللدودان الأسد وصدام حسين، وقاما بتوقيع اتفاق مشترك للتعاون العسكرى والاقتصادى وإنهاء الخلافات الحزبية بينهما، إلا أن إقدام صدام حسين على غزو إيران أدى إلى وفاة الاتفاق المبرم بينهما، حيث إن الأسد كان يخشى من انتصار العراق على إيران لأن ذلك سيؤدى إلى توحش صدام فيما بعد ضد سوريا.

وراح الأسد يجاهر بولائه ومساندته لإيران من خلال دعمها بشحنات أسلحة حديثة ومتطورة، مما أدى إلى تنديد وسخط الشعوب العربية ضد حافظ الأسد الذى تغنى طويلاً بالوحدة والقومية العربية.

وحين دعا الملك حسين لقمة عربية فى نوفمبر ١٩٨٠ من أجل الحصول على تأييد القادة العرب للتحدث باسم الفلسطينيين مع إسرائيل، قاطع الأسد القمة وقام بحشد قواته على حدود الأردن، ثم أمر بسحبها أمام الضغوط العربية التى استنكرت هذه الخطوة. وحين اقترح الملك فهد عام ١٩٨١ خطة لاعتراف العرب بإسرائيل وحقها فى الوجود نظير إعادة الأراضى المحتلة، رفض الأسد هذا الإقتراح ونجح فى إفشاله، وبالتالى مضى الأسد وحيداً فى طريق وعر وشاق ومحفوف بالمخاطر.

وحين اجتاحت القوات الإسرائيلية بقيادة إسحاق شارون العاصمة اللبنانية بيروت، أمر الأسد بسحب قواته إلى سهل البقاع، ولم يحرك ساكناً أمام الغزو الإسرائيلى الشامل الذى فرض حصاراً حديدياً حول قوات منظمة التحرير الفلسطينية، وغاية ما فعله الأسد أنه أرسل برقية إلى المحاصرين فى بيروت تدعوهم للصمود والفوز بالشهادة أو النصر. وقد هاجمه عرفات قائلاً: (إن الأسد أنقذ المارونيين المسيحيين وتخلى عن الفلسطينيين الفدائيين.. ثم شن صدام حسين هجوماً عنيفاً على الأسد صب فيه جام غضبه عليه متهماً إياه بالخيانة وتصفية القضية الفلسطينية على نحو أو آخر.

وأمام هذا العداء العربى لجأ حافظ الأسد إلى رموز المقاومة الفلسطينية واستقبلهم فى دمشق وأكرم ضيافتهم لإرهاب القادة العرب، وحين وقعت لبنان اتفاقاً مع إسرائيل أرسل بعض الخلايا الفدائية للتفجير والقتل وإشاعة الفوضى وتجميد الاتفاق المبرم بين إسرائيل ولبنان، وتجلى هذا الأمر حين قامت إحدى القوى باغتيال الرئيس بشير الجميل، مما أدى إلى عرقلة الاتفاق الإسرائيلى اللبنانى.

وعلى صعيد آخر بارك الأسد الجماعات الإسلامية التى كانت تشن غارات انتقامية ضد الوجود الأمريكى فى بيروت، والتى تسببت فى وقوع مئات القتلى بين صفوف الجنود الأمريكيين حتى أجبرت أمريكا على سحب قواتها عام ١٩٨٤، وهكذا نجح الأسد فى فرض نفوذه على بلاد المشرق العربى من خلال استخدامه للجماعات الراديكالية.

الصدام الفلسطينى السورى

كانت أهم مخططات الأسد هى إخضاع الفلسطينيين تحت مظلته، حيث كان يرى أن القضية الفلسطينية أكبر من قضية أرض مسلوبة أو شعب يبحث عن دولته وحق تقرير مصيره ومستقبله، حيث كان الأسد يرى أن الشكل الذى ستتم على ضوئه المفاوضات هو الذى سيحدد مصير الشرق كله، وهل سيكون ذلك لصالح إسرائيل التى تسعى لفرض سيطرتها أم لصالح سوريا التى تحلم بعودة الخلافة الأموية، ولهذا كان حريصاً على إفشال أية اتفاقية بين إسرائيل وفلسطين والأردن.

وحين أعلن ريجان مبادرته الشهيرة عام ١٩٨٢ كان ياسر عرفات على وشك منح الملك حسين توكيلاً عاماً بالتفاوض مع إسرائيل باسم الفلسطينيين وهو ما دفع الرئيس السورى حافظ الأسد إلى الهجوم على ياسر عرفات، مهدداً باغتياله وخلعه والقضاء على جناحه فى منظمة التحرير الفلسطينية.

وفى ديسمبر ١٩٨٣ أكدت المملكة الأردنية أنها بصدد الانتهاء من تشكيل وفد فلسطينى أردنى للتباحث مع إسرائيل، وهو ما دعا الرئيس الأسد إلى التنديد بسياسة الملك حسين، وبلغ به الأمر أن دعم أعداء حسين داخل الأردن من الذين كانوا يرفعون شعار الحركة الوطنية الأردنية وقام الأسد الثائر الهائج بشن سلسلة من الهجمات الإرهابية ضد مصالح الملك حسين خارج الأردن، ففى شهر أكتوبر ١٩٨٣ أطلقت النيران على دبلوماسيين أردنيين فى أثينا، وقد تمكن خبراء كشف المفرقعات من إبطال مفعول ثلاث قنابل أخرى كانت على وشك الانفجار.

وفى ديسمبر ١٩٨٣ لقى مسئول أردنى حتفه برصاص أحد الموالين لحافظ الأسد، ورغم هذا فقد مضى الملك حسين فى طريقه نحو إقامة مفاوضات سلام مع إسرائيل، كما أن تصرفات الأسد نحو الأردن أدت إلى إشاعة حالة من التذمر بين قادة العالم العربى، حيث وجه الملك فهد خطاباً عاماً إلى العالم الإسلامى فى مطلع شهر رمضان دعا فيه الجميع إلى التحلى بفضائل الصيام، وقد أدرك الأسد أن رسالة فهد تنطوى على تلميحات خاصة بالشأن السورى، مما أثار حفظية الأسد العنيد.

وفى شهر نوفمبر نجا القائم بالأعمال الأردنى فى أثينا من الموت بعد أن تعطل مسدس قناص كان يتربص به. وفى أبريل ١٩٨٥ وعقب الاستعداد والإعلان عن بدء مفاوضات مشتركة بين الأردن وفلسطين مع إسرائيل، انهالت الرصاصات على مقر السفارة الأردنية فى روما وعلى إحدى الطائرات المرابطة فى مطار أثينا، ثم أطلق مسلحون مجهولون النار على مكتب شركة عاليا بمدريد ـ وهى شركة الخطوط الجوية الأردنية الوطنية ـ ثم قتلوا أيضاً السكرتير الأردنى للسفارة الأردنية فى أنقرة.

وفى خريف عام ١٩٨٥ كان الملك حسين قد أصابه اليأس حين فشل شيمون بيريز فى تحقيق الفوز فى انتخابات الرئاسة الإسرائيلية التى فاز بها منافسه إسحاق شامير أحد الصقور المتشددين فى إسرائيل. وأمام الضربات الإرهابية التى قام بدعمها حافظ أعلن الملك حسين رفضه القيام بأى مباحثات مع الجانب الإسرائيلى، معترفاً بهزيمته الساحقة أمام الإرهاب السورى.

بعد أن نجح الأسد فى تحقيق أهدافه المتعلقة بمنع وعرقلة أية تسوية مع إسرائيل وجيرانها العرب، راح يلتفت إلى الداخل السورى لتحقيق الاستقرار فى المشرق العربى والعودة بسوريا إلى مكانتها السابقة كدولة لها احترامها وتقديرها، وكانت أولى قراراته فى ذلك هى طرد أبو نضال من سوريا.

وبدأ حافظ الأسد سياسة جديدة أدهشت العالم وأذهلته، خاصة فيما يتعلق بعودة علاقته مع مصر وتنسيق التفاهم المشترك مع الرئيس المصرى، كما بدأ فى مغازلة آل سعود. وكانت أبرز مظاهر تحول الرئيس السورى تأييده المطلق للمملكة العربية السعودية فى استدعاء القوات الأمريكية لحمايتها من الرئيس العراقى المتهور صدام حسين، وإرساله قوات عسكرية للمشاركة فى طرد الجيش العراقى من الكويت. وكانت المفاجأة التى أدهشت جميع المراقبين هى قيامه بإعلان مشاركة سوريا فى التفاوض مع إسرائيل بالعاصمة الأسبانية مدريد تحت إشراف أمريكى روسى، إلا إن الانفراد الفلسطينى الأردنى بالتفاوض مع إسرائيل سراً ـ وخاصة ما تمخض عن ذلك من اتفاقية أوسلو (غزة أريحا أولاً) واتفاقية وادى عربة بين الأردنيين واليهود ـ أعاد الأمر

بينهما إلى المربع رقم واحد، لتبدأ **الخلافات التى أدارها** حافظ الأسد هذه المرة بالتصريحات الإعلامية والمقاطعة، **بدلاً من اللجوء للقوة والعنف** والإرهاب كما كان يفعل فى السنوات السابقة، وهو ما **يعزز القول بأن الأسد أدرك** مؤخراً أن سياسة الإرهاب التى اتبعها أدت إلى **تشويه صورة سوريا ومحاصرتها** وتصنيفها ضمن البلاد المارقة الداعمة للإرهاب وهو ما دفع الأسد **مؤخراً لتغيير أسلوب** سياسته إزاء قادة المنطقة لإعادة سوريا إلى دورها ومكانها **الطبيعى بين كافة الدول** المحيطة بها.



الفصل السادس

«ياسر عرفات.. بين الولاء والخيانة»



ياسر عرفات.. مانديلا العرب

على مدار خمسة وعشرين عاماً وأكثر ظل ياسر عرفات تجسيداً ورمزاً للمقاومة الوطنية الفلسطينية المشروعة ضد الاحتلال الإسرائيلى، وقد تمتع أبو عمار بالدهاء والذكاء والمناورة والتكتيك طوال تاريخه السياسى والفدائى، ونجح فى توحيد كافة الفصائل والجماعات الفلسطينية تحت قيادته، فصار هو القائد والرمز والأخ الأكبر والزعيم.

وبعد سقوط فلسطين عام ١٩٤٨ تدفقت جماعات اللاجئين على كافة أرجاء العالم وخاصة العالم العربى، ولجأ الذين رغبوا فى استكمال تعليمهم بهدف حماية مستقبلهم إلى القاهرة على وجه الخصوص، بالإضافة إلى الأسكندرية والأقصر. وكان ياسر عرفات اللاجئ الثائر قد توجه إلى القاهرة وتلقى علومه بها حتى نال شهادة بكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة.

ولد ياسر عرفات ـ أو محمد عبد الرؤف عرفات ـ يوم ٢٤ أغسطس ١٩٢٩، وتضاربت الروايات حول مسقط رأسه، فالبعض أكد أنه من مواليد القاهرة، بينما يقسم البعض الآخر بأنه من مواليد القدس، ولأن أبو عمار صارت قضيته التى يحملها على كاهله أكبر من سرد حياته الشخصية، فقد ترك هذا التساؤل غامضاً ولم يسع لتحديد مكان ميلاده الحقيقى، ربما لأنه يعشق مصر وأراد أن ينتسب إليها بالمولد، وإن كانت فلسطين تتجسد فى قلبه وعقله ومشاعره وعواطفه، بل وأصبحت هى عمره وحياته ولا يستطيع العيش بدونها.

وعرفات ينتسب عن طريق والدته إلى عائلة الحسينى، وقد كان مبهوراً بالبطل عبد القادر الحسينى بطل ثورة ١٩٢٦ الشهيرة. وحين انفجرت شرارة الحرب بين العرب والصهاينة قام الشاب ياسر عرفات بالانضمام إلى الخلايا السرية، وبرع فى تهريب الأسلحة التى كان يحتاج إليها الفلسطينيون لمواجهة الصهاينة اليهود.

وحين توفى البطل الفلسطينى عبد القادر الحسينى انهارت صفوف وخلايا المقاومة، وهرب ياسر عرفات إلى غزة ثم إلى القاهرة للالتحاق بكلية الهندسة، وكان الطلبة الفلسطينيون الذى تعرف عليهم ياسر عرفات أعضاء فى تيارات سياسية سائدة فى ذلك الوقت، فمثلاً كان هناك التيارات الشيوعية، والأصولية الإسلامية التى تمثلها جماعة الإخوان المسلمين وجماعة مصر الفتاة، إلى جانب دعاة الماركسية والقومية العربية، ومن ثم انضم هؤلاء الشباب اللاجئون إلى كافة هذه التيارات المختلفة.

وفى عام ١٩٥٢ طرح أبو عمار فكرة بسيطة للغاية على الأعضاء المنتمين إلى التيارات السياسية المعقدة أثناء خوضه انتخابات اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة الفلسطينيين، وخلاصة فكرة عرفات هى أن الفلسطينيين لهم هوية خاصة ومستقلة ومتميزة عن هويتهم كعرب، وكانت هذه هى الشرارة التى أشعلت ثورة فى الفكر الفلسطينى الذى بدأ يسير فى طريق ترسيخ تلك الفكرة فى أذهان وعقول ووجدان الجميع.

ونتعرض هنا إلى أشكال العلاقة بين حركة فتح ـ بقيادة ياسر عرفات ـ وجمال عبد الناصر، وما ترتب عليها من مزايا كان من أهمها ترسيخ شرعية حركة فتح والإقرار بأحقية ياسر عرفات كمتحدث باسم الشعب الفلسطينى، وإن كانت العلاقة بين ناصر وفتح لم تكن بطبيعة الحال طيبة على الدوام فكثيراً ما شهدت حالات جفاء وقطيعة لأسباب تتعلق بأمن مصر واستراتيجيتها، أو لأسباب أخرى تتعلق بالقضية الفلسطينية:

كانت العلاقات بين ناصر وفتح بزعامة عرفات ـ متشابكة ـ فى نسيج من المصالح المتوافقة والمتصارعة. والواقع أن كليهما كان يحتاج للأمن، وهو ما أدى إلى توخى الحذر فى العلاقة بينهما، حيث كانت القضية الفلسطينية هى الباب الملكى

لعبور ناصر إلى قلب كل عربى من خلال خطاباته النارية والحماسية التى ملكت قلوب الشعب الفلسطينى، على الرغم من أن الفلسطينيين كانوا يعارضون سياسته، نظراً لرفضه استقبال فدائيين ينطلقون من مصر.

وتحت ضغوط من البعض وافق ناصر على فتح سيناء للفدائيين الفلسطينيين للانطلاق فى أعمال فدائية ضد اليهود، واستمر هذا الأمر حتى وقوع العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، فثار جمال عبد الناصر ورفض وجود أى خلايا فدائية فلسطينية فى سيناء وقام بوقف أنشطة فتح، التى أدركت موقف ناصر الجديد وحرصه على عدم إزعاج إسرائيل من حدود بلاده حرصاً على عدم الدخول فى مشكلات لا يستطيع الصمود أمامها، خاصة أن دعوته للقومية العربية كانت هى شاغله الشاغل وهمه الوحيد، وقد خشى من الدخول فى مواجهة مع إسرائيل تعرقل جهوده لتحقيقها.

نشأة حركة فتح...

كانت منظمة فتح تبدو مثلها مثل جميع المنظمات الفلسطينية الموجودة فى المنفى والشتات، وكانت أسلحة هذه المنظمات والجماعات هى الكلمة أو الخطابة التى تدعو العرب لحمل السلاح لتحرير فلسطين، إلا أن فتح كانت تملك خطاباً إعلامياً يختلف عن كل هذه المنظمات، حيث دعت فتح الفلسطينيين إلى العودة لإنهم أحق وأولى بتحرير بلادهم، كما أنهم إذا فعلوا ذلك فسيتبعهم العرب. وصاغت فتح نشيداً قومياً يقول: (سلمت فتح للفلسطينيين مستقبلهم.. أنا عربى عنوانى فلسطين).

وفى عام ١٩٥٩ أصدرت منظمة فتح العدد الأول من مجلة (فلسطيننا) التى بلغ عدد صفحاتها حوالى ٣٠ صفحة اكتظت بالمواد الدعائية، وقد تميزت المجلة بمهاجمة جميع الأنظمة العربية التى تتقاعس عن مساندة الشعب الفلسطينى فى نضاله المستمر ضد الإسرائيليين فى فلسطين. وعلى الرغم من تواضع المجلة وضعف مواردها وامكاناتها إلا أنها انتشرت بين صفوف اللاجئين فى الشتات، وحين وضع مسئولو المجلة رقم صندوق بريد خاص بفتح فى دولة الكويت انهالت عليها الخطابات والبرقيات من كل جانب تعبر عن تقديرها للمجلة وأهدافها الوطنية المنشودة وأصبحت

المجلة هى الجسر الذى عبرت به فتح إلى قلب كل فلسطينى يتطلع للعودة إلى بلاده.

وحين أقبل عام ١٩٦٤ أدركت منظمة فتح أن تغيراً شاملاً لابد أن يطرأ على كافة هياكلها التنظيمية العلنية والسرية لمواجهة العدو الذى يتميز بالتطورات المتواكبة مع متطلبات كل مرحلة. ولهذا تنبهت فتح إلى أنها بعيدة جداً عن أراضيها المحتلة وأنها لابد أن تلتحم مع أبناء فلسطين اللاجئين الذين يعيشون عراة حفاة فى المخيمات المنتشرة فى كافة أنحاء العالم العربى وذلك فى محاولة لتجنيد شباب اللاجئين وضمهم فى صفوفها، ولكنها كانت تلاحظ أن هؤلاء الشباب قد فقدوا الأمل واحتواهم اليأس فى عقولهم ومشاعرهم وعواطفهم.

لم يكن هؤلاء الشباب على استعداد للكفاح أو النضال فقد تخدروا بخطب جمال عبد الناصر الذى أكد مراراً أنه لن يتخلى عن كرامة الشعب الفلسطينى التى هى من كرامة العرب وانتظر هؤلاء عودة الكرامة والأرض على يد جمال عبد الناصر ولكنها لم تعد بل على العكس فقد تسبب فى ضياع أجزاء أخرى من بلادهم ولكن فتح قد تمكنت من إعادة التفاؤل والأمل إلى هؤلاء الضائعين الذين وجدوا فى عرفات وفتح خلاصهم وطوق النجاة من هذا العذاب والمرار الذى يتجرعونه كل يوم من خلال أنظمة الحكم العربية التى تفرض عليهم سياستها التى تطيب لها. وتملى عليهم إرادتها دون أدنى معارضة.

وراقب جمال عبد الناصر تطورات ظهور وصعود فتح والحقيقة أن الفدائيين الذين كانوا يشنون هجوماً يومياً على إسرائيل قد سبقوا فتح فى بطولاتهم بنحو عشر سنوات ولكن عبد الناصر كان يتابع فتح التى لم تكن تنتظر منه دعماً مادياً كما لم تكن تريد أن يفرض عليها نفوذه كما فى المنظمات الأخرى وحين تأكد جمال عبد الناصر من جدية منظمة فتح فى العمل النضالى والفدائى المشروع ضد إسرائيل قام بعقد قمة عربية لضمها فى إتحاد يضم كافة المنظمات الفلسطينية المناوئة لليهود باسم منظمة التحرير الفلسطينية وقد توافد على القاهرة أكثر من ١٣ رئيساً وأميراً من كافة الدول العربية الذين وافقوا على مطالب جمال عبد الناصر... أما جمال عبد الناصر فقد

كان يهدف من وراء ذلك إلى تجميد فتح وتقييد حركتها حيث كانت تدور فى فلك شيوخ البترول الكويتيين الذين كانوا ينفقون عليها ويفتحون لها أبواب الكويت على مصراعيها بعكس جمال عبد الناصر.

وتولت منظمة التحرير الفلسطينية إدارة الصراع الفلسطينى الإسرائيلى ووقفت فتح عاجزة فى ظل نفوذ وسيطرة جمال عبد الناصر وانضمام أنصارها إلى جيش التحرير الفلسطينى وتدفقت المعونات والمنح على منظمة التحرير بدلاً من فتح التى كانت تحظى بهذا الدعم من قبل وراحت قيادة فتح تبحث لها عن مخرج من هذا المأزق الذى وضعها فيه جمال عبد الناصر وبدا أمامها خياران: الأول أن تبدأ حرب عصابات بمفردها بعيداً عن المنظمة أو تتآكل وتفقد باقى أفرادها الفدائيين.

وفى السطور القادمة نتحدث عن دور فتح فى النضال ضد الصهاينة من خلال شن غارات يومية على العدو الإسرائيلى ولكن مع استمرار تلك الهجمات أدركت فتح وباقى المنظمات أن تحرير فلسطين يحتاج لجيش منظم لا إلى جماعات مشتتة وقد كان هذا مطلباً مستحيلاً بالطبع، ومن ثم عادت فتح لممارسات الأعمال الانتقامية حتى توحشت وبرزت صورتها وتجلى دورها رغم معارضة معظم القادة العرب لوجودها.

عاشت فتح من خلال استغلال التأييد الذى يتمتع به فدائيوها عند الجماهير العربية، معتمدة على الأنظمة العربية للحصول على أموال وأسلحة وأراض لشن غاراتها على إسرائيل، وإن كانت فتح تدرك تماماً أن اختلاف الهموم والقضايا والأيديولوجيات لدى القادة العرب قد يعرقل جهودها ودعمها إلا أن قادة فتح كانوا يشعرون بأن القضية الفلسطينية وتر حساس، وأن اللعب عليه يدفع هؤلاء القادة للدعم والمساندة دون تردد خوفاً من الجماهير العربية المؤيدة والمناصرة والمتعاطفة مع فتح.

وبحلول عام ١٩٦٧ تنبهت منظمة فتح وباقى الجماعات الفدائية الأخرى إلى أن تحرير بلادهم المحتلة لن يتم إلا من خلال جيوش عربية تقليدية مدفوعة بشرعية سياسية، وخاصة مصر.. هكذا كان يحلم الفلسطينيون ولكن حين وقعت الحرب فقد الفلسطينيون باقى أراضيهم وتشرد أكثر من مائة ألف فلسطينى طردتهم إسرائيل.

وأمام الهزيمة التى منى بها العرب فى يونيو ١٩٦٧ أدركت فتح وباقى المنظمات الفلسطينية أن الجيوش التقليدية ليست هى الحل كما كانوا يعتقدون، وإنما تنظيم صفوف المقاومة الفلسطينية وفتح الحدود بين الدول العربية وإسرائيل وتلقى المزيد من الدعم هو الأمل والخلاص من هذا المأزق. وعادت العمليات الفدائية من جديد ـ سواء من الحدود الأردنية أو اللبنانية ـ التى أوجعت اليهود وظهر الفدائى كرمز للكرامة العربية بعد أن تلاشت صورة جمال عبد الناصر الذى كان تجسيداً حياً للبطل الثورى العربى وانزوى واختفى. وبدأت فتح مرحلة جديدة من مراحل النضال الثورى والفدائى حيث انضم إليها المزيد من الشباب الفلسطينى وبعض الشباب، العرب وكان على رأسهم أميران ينتسبان لأسرة الصباح بالكويت.

وتدفقت أموال الدعم على فتح التى استطاعت السيطرة على ٧٠٪ من المنظمات الفلسطينية التى تضم فى صفوفها الفدائيين الذين وهبوا حياتهم فداء لوطنهم وتمكنت فتح أيضاً بنفوذها وقوتها من فرض رؤيتها على القادة العرب الذين وجدوا فى حركة فتح بديلاً لهم للعمل الثورى والفدائى ضد إسرائيل بعد أن فقدت بلادهم العديد من الأراضى وأصبحوا منهمكين فى تحريرها قبل تحرير فلسطين.

وبعد أن أصبحت لفتح مكانة أدركها القادة العرب وافق الملك حسين على استقبال قادة فتح وفدائيوها فى عمان وبدعم من جمال عبد الناصر قامت فتح بدعم جميع المنظمات الأخرى للعمل تحت لوائها.

وفى عام ١٩٧٤ أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى، ولكن فتح لم تتمكن من فرض سيطرتها على جميع المنظمات حيث تمردت حركة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لاعتمادها الفلسفة الماركسية ودعوة جمال عبد الناصر للقومية العربية، ولجأت إلى القيام بأعمال ثورية ضد الحكام العرب حتى يتحركوا لمساندة فلسطين.

وزادت هوة الخلاف بين فتح وحركة جورج حبش وأحمد جبريل المنشقين حول مفهوم الوطنية والقومية العربية وتحرير فلسطين كما اختلفوا حول الصهيونية التى اعتبرتها

جبهة التحرير ظاهرة عالمية تقود إلى اعتبار رأى جبهة تؤيد إسرائيل هدفاً للعمل الفدائى، بينما كان عرفات وفتح يريان أن العمل الفدائى يجب أن يكون ضد إسرائيل وأن الصدام مع العالم لا يخدم القضية الفلسطينية.

قبل وفاة جمال عبد الناصر وقعت أحداث أيلول الأسود التى قام بها الملك حسين وأباد خلالها آلالاف من الفدائيين فى عمان بعد صراع طويل بينهما، وهى المذبحة التى أنهكت منظمة فتح، وعلق عليها أبو عمار قائلاً ذات مرة: (نعم تجرعنا مرارة الهزيمة المنكرة فى عمان، ولكن المعركة لم تكن أردنية مائة فى المائة بل كانت مؤامرة عربية ضدنا).. وهكذا خرجت منظمة التحرير من عمان إلى بيروت تحمل معها جراحها التى تنزف دماء ودموعا، وحطت فتح رحالها بجوار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا، وعاشت المنظمة أزهى وأجمل عصورها فى بيروت وتدفقت عليها المساعدات من السعودية والكويت وباقى البلدان الخليجية، كما تدفقت عليها من أبنائها المغتربين فى بلاد المهجر.

وتولى عرفات مسئولية الانفاق على أسر الشهداء من الأرامل والأيتام من خلال مرتبات شهرية، وقام الهلال الأحمر الفلسطينى بتأسيس عيادات لاستقبال المرضى والجرحى من المخيمات الفلسطينية.. كما تولت فتح عام ١٩٨٢ تأسيس مصانع صغيرة لإنتاج الملابس والأحذية والحقائب وغيرها، وقد بلغت أرباح هذه المشروعات أكثر من أربعين مليون دولار سنوياً. وعاشت فتح فترة هدوء بعد أن تحولت حركة التحرير الشعبية من النضال ضد الزعماء العرب إلى النضال ضد إسرائيل.

وبعد حرب ١٩٧٣ اعترفت جميع الدول العربية التى اجتمعت فى الرياض بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى للفلسطينيين وذهب بعدها عرفات إلى مبنى الأمم المتحدة وألقى خطبته الشهيرة التى صاح فيها قائلاً: (جئت إليكم حاملاً غصن الزيتون وسلاح المقاتل، فلا تدعوا غصن الزيتون يقع من يدى).

وقد أصدرت الأمم المتحدة قراراً يعترف بأن الشعب الفلسطينى طرف أساسى فى إقامة سلام عادل وشامل ودائم فى منطقة الشرق الأوسط.

وهكذا نجحت منظمة التحرير الفلسطينية فى خلق كيان جديد لها وكأنها دولة لا تعيش على المنح والمعونات، بل أصبحت تلعب دوراً سياسياً فى حلبة الصراع العربى الإسرائيلى بعد أن كانت لا تلفت انتباه أحد فى الماضى.

وفى عام ١٩٧٥ تفجرت الخلافات الفلسطينية اللبنانية التى أعقبت تدخل الرئيس السورى حافظ الأسد المعروف بكراهيته لفتح وياسر عرفات، الذى اعتقله حافظ الأسد عام ١٩٦٦ حين كان يتولى وزارة الدفاع السورية.. وظل أبو عمار مع بعض زملائه رهين الاعتقال فى سجن المزة السورى بأمر الأسد، الذى أراد التخلص من فتح والقضاء عليها، إلى أن بدأت المفاوضات بين فاروق قدومى ممثل فتح فى الكويت وحافظ الأسد، والذى وافق على إطلاق سراح عرفات بعد أن أمضى حوالى ٥٢ يوماً داخل السجن. وعلى الرغم من ذلك فقد كان الأسد يستقبل قادة فتح حال وقوع خلاف بين فتح والقادة العرب ـ وخاصة مصر ـ وذلك لإثارة حفيظة جمال عبد الناصر الذى كانت كراهيته شديدة للبعث العربى.

وربما يعود الفضل لحافظ الأسد فى تأسيس فرقة الصاعقة التابعة لحركة فتح والتى شنت غارات عديدة على إسرائيل، إلا أن حافظ الأسد كان رافضاً أن تقوم فتح بعمليات فدائية انطلاقاً من سوريا، فضلاً عن حرصه الشديد على مراقبة الأنظمة واللاجئين ورصد تحركاتهم داخل دمشق وضواحيها. وهكذا تمكن حافظ الأسد من فرض قبضته ونفوذه وسيطرته وإرادته على القرار الفلسطينى الذى كانت تتولى إصداره حركة فتح، والتى ضاقت ذرعاً بهذا الأسلوب.

عرفات ومبادرة السلام

كانت المنظمة تعانى وتشكو تدخل حافظ الأسد فى شئونها وكذلك ابتعاد مصر عن حلبة الصراع مع إسرائيل بعد أن أعلن الرئيس المصرى أنور السادات استعداده للسفر إلى تل أبيب لإجراء مفاوضات تقضى بمعاهدة سلام حتى تعود جميع الأراضى المحتلة.. ولأن ياسر عرفات كان جالساً أثناء خطبة السادات فى البرلمان المصرى، فقد هرع عرفات وغادر القاعة مسرعاً حتى لا يعتقد أحد أنه وافق السادات على قراره المفاجئ.

وهكذا انضم عرفات إلى جبهة الصمود والتصدى لمقاومة قرار السادات واتجه إلى إشعال الحرب ضد إسرائيل من جبهة جنوب لبنان بواسطة القذائف الصاروخية التى أمطرت المستوطنات الإسرائيلية. وبعد مرور حوالى أربعة أعوام من الحرب الأهلية عانت لبنان من حالة الفوضى، حيث لم تكن هناك حكومة تعيد الأمور لأوضاعها الطبيعية... وحتى الجيش السورى الذى أرسله حافظ وبلغ نحو عشرين ألف جندى فشل هو الآخر فى تنظيم الحياة واستقرارها فى بيروت، الأمر الذى أدى إلى تدخل إسرائيل..

قامت قوات جيش إسرائيل باجتياح العاصمة بيروت وسط صمت عربى غير متوقع فى يونيو ١٩٨٢ ، وفرضت حصاراً بحرياً وبرياً وجوياً على عرفات ورجال منظمته، ومع الضغوط الدولية على إسرائيل ورحلات فليبب حبيب المكوكية بين بيروت وتل أبيب وواشنطن وافق الجميع على حماية حياة ياسر عرفات وزملائه من قيادات فتح، على أن يخرجوا على متن سفن تتجه بهم إلى تونس نظير عدم الاعتداء عليهم.

وهكذا غادر ياسر عرفات بيروت بعد ١٢ عاماً من العمل الفدائى ضد إسرائيل، وحين حاول عرفات العودة مرة أخرى إلى جنوب لبنان لبناء قاعدة تثير إزعاج إسرائيل رفض حافظ الأسد العدو اللدود له، والذى كان قد أحكم قبضته على ربوع لبنان وفرض سيطرته على كافة القوى السياسية بها.. وربما أدى ذلك إلى جهر ياسر عرفات بعدائه الشديد لحافظ الأسد، الذى تمكن من تأليب بعض المنظمات وإثارة تمردها على عرفات للتخلص منه.

كان الصراع دائراً فى لبنان بين الفلسطينيين الذين انقسموا على أنفسهم بين مؤيد للأسد ومؤيد لياسر عرفات، وحين حاول الأسد استبدال حركة فتح بغيرها من الحركات الراديكالية الأخرى كمنظمات تعبر عن الشعب الفلسطينى، هاج أبو عمار وأعلن فى مدينة طرابلس الواقعة شمال لبنان أمام جمع غفير من مراسلى وكالات الأنباء العالمية أن الذين يفكرون فى إنهاء دور حركة فتح واهمون، لأنها تأسست بإرادة الشعب الفلسطينى ودمائه وعطائه ولن تستطيع أية دولة أن تتدخل فى شئون المقاومة

الفلسطينية أو إنهاء حركة فتح.

وبعد هذا التصريح قام حافظ الأسد بدعم حركة أمل الشعبية التى كان يتزعمها نبيه برى، والتى قامت بحصار عرفات بمساعدة القوات السورية حتى كادت أن تقتله، ولكن عرفات نجح فى تأليب الأمور ضد حافظ الأسد خلال خطبته النارية فى شوارع مدينة طرابلس اللبنانية.

وفى ٢٢ ديسمبر عام ١٩٨٢ شنت قوات الأسد هجوماً على مقر عرفات بمدينة طرابلس وحاصرته براً وبحراً لطرده أو قتله، واستغاث عرفات فى مخبئه وتدخلت عدة دول لإنقاذه، وقد خرج للمرة الثانية من لبنان على متن سفينة توجهت به إلى القاهرة.

ونأتى هنا إلى مرحلة الثورة الفلسطينية الأخيرة التى قادها أطفال الحجارة فى داخل الأراضى المحتلة وتأثير ذلك على القرار الفلسطينى لمنظمة فتح، وتداعيات ذلك على الحركات الراديكيالية التى أذهلتها تلك الانتفاضة، خاصة بعد أن دعاها عرفات لقبول إسرائيل كدولة ذات سيادة مقابل قيام دولة فلسطينية جنباً إلى جنب معها.

فى ديسمبر ١٩٨٧ قام الأطفال الفلسطينيون برشق جنود الاحتلال الإسرائيلى بالحجارة، وكانت تلك اللحظة هى إعلان ميلاد انتفاضة الحجارة التى عمت أرجاء مدن نابلس ورام الله وخان يونس والبيرة والخليل وغزة وبلاطة، وقد أدت هذه الانتفاضة إلى الالتفات إلى ما يحدث داخل الأراضى المحتلة بدلاً من الانقسام الذى عاشت فيه القوى المناوئة لإسرائيل، والتى تصارعت فيما بينها أكثر مما تصارعت مع إسرائيل. وأدرك حافظ الأسد أن قوة جديدة قد بعثت من جديد على يد أطفال الحجارة، وأنه إذا كان الفلسطينيون يستطيعون إعلان غضبهم داخل الأراضى المحتلة إلا أنهم لا يستطيعون إلحاق هزيمة حقيقية بإسرائيل.

وهكذا بدأ عرفات فى العودة إلى الأراضى المحتلة وإجراء تسوية مع اليهود للتفاوض حول إعادة الأراضى التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

عرفات وغزو الكويت

حين قام صدام حسين باجتياح الكويت هلل ياسر عرفات واتجه بعدها بساعات إلى الفاتح صدام حسين وراح يعانقه كأنه صلاح الدين. وصدام حسين كان قد فتح بغداد لمنظمة فتح نكاية فى الرئيس السورى حافظ الأسد عدو صدام حسين.

والواقع أن عرفات حين اختار الوقوف إلى جانب صدام حسين فى تلك الأزمة كان يعبر فى الأساس عن مشاعر وعواطف شعبه الذى كان ضحية أيضاً لخطب صدام حسين التى كانت تهدد إسرائيل على طريقة جمال عبد الناصر.

وظن هؤلاء الفلسطينيون أن خلاصهم قادم على يد الناصر صدام حسين وللأسف أن عرفات نسى هو وشعبه أن الكويت كانت الدولة الوحيدة التى شهدت ميلاد فتح على أراضيها فضلاً عن دعمها المستمر لمنظماتها المختلفة وجمعياتها الأهلية. وقد أدى قرار عرفات بدعم صدام حسين لشن أعنف هجوم عليه فى الدول العربية المناهضة لغزو الكويت وحين عادت الشرعية لأمير الكويت فقد أكثر من ٣٠٠ ألف فلسطينى وظائفهم بداخلها... ومن جانبها أعلنت السعودية وقف دعمها لفلسطين كما رفضت استقبال ياسر عرفات خاصة أن السعودية والكويت كانتا من أكبر مصادر الدعم المالى للفلسطينيين وهو ما أثار حفيظة الخليجيين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قرار عرفات أدى أيضاً إلى ضياع مكانته ونفوذه وبريقه الذى كان ملء الأسماع والأبصار، بعد أن أحتل مكانة مرموقة فى أذهان الشعوب العربية حتى أنه عندما أقيم مؤتمر مدريد شاركت فيه منظمة التحرير الفلسطينية بالمشاركة مع الأردن وكان وفدها يعتمد فى الأساس على عدد غير قليل من أبناء الضفة وغزة الذين يعيشون تحت نيران الاحتلال ولكن عرفات عاد مرة أخرى واستطاع توظيف مؤتمر مدريد لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية التى تولت فيما بعد إدارة المفاوضات منفردة مع إسرائيل دون الاعتماد على الأردن أو سوريا وهو ما أدى إلى نشوب خلاف بينها وبين سوريا مرة أخرى ولكن عرفات لم يكن يبالى بمصالحة حافظ الأسد أو الارتكان عليه حيث كان يدرك حقيقة مشاعر الأسد نحوه.

وفى النهاية أود أن أقول إن ياسر عرفات هو المسئول الأول والوحيد عن بث الروح الوطنية الفلسطينية فقد تمكن من توحيد شعب تفرق شيعا وجماعات وقد أخرج له هويته المفقودة منذ القدم ونفخ فيه روح العزة والكبرياء. وطوال سنوات اتسمت بالمناورة والبطولة والدهاء من جانب عرفات وقف أمام الرئيس المصرى عبد الناصر والملك حسين وحافظ الأسد وأى زعيم عربى آخر فكر فى أن يفرض إرادته على الفلسطينيين كما أنه رفض السماح للولايات المتحدة وإسرائيل وأوروبا بأن يتعاملوا مع أبناء شعبة كلاجئين أو مجرد مواطنين عرب ولذلك جعل القضية الفلسطينية هى لهب الصراع العربى العالمى لا الإسرائيلى فقط وجعلها تشغل بال العالم كله لا منطقة الشرق الأوسط فحسب، ولذلك فإن عرفات الذى تعرض للسجن والنفى والطرد يعد فى نظر أبناء شعبه مانديلا الذى نجح فى إنهاء التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا.. فهل ينجح عرفات فى إنهاء التفرقة العنصرية التى تمارسها إسرائيل؟.

❀ ❀ ❀

٣٩٤ مليار دولار حصيلة
أموال العرب سنوياً

أين تذهب أموال المسلمين الهائلة؟ ٣٩٤ مليار ـ أموال النفط المعلن فقط

نشرت الصحف العالمية توقعات إدارة معلومات الطاقة الأمريكية بأن صافى الإيرادات النفطية لمنظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) ستبلغ ٤٣٠ مليار دولار مع نهاية هذا العام. وحيث أن بلدان العالم الإسلامى تحتل كلَّ هذه الإيرادت بنسبة تزيد عن ٩١٪ ـ كما يبين الجدول التالى ـ يعنى إن حصتهم تزيد عن ٣٩٠ مليار دولار، فأين تذهب مثل هذه الأموال كل سنة؟

الدول الأعضاء فى منظمة أوبك وأيراداتهم لعام ٢٠٠٥ بحسب إدارة معلومات الطاقة الأمريكية:

الدول الأعضاء	الايرادات	النسبة المئوية
العراق	١٩ مليار دولار	٤.٤
السعودية	١٤٦ مليار دولار	٣٤
الكويت	٣٧ مليار دولار	٨.٦
إيران	٤١ مليار دولار	٩.٥
الإمارات	٣٩ مليار دولار	٩
الجزائر	٣٠ مليار دولار	٧

الدول الأعضاء	الايرادات	النسبة المئوية
ليبيا	٢٤ مليار دولار	٥.٦
قطر	١٧ مليار دولار	٤
اندونيسيا	١٣ مليار دولار	٣
نيجيريا	٢٨ مليار دولار	٦.٥
فنزويلا	٣٦ مليار دولار	٨.٤
المجموع	٤٣٠ مليار دولار	١٠٠

إن آلاف الملايين التى بينها الجدول السابق هى جزء من إيرادات تلك الدول فى سنة واحدة، وهى عبارة عن أموال النفط المعلن فقط، وهو ملك للمسلمين وليس لحكام الضرار وزبانيتهم فى تلك الدول، وهى ليست كل الأموال فى أقطار العالم الإسلامى، بل هى جزء منها. وإن هذه الأرقام مرشحة للزيادة بحسب المصدر نفسه؛ لأن الطلب على النفط فى ازدياد مستمر مع عدم إمكانية زيادة الإنتاج بنفس النسبة.

والمدقق فى ميزانيات تلك الدول يرى أنها فى غالبها لا تزيد عن نصف الأموال التى وردت فى الجدول النفطى فقط، بل تقل عن النصف بكثير عند البعض، مع أنهم يدخلون فى هذه الميزانيات جميع النفقات فى جميع القطاعات، حتى مراسم الاستقبال والتشريف التى تنهب الكثير بلا فائدة، وحتى مصاريف الأمراء الشخصية والخيالية، وحتى جميع المشاريع التى يتشدقون ويمنّون بها على الناس أصحاب الحق، وحتى نفقات الحرب التى يشنها الكفار على بلاد المسلمين، وحتى على إقامة جنودهم وقواعدهم فى بلاد المسلمين ليحموا عروشهم، وحتى مساعداتهم للبراجواى وكمبوديا وموزمبيق، وحتى تبرعاتهم لمراكز ومؤسسات غربية ويابانية، وغيرها الكثير من

الأموال المنثورة هدراً بأيدى حكام خونة سفهاء بزوا فى خيانتهم شياطين الإنس والجن.

فمثلاً، كانت ميزانية السعودية لسنة ٢٠٠٤م، حوالى ٦٠ مليار دولار، وكان تقرير وزارة المالية السعودية أن الإيرادات النفطية حسبت على أساس ٢٠ دولارا للبرميل، وذلك بناءً على تقدير «الخبراء»، فى حين تم بيعه بما يزيد عن ضعف هذا الرقم فأين تذهب هذه الأموال الطائلة كل سنة فى تلك الدول؟ ولماذا يكذبون علينا فى ميزانياتهم؟ ولماذا يزورون الحقائق؟ أليست هذه أموال المسلمين بحقهم الشرعى فى الملكية العامة؟ ومن أين أتى هؤلاء الحكام والأمراء وزبانيتهم بملايينهم وملياراتهم؟

إن ما نراه هو عكس ما يجب أن يكون. إننا نرى فقراً مدقعاً هنا وهناك، وبنية تحتية مهترئة أو آيلة إلى الاهتراء، وبطالة احتلت المرتبة الأولى فى العالم بعلو نسبتها، وبلداناً بلا كهرباء أو ماء أو غاز فى الوقت الذى تجرى فيها الأنهار، وتتفجر منها حقول النفط والغاز!

فلو افترضنا أن نصف هذه الأموال قد استغلت لخمس سنوات، يعنى أنها قاربت تريليون دولار. فإننا نبنى بها طريقاً سريعاً من مراكش إلى جاكرتا، ومن طشقند إلى لاجوس، ومن الإسكندرية إلى نيروبى، وبشكل أفضل من الطرق العابرة للولايات فى أمريكا، إضافة إلى ألف برج كالذى دمر يوم ١١ سبتمبر فى نيويورك، إضافة إلى ألف مستشفى، وعشرة آلاف مدرسة، وعشرة مصانع للسيارات، وعشرات المصانع للصلب والألومنيوم، وعشرة مطارات، ومصنع للطائرات، وآخر للصواريخ، ومصانع للبنادق والذخيرة، وعشرة مراكز أبحاث، ما نفذ تريليون دولار.

جاء فى الفيلم الوثائقى فهرنهايت ١١ أن أمريكا قد استفادت من نفط السعودية فقط ما قيمته ٨٦ تريليون دولار. يعنى أننا لو قسمنا هذا المبلغ على جميع المسلمين فى العالم لكانت حصة كل واحد منهم، رضيعهم وشيخهم، ذكرهم وأنثاهم، حوالى ٦٦ ألف دولار. هذه الأموال تستفيد منها أمريكا على حساب الأمة الإسلامى.

إن الذى أوصلنا لتكون هذه حالنا، بدل أن نكون الدولة الأولى فى العالم، هم حكام الضرار الذين غيبوا الإسلام عن الحياة لكننا نقول إننا سرعان ما نعود إلى القمة

عندما يستجيب من بيدهم النصرة إلى نداء العاملين لإقامة الخلافة، فيطحيون بهذه العروش، ويعلنون الخلافة التى ستعيد الحقوق إلى أصحابها، وتعز المسلمين، وتذل الكفر وأهله، وتنفق على العباد والبلاد بإخلاص، وتبدل الخوف أمناً، والفقر غنَى، والضعف قوة، والله غالب على أمره.

جاء فى مسند أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال، قال رسول الله ﷺ: **«من خلفائكم خليفة يحثى المال حثياً لا يعده عداً»** صدق رسول الله.



ثورات فى انتظار الحكام العرب

صحف غربية تقول ثورات تنتظر الحكام العرب وعليهم أن يدفعوا ثمن مواقفهم.

توافقت صحف وسائل إعلام غربية على أن تداعيات العدوان الإسرائيلى على الأراضى اللبنانية، أياً كانت نتائجه، لن تقف عند حدود لبنان، وإنما سوف تمتد لتشمل منطقة الشرق الأوسط بأسرها فى ظل تناقض مواقف الشعوب العربية مع مواقف حكامها.

وأشارت إلى أن متغيرات جديدة هيأت مناخاً لنشوب ثورات فى المنطقة، مع تصاعد أصوات المعارضة التى تشعر بعجز حكوماتها فى وقت رأوا فيه مدى صمود جماعة صغيرة ولدت فى قرى وأحياء لبنان الفقيرة أمام جبروت أكبر قوة عسكرية فى الشرق الأوسط.

صحيفة «سوشيال وركر» البريطانية رأت أن «المتغيرات الحالية جعلت المناخ مواتياً أكثر من أى وقت مضى لنشوب ثورات واضطرابات داخلية بدول المنطقة، خصوصاً الدول العربية، خاصة أن الحكام العرب يمرون بأضعف حالاتهم»، على حد قولها.

وذكرت الصحيفة فى تحليل نشرته فى عددها الصادر فى ٢٠٠٦/٨/٨ أن «الأنظمة العربية تزداد ضعفاً، فى الوقت الذى يتصاعد فيه صوت الشعوب وحركات المعارضة.. والنتيجة هى أن الهوة الواسعة بين الحكام العرب وشعوبهم تنذر بتغيرات جذرية على الساحة العربية».

وأشارت الصحيفة إلى أن الجيش اللبنانى لم يتدخل فى الصراع الحالى، بينما تقود دفة المقاومة ضد إسرائيل جماعة حزب الله «تلك الجماعة التى ولدت فى قرى وأحياء لبنان الفقيرة والتى استطاعت أن تقاتل أكبر قوة عسكرية فى الشرق الأوسط. وهو ما كشف ليس فقط عن غياب الدولة اللبنانية خلال شهر من العدوان الإسرائيلى ولكن أيضاً غياب أى دور فاعل للنظام العربى الرسمى الذى وقف عاجزاً فى عيون الشعوب العربية عن اتخاذ مواقف قوية لحل الأزمة الراهنة».

وقالت الصحيفة: «ملايين الشعوب العربية تستشعر عجز أنظمتها عن مواجهة العدوان الإسرائيلى على لبنان، وخلصوا إلى نتيجة: أن الحكام العرب جزء من الأزمة السياسية فى منطقة الشرق الأوسط».

هذا الشعور جعلهم ـ بحسب الصحيفة ـ يلتفون حول مشروع المقاومة «ولا يعيروا أسماعهم إلى أى حديث عن نموذج أمريكى للديمقراطية فى المنطقة، متسائلين: كيف يمكن الإنصات إلى ديمقراطية على النمط الأمريكى؟».

وضربت الصحيفة مثالاً قائلة: «فى مصر مظاهرات يومية تدعم المقاومة اللبنانية من ناحية وتصعد معارضتها لنظام الرئيس حسنى مبارك من ناحية أخرى. فخلال الأسبوع الماضى ردد المتظاهرون هتافات عديدة أبرزها.. تحيا لبنان وفلسطين.. واليوم لبنان وغداً مصر.. ويسقط حسنى مبارك».

ورغم قمع السلطات المصرية للمظاهرات فإن المتظاهرين لم يكفوا عن تنظيمها ليس فقط فى العاصمة القاهرة وإنما فى مختلف المحافظات والمدن الكبرى كالمنصورة التى شارك ٢٠ ألفا من مواطنيها فى مسيرات حاشدة وكذلك البحيرة.

وتشير الصحيفة من جهة أخرى إلى أن «ضعف نظام مبارك الذى يعد مهما بالنسبة لإدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش لتنفيذ خططها بشأن ما تسميه «شرق أوسط جديد» ينذر بفشل مخططات واشنطن بالمنطقة العربية. فغالبية الشعب المصرى تنظر بازدراء إلى نظام مبارك نفسه».

وترى الصحيفة أن مبارك «وقططه السمينة ـ على حد تعبيرها ـ يقعون تحت

ضغط ليس فقط حركات المعارضة وإنما أصوات معارضة من داخل نظامه مثل القضاة والمحامين والصحفيين الذين تحركوا ضد فساد النظام».

وأشارت إلى أن الشعوب «بدأت تتخذ تحركات ضد الفساد السياسى والقمع، وهو ما ينذر بتغيرات سواء فى مصر أو مكان آخر، خاصة الدول الخليجية التى تحكم أنظمتها قبضتها على الحكم دون أن تسمح بأى ممارسة ديمقراطية».

وتوقعت الصحيفة تضامن حركات المقاومة وانتشارها بالمنطقة، مشيرة إلى أنه فى غضون أيام من العدوان الإسرائيلى خرجت المظاهرات التضامنية فى أقطار عربية مثل الأردن والبحرين وتونس والعراق ومصر.

وكالة «أسوشيتيد برس» بدورها رأت أن غضب الشعوب العربية المتصاعد إزاء العدوان الإسرائيلى وموقف الإدارة الأمريكية منه يواكبه إحباط شديد من جانب الحكام أنفسهم، خاصة فى «الدول المعتدلة» الحليفة لواشنطن، وهو ما دفع المتظاهرين فى مختلف الدول العربية «لتمجيد البطل الجديد الشيخ حسن نصر الله» فى الوقت الذى تتصاعد فيه مشاعر السخط والغضب تجاه حكوماتهم العاجزة.

ونقلت الوكالة عن ضياء رشوان الخبير بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بمؤسسة الأهرام قوله: «كل شعوب المنطقة اشتعلت غضباً منذ بدء الحرب الأمريكية على العراق قبل أكثر من ٣ سنوات، الإحباط كبير للغاية».

وأكدت أسوشيتيد برس أن أكثر ما يقلق القادة العرب حاليا هو «أن يدفعوا ثمن موجات العنف الحالية». وأشارت إلى أن المتظاهرين فى مصر والأردن والسعودية استنكروا بشدة مواقف قادتهم الذين ألقوا باللائمة على حزب الله فى تأجيج الصراع الحالى، ولفتت إلى أن متظاهرين بإحدى المظاهرات بالقاهرة «حملوا صورا للرئيس مبارك ورسموا على جبهته نجمة داود ولقبوه بعدو الشعب المصرى».

حالة الاحتقان السياسى على الساحة المصرية انعكست على عناوين الصحف المعارضة. فقد حملت صحيفة «صوت الأمة» على صدر صفحاتها عنوانا يقول: «النظام طعن اللبنانين وأحرق المصريين برفع أسعار البنزين.

حزب مصرى يرفع قضية
على الحكام العرب

قال حزب مصر العربى الاشتراكى المصرى إن رفض محكمة مصرية الاثنين الماضى قضية رفعها لإلزام الحكام العرب بتطبيق معاهدة الدفاع العربى المشترك هو سابقة، ولا يستند لأى سند قانونى.

وقال الحزب إن تحجج المحكمة لرفض القضية بدعوى لزوم الإعلان قبل ثلاثة أشهر من ميعاد الجلسة لا سند قانونى له، مشيراً إلى أن المحكمة هى التى حددت تاريخ الجلسة «ما يؤكد فساد ادعائها».

وعرض الحزب سندات قانونية وواقعية بما فيها ما يقره قانون المرافعات من اختصاص المحاكم المصرية بالدعاوى على غير المصريين ممن ليس لهم موطن أو محل إقامة بمصر، إذا كان للمدعى عليه موطن أو محل إقامة بمصر، إضافة لميثاق الجامعة العربية ومواثيق إقليمية أبرمها الحكام العرب تنص على التضامن والوحدة العربية، وما ينص عليه القانون الدولى من «وجوب الالتزام بالمعاهدات والمواثيق والمعاهدات العربية قد أصبحت قوانين وطنية يتحتم العمل بها داخل البلاد العربية».

ورفع الحزب قضيته لكشف ما وصفه بتخاذل الحكم العرب فى التعامل مع قضايا الأمة المصيرية، وفى تطبيق معاهدة الدفاع العربى المشترك لمساندة لبنان وفلسطين وتنفيذ كافة المعاهدات والمواثيق والقرارات الصادرة عنهم منذ تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ وحتى الآن، متسائلاً: «لقد طال المدى فإلى متى الصمت على الضعف والاستكانة وقبول المهانة.. إلى متى الاختلاف ونحن نعلم أن الوحدة هى السبيل الوحيد لاسترداد كرامتنا وحقوقنا المغتصبة».

الإغتيالات السياسية
فى الوطن العربى

ملامح من تاريخ أسود فى الشرق الأوسط

تبدو عملية اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريرى واحدة فى سياق ظاهرة الاغتيال السياسى فى الشرق الأوسط، وإن كانت من أخطرها بسبب ما كان يمثله الحريرى فى واقع لبنان والمنطقة، وما يحمله حدوثها من تداعيات حادة على لبنان والمنطقة، وهذا يجعلها واحدة من الفصول الأهم فى تاريخ الظاهرة السوداء، التى غالباً ما تم اللجوء إليها للتأثير على أشخاص أو خلق وقائع جديدة هدفها تغيير مصير بلد أو المنطقة.

لقد اقترنت هذه الظاهرة بالتغييرات فى المنطقة وبلدانها منذ بدايات القرن العشرين، واستمرت بعدها، فاشتدت أحياناً، وهدأت فى أحيان أخرى طبقاً لمسار الأحداث السياسية ومتغيراتها، وحسب تدخلات القوى المنخرطة بها من دول وجماعات سياسية وعصابات إجرامية، اختلطت ممارساتها مع تدخلات دولية وإقليمية فى بعض عمليات الاغتيال السياسى التى شهدتها بلدان المنطقة فى مراحل مختلفة من تاريخها.

وبصورة عامة، فقد توجهت عمليات الاغتيال السياسى نحو شخصيات امتلكت قدرة على الفعل والتأثير ولاسيما فى المجالين السياسى والفكرى بما يعنيه ذلك من قدرات على أحداث تبدلات فى واقع الدول والمجتمعات من جهة، أو فى ترسيخ واقع قائم، يطمح بعض الأطراف إلى تغييره وتبديله، وهو ما جعل عمليات الاغتيال السياسى، تتوزع فى هذا الجانب إلى نوعين، أولهما عمليات موجهة إلى قادة

معارضين، والثانى إلى قادة حاكمين مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية التداخل بين الحالتين فى بعض الأحيان.

إن بدايات القرن العشرين ارّخت لواحدة من أهم عمليات الاغتيال السياسى، عندما لاحق الاستبداد العثمانى قائداً ومفكراً وكاتباً معارضاً هو عبد الرحمن الكواكبى إلى منفاه فى القاهرة، حيث جرى دس السم له وقتله فى عام ١٩٠٤ من جانب عملاء عثمانيين فى اطار تصفية حساب مع رجل تنوير وحرية، حمل لواء أحداث تبدل سياسى فى علاقات العثمانيين مع العرب داعياً إلى إقامة خلافة عربية.

وتكررت عمليات اغتيال القادة فى البلدان العربية، وكان بين أبرز الذين اغتيلوا فى النصف الأول من القرن العشرين، ثلاثة هم عبد الرحمن الشهبندر داعية التحرر الوطنى والاجتماعى، وأحد قادة الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ الذى قتله متطرفون اسلاميون فى عيادته بدمشق عام ١٩٤٠، ثم انطون سعادة صاحب الدعوة العقائدية المميزة، التى هزت الفكر السياسى فى سوريا الكبرى، ووضعت المنطقة على قاعدة تغيير شامل فى عقليتها وبناها السياسى والاجتماعى، فجرى اغتياله عام ١٩٤٩ فى مسرحية اعتقال قام بها دكتاتور سوريا حسنى الزعيم، ليمثل بعدها أمام محاكمة صورية لبنانية اعدم بعدها، وكان سبقه فى شباط من العام نفسه اغتيال حسن البنا مؤسس وزعيم جماعة الإخوان المسلمين فى مصر، التى مدت ظلالها وتنظيمها إلى معظم البلدان العربية والإسلامية، حيث أطلق عليه الرصاص فى ظل تحالف الملكية المصرية والاستعماريين البريطانيين الذى كانوا يحتلون مصر حينها.

وكان بين تعبيرات النهج الثانى فى عمليات الاغتيال السياسى الذى أصاب القادة والحكام فى المنطقة، اغتيال الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن فى عام ١٩٥١ من قبل أحد معارضيه بسبب ما قيل عن دوره فى حرب فلسطين، وكذلك اغتيال ملك العراق فيصل الثانى فى عام ١٩٥٨، واغتيال رئيس جمهورية العراق عام ١٩٦٦ عبد السلام عارف فى إطار صراعات سياسية داخل النظام الحاكم، ومثله اغتيال الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود فى عام ١٩٧٥، والرئيس اليمنى إبراهيم

الحمدى ١٩٧٧، وخليفته أحمد الغشمى فى العام التالى، وكلاهما جرى اغتياله فى إطار تصفية خلافات سياسية.

وكان اغتيال الرئيس المصرى محمد أنور السادات فى عام ١٩٨١ من قبل أعضاء فى جماعة اسلامية مسلحة فى سياق اعتراض معلن على سياساته وخاصة فى موضوع الصراع العربى الإسرائيلى ودور مصر فيه، وكذلك جرى اغتيال الرئيس اللبنانى المنتخب بشير الجميل فى تفجير الأشرفية فى عام ١٩٨٢ على قاعدة الاختلاف مع نهجه السياسى فى الداخل اللبنانى وفى علاقات لبنان الخارجية ولاسيما فى علاقته بسوريا وإسرائيل، وجرى قتل الرئيس اللبنانى رينيه معوض عام ١٩٨٩ على قاعدة تناقضات فى السياسة اللبنانية وعلاقات لبنان الأقليمية والدولية.

لقد سجل القرن الماضى مئات عمليات الاغتيال السياسى فى المنطقة، وفى خلال أربعين عاماً تمتد ما بين عام ١٩٥١ تاريخ اغتيال الملك عبد الله فى الأردن وعام ١٩٩١ تاريخ اغتيال الرئيس الجزائرى محمد بوضياف، اغتيل أربعة عشر حاكماً عربياً، هى بعض من عشرات محاولات الاغتيال تمت، فيما باءت عمليات أخرى بالفشل، ومثلها العمليات التى طالت قادة من المعارضين والنشطاء السياسيين الكبار فى بلدان كثيرة ولاسيما فى لبنان وفلسطين والعراق والجزائر واليمن، التى حصدت الاغتيالات فيها خلال ما بين السبعينيات والتسعينيات عشرات من القادة بينهم ثلاثة من الرؤساء والوزراء وقادة الأحزاب السياسية، فيما حصدت الاغتيالات فى فلسطين عشرات من القادة تمت تصفيتهم من جانب القوات الإسرائيلية وبينهم مؤسس وزعيم حركة حماس الشيخ أحمد ياسين الذى اغتيل فى غزة عام ٢٠٠٣ وقبله اغتيل فى مالطا زعيم ومؤسس حركة الجهاد الإسلامى فتحى الشقاقى.

إن واقع الاغتيالات السياسية فى لبنان، ربما كان الأهم فى بلدان الشرق الأوسط بسبب الصراع الدموى الذى عاشه لبنان منذ بداية السبعينيات، ومازال مستمراً بصورة ما، وقد جعل منه مسرحاً دموياً لعمليات اغتيال أصابت لبنانيين وفلسطينيين وعربا آخرين وأجانب من جنسيات متعددة، تشاركت فى القيام بها دول وجماعات سياسية مسلحة وقتلة مأجورون، وكان بين من شملتهم عمليات الاغتيال من اللبنانيين إضافة إلى

الرئيسين بشير الجميل ورينيه معوض، كان زعيم صيدا معروف سعد الذى اغتيل عام ١٩٧٥ ، واعتبر اغتياله شرارة الحرب الأهلية، وبعده جرى اغتيال مؤسس وزعيم الحزب التقدمى الاشتراكى كمال جنبلاط ١٩٧٧ ، وطونى فرنجية نائب زغرتا ونجل الرئيس اللبنانى سليمان فرنجية عام ١٩٧٨ ، ورئيس وزراء لبنان رشيد كرامى الذى اغتيل فى حادثة تحطم طائرة عام ١٩٨٧ ، ومفتى لبنان الشيخ حسن خالد الذى اغتيل بسيارة مفخخة عام ١٩٨٩ ، ودانى شمعون رئيس حزب الأحرار ونجل الرئيس اللبنانى كميل شمعون فى ١٩٩٠ ، كما قتل الوزير السابق ايلى حبيقة فى تفجير سيارة بداية ٢٠٠٢.

وكان لبنان فى السبعينيات والثمانينيات مسرحاً لاغتيال عشرات من القادة الفلسطينيين، كان بينهم اغتيال القادة الثلاثة كمال ناصر وكمال عدوان وأبو يوسف النجار فى نيسان ١٩٧٣ ، والإعلامى الفلسطينى غسان كنفانى الذى اغتيل ببيروت عام ١٩٧٥ ، وكبير رجال الأمن الفلسطينى أبو حسن سلامة، والعميد سعد صايل قائد القوات الفلسطينية الذى اغتيل فى البقاع ١٩٨٣.

لقد تعددت وتنوعت أهداف وأشكال وأساليب عمليات الاغتيال السياسى فى لبنان، فكان بين الذين طالتهم تلك العمليات، لبنانيون وعرب غيرهم وأجانب، وكان بينهم مسؤولون حكوميون ورجال سياسة وفكر ورجال دين وقادة أحزاب سياسية وشخصيات أكاديمية وأمنية ودبلوماسيون، وتعددت أساليب الاغتيال وتنوعت أدواته من عمليات اطلاق النار إلى السيارات المفخخة، وعمليات التلغيم، كما تعدد القائمون بها ، لكنه نادراً ما تم الكشف عن القتلة الحقيقيين، وغالباً جرى تحميل إسرائيل مسؤولية عمليات الاغتيال، وإن كانت بالفعل تتحمل مسؤولية الكثير منها ، فإن من الحق القول، أن أطرافاً محلية وعربية ودولية، كانت ترتكب عمليات اغتيال فى لبنان وتتهم بها إسرائيل.

غير إنه وفى كل الأحوال، فقد كان الاغتيال السياسى فى لبنان وكل بلدان المنطقة تعبيراً عن عجز القوى التى تقوم به، وتجعله طريقاً فى تعاملها مع أشخاص أو جماعات سياسية، أو أحداث، وفى الأهم من نتائجه لم يؤد الاغتيال غالباً إلى نهايات تتوافق مع مصالح مرتكبيه، فعمليات الاغتيال التى نفذتها وتنفذها إسرائيل ضد

الفلسطينيين، لم تضع نهاية لنضالهم ضد الاحتلال الإسرائيلى، ولا استطاع النظام البائد فى العراق الحفاظ على وجوده رغم كل ما نفذه من عمليات اغتيال داخل العراق وخارجه، وها هى عمليات الاغتيال فى لبنان وآخرها اغتيال الرئيس الحريرى لم تمنع من توجه اللبنانيين إلى المستقبل بحثاً عن شروط أفضل لحياتهم، بل هى كانت حافزاً لهم فى هذا الاتجاه.

❀ ❀ ❀

اسرائيل والولايات المتحدة تحاول إرساء وضع جديد فى العلاقات اللبنانية الإسرائيلية

عزز المجتمع الدولى فى الأيام الأخيرة جهوده لتحقيق وقف إطلاق النار بين لبنان وإسرائيل فى أسرع وقت ممكن. ورداً على دعوة المجتمع الدولى، أكد القادة الإسرائيليون بوضوح أن وقف إطلاق النار لن يكون عملياً إلا إذا تم تأكيد عدم تكرار الاشتباكات، وأكدت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس ضرورة تحقيق هدنة دائمة بين لبنان وإسرائيل. وأشار المحللون إلى أن المواقف المتشددة للقادة الإسرائيليين والأمريكيين من قضية وقف إطلاق النار تدل على أنهم ينظرون نظرة أبعد الآن لفترة ما بعد الهدنة ويحاولون إرساء وضع جديد للعلاقات اللبنانية الإسرائيلية يصب لصالحهم.

ومن خلال تصريحات القيادات الإسرائيلية والأمريكية فإن المقصود بالهدنة الدائمة من وجهة نظرهم يتمثل فى: الإجهاز على حزب الله حتى لا يكون مصدر تهديد لاستقرار المنطقة، وعدم معارضة إرسال الأمم المتحدة قوات حفظ سلام إلى جنوب لبنان لكن فى هذه الحالة فإن مهمة هذه القوات تقتصر على مساعدة القوات الحكومية النبنانية فى السيطرة على منطقة جنوب لبنان، ومن وجهة النظر البعيدة فإنه يتعين على الحكومة اللبنانية تحمل كافة مسؤوليات المحافظة على أمن الحدود اللبنانية الإسرائيلية، ووضع خطوات تفصيلية فعالة وآلية لمراقبة نزع سلاح حزب الله كلية ومنع أى وسيلة تحاول إعادة تسليحه. ولأن حزب الله يمتلك صواريخ تستطيع الوصول إلى المناطق الداخلية بإسرائيل فلابد من إخراجه من جنوب لبنان وتمكين الحكومة اللبنانية من السيطرة على جميع الأراضى اللبنانية بشكل فعال.

أشار المحللون إلى أن إسرائيل والولايات المتحدة أدركتا أن العمليات العسكرية الحالية لن تستطيع القضاء على حزب الله لأنه منظمة سياسية مسلحة تتمتع بدعم

سياسى وشعبى واسع وقوى وللحزب أيضاً قوة عسكرية ودعم خارجى قوى. لذلك، فالتخطيط قوئم على أساس أنه بعد القضاء عليه عسكريا ومن أجل منعه من العودة إلى المسرح السياسى، من الضرورى إنشاء آلية سياسية ودبلوماسية طويلة المدى ليتم القضاء على تهديده العسكرى لإسرائيل وهذا يستلزم أيضاً تغيير الأوضاع السياسية الداخلية فى لبنان والحد من تأثيرات سوريا وإيران اللتين لهما علاقات وثيقة لحزب الله فى المنطقة.

وأفادت صحيفة هآريتس الإسرائيلية أن الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى ينويان أيضاً تشكيل هيكل وأمنى واسع النطاق لتسوية النزاعات اللبنانية الإسرائيلية من الأساس. وكان فريق الأمم المتحدة لمعالجة الأزمة قد أكد أول أمس أثناء زيارته لإسرائيل ضرورة القيام بترتيبات دبلوماسية جديدة لإنهاء تكرار الاشتباكات اللبنانية الإسرائيلية.

وأشار المحللون إلى أن إسرائيل والولايات المتحدة تحاولان الحصول على مكاسب من خلال تفوقهما العسكرى والسياسى إلا أنه مازالت هناك تغيرات كثيرة تحول دون تحقيق هدفهما وذلك للأسباب التالية:

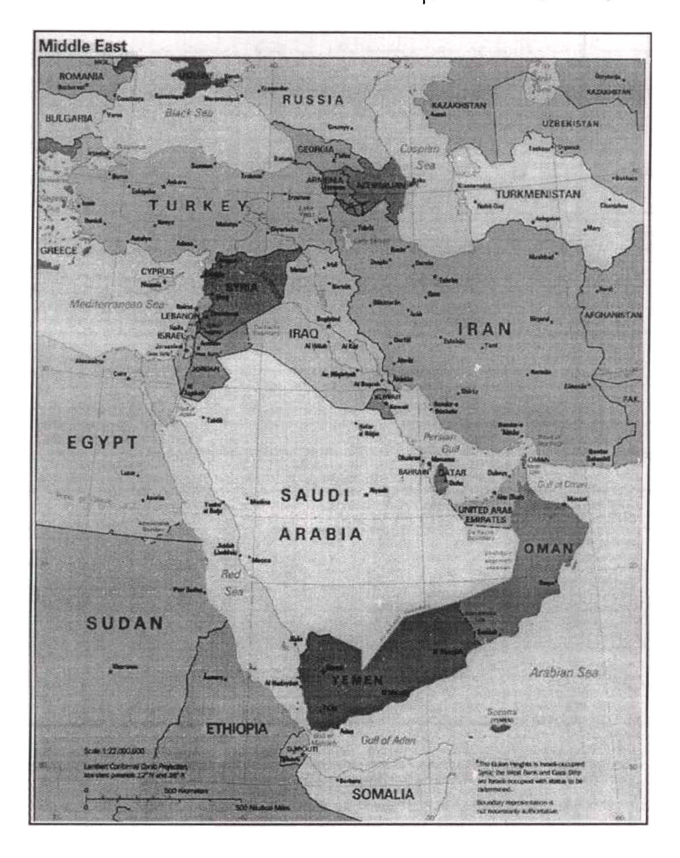
أولاً: الوقت مازال مبكراً لتحديد ما إذا كانت إسرائيل تستطيع القضاء على حزب الله من خلال العمليات العسكرية، فقد شن حزب الله أمس هجمات صاروخية عنيفة على إسرائيل بعد تعرضه للغارات والقصف الشديد على مدى سبعة أيام الأمر الذى يدل على أنه مازال يمتلك عناصر قوة.

ثانياً: يتمتع حزب الله بشعبية واسعة بين المسلمين اللبنانيين ولم تتمكن أية قوى لبنانية سياسية من نزع سلاحه بالقوة. بالإضافة إلى ذلك، فإن العمليات العسكرية الإسرائيلية أثارت مشاعر عدائية شديدة داخل لبنان. وإذا وقعت الحكومة اللبنانية اتفاقية هدنة حسب الشروط الإسرائيلية الأمريكية، فستتهم بالخيانة مما يؤدى إلى موجة جديدة من الاضطرابات السياسية فى لبنان.

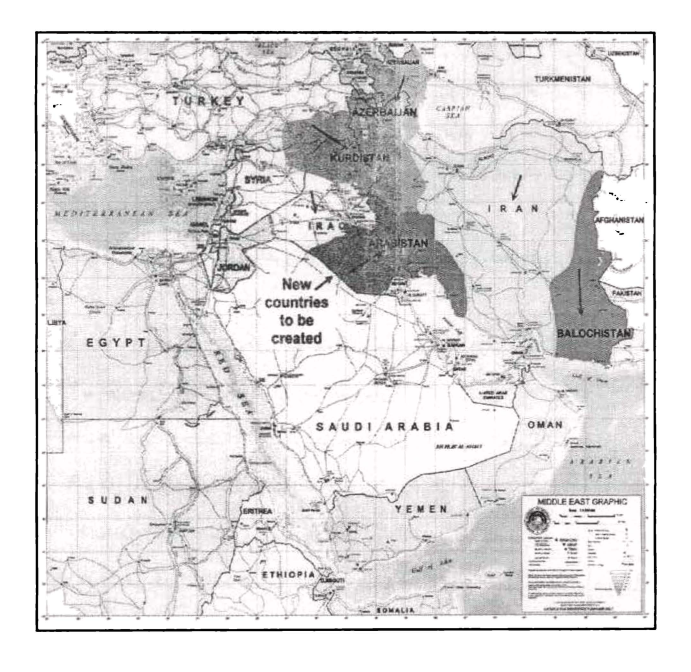
هنا يمكن ملاحظة أنه من الصعب على إسرائيل والولايات المتحدة خلق واقع لتشكيل وضع جديد فى العلاقات اللبنانية الإسرائيلية. كما أنه صعب على لبنان وإسرائيل تحقيق الهدنة خلال فترة قصيرة.

خريطتان وحفنة أسئلة

خريطة الشرق الأوسط اليوم:



خريطة الشرق الأوسط الجديد:



وهذه مجموعة من الأسئلة:

١ ـ ما الفرق بين الشرق الأوسط الجديد والشرق الأوسط الكبير؟

٢ ـ هل بدأ تغيير وجه الشرق الأوسط بحدود الدم كما يطلق عليها الموقع أعلاه؟

٣ ـ هل كان المشروع هو ذاته الذى بدأ بأفغانستان والعراق أم هو تغيير فى المسار ووجهة جديدة؟

٤ ـ إذا كان هذا التقسيم قادماً، هل من صالح الإنسان فى هذا الشرق أن يقسم طائفياً ودينياً وعرقياً وقومياً؟

٥ ـ ماذا يقول لنا توازن القوى والصراع على الشرق الأوسط اليوم؟ بعد ما جرى على لبنان؟

٦ ـ ما الذى يمكن أن يكون مع افتراض سيناريوهات حرب لبنان؟

٧ ـ هل سوريا هدف بعد لبنان ومن ثم إيران؟

٨ ـ هل لهذا المخطط أى اهتمام بمصلحة للدول والشعوب العربية؟

٩ ـ هل المشروع خدمة لإسرائيل لتوفير سلام دائم لها؟

١٠ ـ هل المشروع جزء من مشروع أكبر ووجه جديد للاستعمار؟

١١ ـ هل هذه خرائط تشغل الناس وتدغدغ مشاعر البعض وهناك غيرها من الخرائط؟



النظام الشرق الأوسط
فى مرحلته الجديدة

مقدمة...

صدر العديد من الدراسات والأبحاث التى تناولت موضوع النظام الشرق أوسطى الجديد، وكل مؤلف من هذه المؤلفات تنال الموضوع من زاوية مختلفة، وقد تم بحث الموضوع فى سياقه الزمنى أى مرحلة ما بعد حرب الخليج الثانية (حرب النفط)، وتفرد الولايات المتحدة بنفوذها وقوة سيطرتها العالمية كقائدة قطب عالمى وحيد بعد نهاية الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى السابق، واختلال محور التوازن العالمى، أما على المستوى الإقليمى فقد استطاعت أمريكا أن تستقطب الدنيا كلها تحت قيادتها لتخوض بهم حربا ضد كل من يفكر فى العبث بجغرافيا المصالح الأمريكية وأولوياتها فى الشرق الأوسط النفط وأمن إسرائيل.

لقد نجحت أمريكا فى تجديد امبرياليتها العالمية، وضبط حركة مصالح الأمم على ايقاع تحركها وانسجامها مع استراتيجياتها الاقتصادية والأمنية والسياسية على المستويين العالمى والإقليمى.

لم يكد يهدأ دخان معارك حرب الخليج حتى بدأت المعركة السياسية، واستفقتا نحن أبناء المنطقة من هول الصدمة لنتساءل عن موقعنا ومصيرنا الإقليمى الجديد، وموقع إسرائيل ودورها فى هذه التغيرات الجيواستراتيجية التى حدثت، وعن شكل وهوية وأهداف النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا؟

لقد شدتنا محاولتنا للإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها للوقوف على حقيقة الوضع، وإذا بنا أمام مشروع غزو جديد أمة العربية والإسلامية جديد. ويرتكز على حضور احتلالى للجيوش الأجنبية وأساطيلها وقواعدها محطمة بذلك أى قيمة للحديث عن الوزن السياسى لدول منطقتنا الشرق أوسطية العربية منها والإسلامية أو أى معنى للسيادة والحدود والكيانات الوطنية المستقلة، لقد انتزع منا الاستقلال ليربط بعرى وثيقة مع إسرائيل ويرتهن لمصير القاعدة الاستراتيجية والحيوية لأمريكا فى المنطقة.

وهنا برز الدور الإسرائيلى الإقليمى ومستظلاً بجسر القوة الأمريكى فى المنطقة. ومؤذناً بتأسيس اطار جديد للعلاقة الأمريكية الإسرائيلية ذات أهداف وأبعاد سياسية واقتصادية وأمنية شاملة.

فى ظل هذا الفضاء السياسى الإقليمى لمنطقة الشرق الأوسط الذى ذكرناه سابقا قامت أمريكا بتحقيق اختراق سياسى وذلك بدفع الأطراف العربية للجلوس مع إسرائيل على طاولة المفاوضات فى مؤتمر مدريد للسلام والذى خضع لسياسة أمريكا فى الاستفراد بالدول العربية والفصل بينها، واحتواء كل طرف على حدة، وعزل مسارات التفاوض العربية المختلفة مع الكيان الصهيونى عن بعضها، وقد تم تمرير الشروط الإسرائيلية من خلال قنوات الضغط الأمريكى لتفكيك الحد الأدنى من التضامن العربى الذى كان قبل ذلك مهتزا أصلاً، وعلى أثر مؤتمر مدريد، واتفاقات أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية شرعت إسرائيل بالترويج لنظام إقليمى وتكتل جديد باسم النظام الشرق الأوسطى، وسعت الإدارة الأمريكية جادة لتهيئة البيئة المناسبة لتأسيس هذا التكتل الإقليمى الشرق أوسطى وليطرح كبديل لأى شكل من أشكال التضامن والتحالف السياسى والاقتصادى العربى البينى، والعربى والإسلامى، وطوال الفترة الممتدة ما بين (١٩٩١ ـ ١٩٩٦) صعدت أمريكا نشاطها الدبلوماسى وضغوطها السياسية والاقتصادية لفرض النظام الشرق أوسطى على قاعدة توسيع مساحات التطبيع السياسى والاقتصادى بين بعض الدول العربية وإسرائيل، وقد عبر الصحفى المشهور محمد حسنين هيكل وباختصار فى مقابلته مع مجلة الوطن العربى (١٩٩٧/١/١٧) عن وضع المنطقة وترتيباتها حيث قال: أن أول الأمر أننا فصلنا

السياسة عن الاقتصاد، ثانيا فصلنا الأمن عن السياسية.

فى الأمن الخارجى جاءت حرب الخليج وأنشأنا للأسف ما سمى بقوة التحالف الذى قادته أمريكا، فقد أعطينا القرار السياسى لأمريكا.. فى شرم الشيخ أخذت أمريكا تفويضا فى الأمن الإقليمى وأخذت ثانى تفويض بالأمن الداخل فأنشأت لجنة مشتركة لمقاومة الإرهاب.. نحن أعطيناها الشرعية وهى أخذتها وتتصرف فيها.. ونأتى بعد ذلك للناحية الاقتصادية ففصلنا الاقتصاد عن السياسة.. ثم أخذوا منا الاقتصاد من مسارات متعددة كانت تشترك فيها حكومات، ثم نقلها فى المؤتمرات الاقتصادية لرجال الأعمال، ثم خرجت وبدأوا بنقلها لبنك الشرق الأوسط.. فما حصل أن سيادتنا كدول وكمنطقة قد تفتت، ثم نأتى إلى النظام الإعلامى.. لا أعرف صانع قرار عربى لا يجلس أمام الـ (C NN) وبشكل آخر مواكب نظام الإعلام العالمى عقولنا وأخذنا معه إلى الخارج.

لكن بالرغم من الصورة التشريحية التى عرضها (هيكل) للواقع العربى وللمنطقة موضحا قوة الهجمة علينا إلا أننا لاحظنا أن مسيرة الدفع للنظام الشرق أوسطى كانت تتعثر واصطدمت بالقضية الفلسطينية التى أرادوا احتواءها والقفز على واقع الاحتلال الإسرائيلى وحقيقة الصراع السياسى والتاريخى والحضارى بين أمتنا والصهاينة. لقد تمسكت شعوبنا بمصالحها الوطنية وشعورها الدينى بالرغم من حجم الاختراق الذى جسدته هجمة الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية ضدنا تحت عنوان «السلام السياسى والاقتصادى»، ونتيجة لهذا التعثر الذى أصاب النظام الشرق أوسطى والرفض الشعبى بقبول وجود إسرائيل ككيان طبيعى فى المنطقة قامت إسرائيل بتصعيد لهجتها وأخذت تهدد بخيارات أخرى مثل الردع العسكرى والسياسى أو الاقتصادى، ومن المثير للدهشة أن شيمون بيريز رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق وصاحب مشروع الشرق أوسطية ذكر فى سياق حرب إعلامية ضد مصر أن مصر لم تخلق سلاما اقتصاديا مع إسرائيل، وأنه لا يوجد لدى الدول العربية اقتصاد وإنما لديها فقر وأنه لا يوجد أحد يرغب بالهيمنة على الفقر، وأن اقتصاد إسرائيل يعتمد على التجارة مع الغرب وليس الدول العربية.

إن إسرائيل تنتج من أدمغتها أكثر مما تدره آبار النفط السعودية وكان هذا هو جوهر موقف نتنياهو الذى كشف عنه فى مقابلة نشرتها له ملحق هآرتس (٢٢/١١/١٩٩٦) وضح فيها موقفه من نظام الشرق الأوسط حيث قال: أنا لا أتبنى سيكلوجية المحاصرين، وحول طبيعة السلام مع مصر ذكر ثلاثة احتمالات، استيعاب معين للسلام مع إسرائيل، مدار جزئى جداً من التطبيع، الردع والترتيبات الأمنية وهى الشرط الحتمى الذى من دونه لا يمكن أن يكون هناك تطبيع.

إن موقف بيريز ونتنياهو كشفا عن حقيقة وأهداف النظام الشرق أوسطى من المنظور الإسرائيلى وتمحور كل المشاريع الإقليمية حول مركزية القوة الإسرائيلية الساعية للهيمنة بوسائل الاقتصاد والسياسة والأمن أى التطبيع بكافة أشكاله.

لقد تبادر إلى ذهن بعض المحللين والسياسيين، وعلى أثر التغيير الحكومى فى إسرائيل عام ١٩٩٦ بأن أطروحة النظام الشرق أوسطى وتطبيقاته الاقتصادية قد دخل غرفة الانعاش ومرحلة الاحتضار، لكن هذا التحليل افتقر إلى الدقة والعمق، لأن الهدف الإسرائيلى من هذا المشروع أن تصبح عضواً طبيعياً ومركزاً للنظام الإقليمى وأن تدخل إلى النسيج المجتمعى للمنطقة وأسس الالتقاء والافتراق عما هى عليه الآن من حضور واعٍ ومميز للشعور الوطنى والإسلامى، ولذلك سيبقى النظام الشرق أوسطى هدفا حيوياً لأمن إسرائيل واستقرارها فى المنطقة.

وهنا علينا أن نأخذ بالاعتبار أن النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا أو (النسخة المنقحة للامبريالية الاستعمارية المسماة العولمة) بأنه غير منفصل عن النظام الشرق أوسطى بل مثل الجسر الذى سيعبر عليه هذا النظام والمظلة العالمية التى ستحميه. فالعولمة كنظام عالمى وأيديولوجى وامبريالى. وحسب ما طرحه المفكر المغربى محمد عابد الجابرى فى محاضرته التى ألقاها فى معهد العالم العربى فى باريس فى (٢٠/٣/١٩٩٧) حيث ذكر ثلاث ركائز له:

١ ـ شل الدولة الوطنية وبالتالى تفتيت العالم لتمكين شبكات الرأسمالية الجديدة، والشركات العملاقة متعددة الجنسية من الهيمنة عليه والسيطرة على دواليبه.

٢ ـ توظيف الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة فى عملية الاختراق الثقافى واستعمار العقول.

٣ ـ التعامل مع العالم، مع الإنسان فى كل مكان تعاملاً لا إنسانياً يحكمه مبدأ البقاء للأصلح والأصلح فى هذا المجال هو الناجح فى كسب الثروة والنفوذ وتحقيق الهيمنة. وهذا يعنى ضرب بنية حدود الدولة الوطنية وسيادتها وفقدانها آلية السيطرة على حركة المال والتجارة والأفكار والناس، وسيتعزز النشاط التجارى والمالى غير الحكومى فى جو من تأثير لماكينة الإعلام على الشعور الوطنى والدينى وأيضاً على مقومات الصمود والتماسك لبنياننا المجتمعى. وستكون نتيجة ذلك امتلاك الإمبريالية الأمريكية القدرة فى فرض إرادتها على الجغرافية وشبكة المصالح الإقليمية، دون الأخذ بعين الاعتبار موقف الدولة وقرارها.

إن الهجوم الكاسح للنظام العالمى الجديد يضعنا أمام خيارات وتحديات فى غاية الخطورة والصعوبة خصوصاً أن إسرائيل قد هيأت نفسها للاندماج فى هذه المنظومة العالمية، ويساعدها ذلك فى تمددها الاقتصادى وتقاطعاتها مع التكتلات الاقتصادية العالمية، فقد نجحت إسرائيل فى استثمار مرحلة ما بعد الحرب الباردة لتوسيع مناطق نفوذها الاقتصادى الإقليمى والعالمى. لقد توجهت إسرائيل شرقاً نحو جنوب شرق آسيا، الشرق الأقصى وآسيا الوسطى والقوقاز وأنجزت فى تلك المناطق اتفاقات هامة فى كافة المجالات التجارية والعسكرية والأمنية والسياسية، فخلال أربع سنوات فقط من العلاقات الدبلوماسية الإسرائيلية الهندية ووصل الميزان التجارى بينهما عام ١٩٩٦ إلى ٥٧٠ مليون دولار (٣١٢ صادرات إسرائيلية تشمل ١٥٠ مليون دولار مبيعات أمنية، ١٠٠ مليون دولار صناعات جوية، ومجالات أخرى فنية وخبرات وزراعية وتكنولوجية)، وهذه العلاقة بين إسرائيل والهند لا تخل ومن أهداف جيو أمنية موجهة بالدرجة الأولى ضد باكستان وإيران.

وعلى صعيد العلاقات الصينية الإسرائيلية والتى بدأت دبلوماسيا فى العام ١٩٩٢، فقد بلغ حجم التجارة البينية فى العام ١٩٩٦ مبلغ ٨١ مليون دولار صادرات

إسرائيلية للصين (٧٠ فى المئة منها معدات ذات تكنولوجيا متطورة)، فى حين بلغت الصادرات الصينية لإسرائيل ١٦٠ مليون دولار، وتم التوقيع على بروتوكول اقتصادى وتشكيل لجان مشتركة لدراسة مجالات التعاون فى قطاعات الزراعة، المعدات الإلكترونية والطبية والاتصالات، وقد وقع الطرفان مؤخراً على اتفاقية جمركية وتبادل للخبرات العلمية والتربوية وإقامة المعارض التجارية والسياحية المشتركة.

أما العلاقات التجارية الإسرائيلية مع اليابان فقد بلغت قيمة الصادرات الإسرائيلية إلى اليابان فى العام ١٩٩١، ٤٠، ٧١٣ مليون دولار والواردات ٧٣٣,٤٠ مليون دولار. وقد أقامت إسرائيل علاقات تجارية مع دول آسيوية مثل كوريا الجنوبية، تايوان، فيتنام. واهتمت إسرائيل باختراق مناطق آسيا الوسطى وعلى الخصوص الجمهوريات الإسلامية الأسيوية، وأنجزت اتفاقات استثمار مع كل من ازبكستان، تركمنستان، كازاخستان، أوكرانيا، جورجيا. حيث بادرت الشركات الإسرائيلية بمنح قروض طويلة الأمد لتلك الجمهوريات الإسلامية يقدر مجموعها بحوالى ١٢٥ مليون دولار، وأرسلت أكثر من ١٨٠٠ خبير إسرائيلى ليغطوا كافة مجالات النشاطات الاقتصادية والفنية والتقنية.

وبالنسبة لعلاقة إسرائيل مع روسيا فقط نشطت العلاقات السياسية والاقتصادية والتعاون الأمنى بينهما ولعب اللوبى اليهودى السوفيتى فى إسرائيل وروسيا دورا هاما فى تنشيط هذه العلاقات، ويعتبر مشروع استيراد إسرائيل للغاز الروسى من أهم وجوه التعاون التجارية وتسعى إسرائيل باستبدال الغاز الروسى بالغاز المصرى.

أما أخطر العلاقات التى أنجزتها إسرائيل وأعادت إليها الدفء فهى العلاقة مع تركيا التى تتجاوز فى أهميتها الشأن الاقتصادى لتشمل الشأن الأمنى أيضاً والعسكرى، وليشكلا فيما بينهما حلفا استراتيجيا وأمنيا ضد المصالح العربية والإيرانية، وقد بلغ ميزان التجارة لصالح إسرائيل والتى شملت الوسائل الدفاعية والتسليحية وإعادة تحديث الطائرات التركية مبلغ ٥٠٠ مليون دولار وهناك تقرير قدر لها أن تصل إلى مليار دولار عام ألفين.

وقد توجهت إسرائيل جنوباً نحو الدول الأفريقية الواقعة تحت خط الصحراء، وأجدت له مرتكزات وقواعد أمنية وعسكرية واقتصادية عن طريق تطبيع علاقاتها مع كل من نيجيريا واريتيريا وأثيوبيا وزائير والنيجر وغيرها، وقد نجح الكيان الصهيونى بتقوية وجوده فى البحر الأحمر والبحيرات العظمى (منابع نهر النيل) مما يكشف عن نوايا إسرائيل فى تعزيز وجودها ونفوذها فى مناطق ذات أهمية جيواستراتيجية تساعدها فى محاصرة الشرق الأوسط واسقاط دوله المفككة العلاقات والمأزومة فى تضامنها فى أحضان هيمنتها.

أما ميزان الشراكة الإسرائيلية الأوروبية فإسرائيل كانت قد وقعت مع أوروبا اتفاق تعاون وشراكة فى العام ١٩٩٥، وبلغ مستوى الميزان التجارى خلال العامين (١٩٩٥، ١٩٩٦) مبلغ ٩ . ٦٥٠ مليون اكوا صادرات إسرائيلية، و٦٥١ . ٤ اكوا واردات. ونجحت إسرائيل مؤخراً أن تنضم إلى دول الـ٢٨ الصناعية هذا وقد فعلت إسرائيل نشاطها التجارى مع بعض الدول فى أمريكا اللاتينية.

أما تفاصيل العلاقات التجارية الأمريكية الإسرائيلية فهى أوضح من أن نستعرضها هنا لكن تجدر الإشارة بنا أن نشير إلى آخر احصاءات الميزان التجارى بينهما، فقد بلغت الصادرات الإسرائيلية لأمريكا ٨ . ٥ مليار دولار فى عام ١٩٩٥، ووارداتها من أمريكا فى نفس العام ٥ . ٦ مليون دولار، وفى العام ١٩٩٦ بلغت نسبة الصادرات الإسرائيلية ٥ . ٦ مليار دولار ووارداتها ٦ مليارات دولار.

والآن سوف نستعرض بعض المعطيات عن الأوضاع الاقتصادية العامة لكل من إسرائيل والدول العربية، فقد تمتع الكيان الصهيونى بضخ مالى من المساعدات الأمريكية وحسب ما كشف عنه بعض أعضاء الكونجرس مؤخراً بلغت ٧٢٦ . ٧٧ مليار دولار خلال الفترة من (١٩٤٥ ـ ١٩٩٦)، هذا بدون ضمانات القروض والتسهيلات المالية الممنوحة لإسرائيل خلال هذه الفترة، وبلغ الناتج المحلى لها فى عام ١٩٩٧، ٥ . ٥٨ مليار دولار، ونصيب الفرد من الناتج المحلى لنفس العام بلغ ٣٤١ . ١٢ دولارا، أما نسبة النمو الاقتصادى فقد بلغت ٤ . ٤ فى المئة فى العام ١٩٩٦ مقابل

١ . ٧ فى المئة فى العام ١٩٩٥ وأرجع رئيس الغرفة التجارية الإسرائيلية سبب هذا التراجع إلى الوضع السياسى والأمنى فى الأراضى المحتلة، وقد ارتفعت ميزانية الاستيطان فى ميزانية عام ١٩٩٧ إلى ٢٠٠ مليون دولار بزيادة قدرها ٩٠ فى المئة نسبة لعام ١٩٩٦، وارتفعت ميزانية الأجهزة الأمنية لعام ١٩٩٧ بنسبة ٢٢ فى المئة مقارنة بالعام الماضى حيث بلغت ٨٨٠ مليون دولار ارتفعت قيمة المديونية الإسرائيلية الداخلية إلى ٥ . ٢٤٥ بليون شيكل (دولار واحد يساوى ٢٥ . ٣ شيكل)، والديون الخارجية ٨ . ٨١ بليون شيكل.

وباستعراضنا لبعض المعطيات الاقتصادية والاجتماعية للوضع العربى يتبين لنا التالى: فقد كشفت الدراسة التى أعدها الاتحاد العام للغرف التجارية العربية أن هناك تراجعا كبيراً فى مستوى التعاون الاقتصادى العربى، حيث بلغ التبادل التجارى العربى البينى ٧ فى المئة فقط من مجموعة حجم التجارة الخارجية العربية، وانخفض متوسط نصيب الفرد إلى ١٥٠٠ دولار عام ١٩٩٦ بعد أن وصل إلى ٢٧٠٠ دولار عام ١٩٩٠، وتفصيلات ذلك كالتالى: فى الدول النفطية تراجع نصيب الفرد من ٧٨٦٠ دولار إلى ٣٥٠٠ دولار، والدول غير النفطية تراجع من ٦٠٠ دولار إلى ٤٠٠ دولار، وزادت نسبة الدين الخارجى إلى الناتج المحلى نحو ٦ . ٨٩ فى المئة، ومازالت نسبة الأمية فى الدول العربية مرتفعة حيث بلغت نسبة الملتحقين بالتعليم ٦ . ١٩ فى المئة من إجمالى مجموع السكان فى الدول العربية (نسبتها فى الدول المتقدمة ٩٧ فى المئة عام ١٩٩٥)، وبلغت نسبة الانفاق على التعليم ٧ . ٥ فى المئة من النتائج القومى العربى عام ١٩٩٠ وبقى بحدود ٤ . ٥ فى المئة عام ١٩٩٢. أما فى مجال الزراعة فقد سجلت الواردات الزراعية العربية زيادة بنسبة ٢٧ فى المئة أى ٤ . ١٩ بليون دولار عام ١٩٩١، وإلى نحو ٦ . ٢٤ بليون دولار من عام ١٩٩٣، أما مقدار الرساميل الأجنبية الخاصة للمساهمة فى إقامة مشاريع البنية التحتية فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كل فقد وصل عام ١٩٩٤ مبلغا وقدره ١ . ٤ مليون دولار أى ٥ . ٢ فى المئة من الرساميل الخاصة والبالغ مجموعها ١٥٨ بليون دولار والتى ذهبت إلى مجموع الدول النامية فى أنحاء العالم.

إننا هنا ذكرنا بعض معطيات النشاط الاقتصادى الإسرائيلى والعربى لنقف وبعمق وموضوعية على حدود طبيعة وحجم الاقتصاد الإسرائيلى الامبريالى وأيضاً ليسهل علينا إجراء البحث المقارن لتحديد مفاصل القوة والضعف بين الدول العربية وإسرائيل.

إن هناك خللا فى ميزان القوى الاقتصادى لصالح الكيان الصهيونى، ويزيد من حدة هذا الخلل حالة التطبيع الاقتصادى التجارى تحت غطاء المؤتمرات الاقتصادية الإقليمية فى الشرق الأوسط، وقد عقد آخر هذه المؤتمرات فى القاهرة عام ١٩٩٦ حيث حمل الوفد الإسرائيلى ١٣٩ مشروعا للتعاون الإقليمى تقدر تكاليف تنفيذها بـ ١٢.٣٥٠ بليون دولار، ومن المرتقب أن يعقد فى أواخر العام ١٩٩٧ مؤتمر اقتصادى إقليمى آخر فى قطر بالرغم من سياسة إسرائيل الليكودية وتحدياتها للعرب والمسلمين فى قضايا مصيرية تخص القدس، الاستيطان، السيادة على الأراضى المحتلة، المياه، دخولها بتحالفات عدوانية ضدهم.

لقد أصبح الهدف من هذه المؤتمرات الاقتصادية واضحاً للجميع وهو تعميق واقع التطبيع السياسى مع الدول العربية من نافذة الاقتصاد، وسوف تساعد هذه المؤتمرات على توثيق العلاقات وتقاطع المصالح بين المؤسسات، ورجال الأعمال، ورأس المال غير الحكومى بين العرب ونظرائهم الإسرائيليين، وفى هذه الحالة سوف يحقق الكيان الصهيونى نجاحاً جديداً فى اختراق مجتمعاتنا وخلق قاعدة مصالح بشرية له تعمل فى عمق كياناتنا السياسية والمجتمعية قد تتحول تلك القاعدة فى يوم من الأيام إذا توافرت لها ظروف مناسبة إلى قنوات ضغط مؤثرة على مصالحنا السيادية، السياسية منها والاقتصادية.

إن تعدد اللاعبين ونفوذهم فى منطقة الشرق الأوسط افقدنا نحن العرب والمسلمين القدرة فى استرجاع الهوية التاريخية والحضارية للمنطقة وهذا بحد ذاته خطر مصيرى خصوصا أننا فى زمن لا يتحمل الفراغ فى الجغرافيا الإقليمية، وستسعى أمريكا وإسرائيل لملء هذا الفراغ اللاإقليمى بالهوية «الفوق قومية» كما ذكر بيريز،

ومن اللافت للانتباه أن كافة المشاريع والتكتلات الإقليمية والعالمية التى ابتكرها العقل الغربى بقيادة أمريكا ودور إسرائيل نشط فى منطقتنا، سواء النظام العالمى الجديد، العولمة، النظام الشرق أوسطى الجديد كلها مشاريع تتفق فى تحديدها لاطر التعاون الأمنى العالمى والإقليمى فى «مواجهة الإزهاب»، كمفهوم غير محدد فى ذاته وتطبيقاته، وتختلف هذه التكتلات والأنظمة فى تحديدها لطبيعة المصالح الاقتصادية المتكافئة والمتوازنة خصوصاً عندما يمس الأمر منطقتنا، فكلها مشاريع تحمل فى جوهرها روح الهيمنة، وكأننا أمام مرحلة استعمارية جديدة بكل معنى الكلمة ولكنها مدعومة بتطور التقنية الحديثة وقوة السلاح.



إن الطرح الإسرائيلى لفكرة مشروع «شرق أوسطى جديد» قد طرح بشكل جاد فى سياق الحديث عن النظام العالمى الجديد، الذى فرض نفسه فى دوائر الحوار العالمى بمركزية أمريكا وخصوصاً بعد انتهاء الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفيتى (السابق) وجاء أيضاً هذا الحوار بعد حرب الخليج الثانية «حرب الكويت» واستقرار القوى العسكرية الأمريكية فى المنطقة الخليجية ومنذ مؤتمر مدريد «للسلام» الذى عقد تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ ووصولاً لاتفاقات أوسلو التى وقعت بين «إسرائيل» ومنظم التحرير الفلسطينية فى أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣ كانت تلك الفترة كافية ليحشد الطرف «الإسرائيلى» القوى الغربية وأمريكا وليقنع بعض الأطراف العربية بضرورة ربط «موضوعة التسويع للصراع الشرق أوسطى» مع «موضوعة التنمية الشرق أوسطية» وبالرغم أن ظاهر المشروع الإسرائيلى إقتصادى حيث يبرز هذا الطرح آلية للتعاون الاقتصادى الإقليمى والممثل «بسوق شرق أوسطى» وما يتطلبه ذلك من إنشاء مؤسسات البناء التحتى المشتركة (مؤسسات مالية غرف تجارية اقليمية شبكات النقل الاتصالات مراكز الأبحاث والدراسات والتخطيط..) إلا أن هذا المشروع مركب؛ تتشابك فى تكوينه أبعاد ومفاهيم اقتصادية وجيو سياسية وأمنية وهو لا يرقى إلى مستوى (الاتحاد الأوروبى)، بل هو محاولة لادماج القوى الفاعلة فى المنطقة الشرق أوسطية بطريقة قسرية وغير متكافئة المصالح وهنا نشير إلى النقاط التالية:

١ ـ منذ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام بين «إسرائيل» والأطراف العربية وحتى الآن فإن إسرائيل» قد جنت ثمارا على المستوى العملى تمثلت برفع المقاطعة العربية، وعلى الخصوص الخليجية عنها وبذلك فقد وفر لها ذلك ٤٠ مليار دولار سنوياً حسب احصائية وزارة التجارة «الإسرائيلية» وسيزيد حجم التجارة الخام «الإسرائيلية» بنسبة ٢٠٪ وهذا سيساعد على تخفيف حدة العجز التجارى «الإسرائيلى» الذى بلغ ٥ . ٧ بليون دولار عام ١٩٩٤.

٢ ـ إن اقتصاديات الدول العربية غير مؤهلة للدخول فى هذا النظام الشرق

أوسطى وذلك لأسباب عديدة منها: غياب التكنولوجيا والتحديث فى أساليب التسيير الإدارى واعتماد عدد كبير فى هذه الدول على اقتصاد النفط، وغياب حالة التكامل الاقتصادى الداخل بين هذه الدول مما يؤدى فى حالة اشتراكها بشكل فردى فى هذا النظام إلى هيمنة «إسرائيلية» عليها.

٣ - إن هذا النظام لا يسمح باعطاء فرص نمو متساوية للأطراف المندمجة، كما لا يهدف إلى تحقيق تنمية للأطراف الأقل تطورا ولن يساعد خروج بعض دول المنطقة من حلقة التبعية للدول والمؤسسات المالية الرأسمالية بل سيؤكد هذه التبعية من خلال التمويل والمساهمة فى المشارع الإقليمية.

٤ - أن المشروع الشرق أوسطى محاولة للقفز على طبيعة وحجم الروابط الاقتصادية التاريخية بين المراكز الاقليمية المختلفة ومناطق التبادل التجارى فمثلاً شمال أفريقيا مرتبط ارتباطا اقتصادياً وتجارياً بدول الضفة الشمالية للمتوسط (فرنسا، أسبانيا، إيطاليا) وهذه العلاقة تحمل بداخلها أبعادا أمنية.

أما دول الخليج فروابطها الاقتصادية مع أوروبا وأمريكا واليابان فالمطلوب إذن إعادة هيكلية الاقتصاد بشكل جذرى مما نعتقد بصعوبته.

٥ - هناك أبعاد للصراع والتوتر داخل هذا المشروع الشرق أوسطى وتتمثل بالتنافس على امتلاك المياه التى أصبحت تهدد بصراعات وحروب مستقبلية فالعلاقة الحالية بين دول المنطقة بالنسبة للمياه هى علاقة «صفرية» إذا أخذت من طرف تكون على حساب الآخر.

٦ - إن الطرح «الإسرائيلى» للنظام الشرق أوسطى سيبدل شكل الصراع السياسى بين مراكز الثقل الإقليمى إلى صراع اقتصادى تشعر الدول العربية عامة والخليجية على الخصوص بخطورته عليها وعلى الروابط فيما بينها.

٧ - إن «النظام الشرق أوسطى» غير قادر على امتصاص تاريخية الصراع مع «إسرائيل» لعوامل تتعلق بالأبعاد التاريخية والدينية والبيئة الاجتماعية.

موقع إسرائيل فى النظام الاقتصادى
الشرق أوسطى الجديد
دراسة فى التفاعلات الانسجامية والتصادمية
الداخلية لهذا النظام

مفهوم الشرق الأوسط فى سياق تطورات جغرافيته السياسية

يعتبر الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية من أهم المواقع التى تنقطع عنده «الجيوبوليتكا الإسلامية» مع «الجيوبوليتكا العربية»[(١)] ، حيث اختزن هذا الموقع مساحة كبيرة من الحركة التاريخية ومخزونها الصراعى والفكرى والثقافى والسياسى والمجتمعى للأمة العربية والإسلامية وعلى مدار عقود شهدت هذه المنطقة تحولات كبيرة وحساسة فى صراعها العسكرى والسياسى مع الخارج، وعندما كان العالم الإسلامى كتلة جيوبوليتكية واحدة كان هذا الموقع الذى تشكل بعد ذلك باسم الشرق الأوسط يحظى بأهمية كبيرة فى حركة التاريخ الإسلامى. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادى واندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩٣٣م) وحيث اتفقت القوى الاستعمارية الكبرى (فرنسا وبريطانيا) على رسم وتقسيم المنطقة وخلق ما سمى

---

(١) ثمة فروق كبيرة بين الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية يمكن اجمالها فى ما يأتى:

أ ـ الجيوبوليتيك ترسم خطة لما يجب أن تكون الدولة عليه، بينما تدرس الجغرافيا السياسية كيان الدولة الجغرافى.

ب ـ تضع الجيوبوليتيك تصوراً لحالة الدولة فى المستقبل، بينما تقتصر الجغرافيا السياسية على رسم صورة الماضى والحاضر.

ج ـ تتسم الجيوبوليتك بالتطور والحركة بينما تميل الجغرافيا السياسية إلى الثبات.

المصدر: راجع محمد رياض، الأصول العامة فى الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا، (بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٤) شؤون الأوسط العدد ٢٥ كانون الأول يناير ١٩٩٣.

بالشرق الأوسط بصورته هذه استناداً إلى التقسيمات الإدارية والجغرافية والسياسية لمعاهدة سايكس بيكو، تلك المعاهدة التى حكمت المنطقة ومازالت على الرغم من تبدل القوى الاستعمارية ذات النفوذ والوزن العالمى، يمكن تحديد مفهوم الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية البحتة بأن هذه اليابسة تتوزع على ثلاث قارات والفواصل بينها من الناحية الطبيعية تكمن فى ضيق البر حتى اختفاءه: الدردنيل والبسفور بين آسيا وأوربا، والسويس بين أسيا وأفريقيا، وجبل طارق بين أوروبا وأفريقيا. وتنفتح هذه المضائق على مساحات صحراوية شاسعة تخص قارات مختلفة، وهذا الانتماء يطيح بالاعتبارات الجغرافية الكلاسيكية ليتمحور حول أزمات وقضايا[١].

وتعتبر الفترة بين الحربين العالميتين (١٩١٤ ـ ١٩٤٥م) حبلى بالعديد من الأزمات والمتغيرات والمشاكل التى أثرت على مستقبل الاستقرار والصراع فى المنطقة الشرق أوسطية بكاملها، حيث من نتائج الحرب العالمية الأولى «التجزئة الجغرافية» بين العالمين العربى والإسلامى، ومن نتائج الحرب العالمية الثانية الإعلان عن «قيام دولة إسرائيل» على أرض فلسطين المغتصبة، وبذلك تمحور الشرق الأوسط حول قضايا نزاع وصراع عالمى وإقليمى دائم عنوانهما قضية فلسطين والصراع على النفط، ويضيف معين حداد قضية أخرى هى «الشأن المائى»[٢].

وقد يصعب علينا أن نرى المسافة الفاصلة بين عناوين النزاع المختلفة فى المنطقة، حيث امتزجت وتداخلت مفاهيم «التجزئة الحدودية»، «قيام دولة إسرائيل»، «الحرب الباردة»، «النفط» لتشكل المحاور الاستراتيجية لتخطيط ورسم السياسات العالمية والإقليمية للمنطقة فى المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية. وفيما يخص مجموعات العمل ا[illegible] ولاتزال تؤثر فى سياسة الشرق الأوسط واقتصاده يجملها «شفيق المصرى»[٣] فى التالى:

---

(١) معين حداد، مفهوم الشرق الأوسط بين الجغرافيا والجيوبوليتيكا، شئون الأوسط بيروت العدد ٣٣ أيلول سبتمبر ١٩٩٤، ص٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨.

(٣) شفيق المصرى خريطة جديدة للشرق الأوسط، جريدة الحياة، لندن ١١/٤/١٩٩٣.

المجموعة الأولى: التى تضم عدداً من الثوابت **لا يستطيع أحد إنكارها كما لا** تستطيع أية قوة إقليمية أو أجنبية تهميشها، ومن هذه الثوابت الجغرافية:

١ ـ أن الداخل الأسيوى بحاجة دائمة وحيوية إلى الوصول بأى ثمن إلى الحوض الشرقى للمتوسط لأسباب دفاعية واقتصادية وسياسية وهذه الحاجة الجيوسياسية لم تتغير عبر التاريخ.

٢ ـ إن سوريا الجغرافية (التى تشمل سوريا ولبنان وفلسطين) فى حاجة دائمة وحيوية إلى الاستقرار وسط هذا التجاذب الدائم على ساحتها بين حكام الشرق الأسيوى وحكام الجنوب الأفريقى وحكام الغرب البعيد، ولكنها لم تتمكن من تأمين استقرار دائم وهدوء طويل.

٣ ـ إن من يسيطر مباشرة أو بالواسطة على بوابات الشرق الأوسط المائية يسيطر على كل ما ومن فى هذا الشرق الأوسط (مضيق هرمز إلى الشرق). وإلى جانب هذه الثوابت الثلاثة، برزت عوامل دائمة الحضور على ساحة الشرق الأوسط منذ نصف قرن أو أكثر وحتى أوائل التسعينات وهذه العوامل تدور حول محاور ثلاثة:

١ ـ محور التجاذب الأمريكى (والغربى عموماً) السوفيتى أو ما كان يسمى بالحرب الباردة والتى استغرقت الفترة الزمنية (١٩٥٠ ـ ١٩٨٩)، وانتهت هذه الحرب لصالح أمريكا كقطب عالمى متفرد.

٢ ـ محور النفط الخليجى (وامتداداً إلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر) والذى سقط أمنيا وعسكريا بيد أمريكا كنتيجة «لحرب الكويت» أو بتسمية أخرى «حرب النفط».

٣ ـ محور الأمن الإسرائيلى: حيث سقطت التحديات التى كانت تواجه «شرعية الوجود الإسرائيلى فى المنطقة»، ويعتبر مؤتمر مدريد للسلام الذى عقد فى تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١ مؤشر القبول الجماعى العربى بهذا الوجود (الغاصب والمعتدى كما كان يطلق عليه) ؟!.

وقد كان للتعريفات الأمريكية للشرق الأوسط، وإعادة قرادة وبلورة أبعاده الجيوسياسية، والجيو اقتصادية دور بارز للكشف عن حقيقة الموقع والدور الإسرائيلى

فى المنطقة، وقد أفصح مارتن إنديك أمام معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى عن تصورات وآراء ومواقف الأمريكية الحالية (إدارة كلينتون) حول «النظام العالمى الجديد» بتطبيقاته الشرق أوسطية حيث ذكر أن «كلينتون يفهم أن الشرق الأوسط فى حالة توازن دقيق بين مستقبلين بديلين: الأول: يتمثل فى سيطرة المتطرفين المرتدين عباءة الدين أو الوطنية على المنطقة، مستخدمين أسلحة الدمار الشامل المحملة على الصواريخ الباليستية، والثانى: مستقبل تحقق فيه إسرائيل وجيرانها العرب والفلسطينيين مصالحة تاريخية، تمهد الطريق للتعايش السلمى والتنمية الاقتصادية والإقليمية، ومع انتهاء الحرب الباردة تبرز الحاجة إلى إعادة تعريف المنطقة، إذ يجب علينا أن ندخل الدول الإسلامية الحديثة الولادة فى أسيا الوسطى كأحد عناصر استراتيجيتنا فى المنطقة مع أنها تقع عند أطراف الشرق الأوسط[1] أما المستشرق الأمريكى برنارد لويس فعلق حول خارطة الشرق الأوسط الجديدة والأحداث الأقليمية التى وقعت ضارباً مثالاً على ذلك حرب الكويت مؤكداً على أن «سقوط العالم العربى نفسه ككتلة سياسية» معتبراً ذلك سبباً للحرب وليست نتيجة، ويؤكد أنه قد كانت لإسرائيل قيمة استراتيجية حقيقية لأمريكا فى الماضى، وقد تكون لها قيمة استراتيجية بالغة الأهمية فى المستقبل، ويقارن بين التفوق التكنولوجى والعسكرى الذى حققه الغرب الحديث على بقية دول العالم، والتكنولوجيا التى تمتلكها إسرائيل والتى اعتبرها السبب فى انتصاراتها المتلاحقة على جيران لها متوفقين عدداً وعدة[2] . فمن الواضح أن الإدارة الأمريكية تختزن فى جعبتها الكثير من التغييرات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية للمنطقة، مما يؤكد أن «النظام الأقليمى الشرق

---

(١) مارتن انديك، خطاب ألقاه فى ١٩٩٣/٥/١٨ أمام معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى ونشرته:
Mess, 31 may 1993, pp. -ds

ويعتبر انديك المدير العام السابق لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا فى مجلس الأمن القومى الأمريكى والسفير الأمريكى الجديد فى إسرائيل، فصلية دراسات فلسطينية/ بيروت العدد ٥١ صيف ١٩٩٣.

(٢) برنارد لويس، مستشرق بريطانى أمريكى مشهور، وهو الآن استاذ فخرى فى كرسى كليفلاند دورج لدراسات الشرق الأدنى فى جامعة برنستون بالولايات المتحدة. مقالته بعنوان قراءة جديدة للشرق الأوسط، والتى نشرت ترجمتها خصيصا «لقراءات سياسية» بأذن من مجلة فورن أفير Foreign Af-fairs النص الانجليزى فى خريف ١٩٩٢.

أوسطى القادم سيكون صناعة أمريكية»[١] ، وسيحمل هذا فى داخله هندسة جديدة للمنطقة يكون لإسرائيل فيها موقع مميز يلائم ثقلها وظيفتها فى الاستراتيجية الأمريكية المقبلة، وما يميز هذه الاستراتيجية سياسة البحث والترويج «لبدائل عدائية»، وبهذا يمكن تفسير الأسباب لإبراز مخاطر ما يسمونه بالعد والمركزى المقبل للغرب وأمريكا وإسرائيل «الأصولى الدينية» إن إثارة هذا الموضوع يصب فى سياق منهجية سياسية وأمنية شاملة تهيئ المناخ الأقليمى والمحلى للمنطقة الشرق أوسطية لكى تأخذ إسرائيل موقعها (كدولة إقليمية ومركزية) ومنسجمة مع النسيج المجتمعى للمنطقة، وكمدخل لتحقيق ذلك سيكون عن طريق بوابة النظام الاقتصادى الشرق أوسطى الجديد، وسياسة التعاون الإقليمى فى هذا النظام المتمثلة فى طرح «السوق الشرق أوسطية»، وهذا يتطلب الربط بين مجموعة من المفاهيم العملية مثل ربط موضوع «السلام مع إسرائيل» بعملية «التنمية الاقتصادية الإقليمية». ويعرف الجنرال الإسرائيلى موردخاى غور نائب وزير الدفاع حقيقة السلام «بأن تكون إسرائيل قوية»[٢]. ويعبر أحد المحللين الإسرائيليين واصفا وضع إسرائيل بأنها «ظاهرة هندسية فريدة فى العالم فهى زقاق دون مخرج على وجه الكرة الأرضية وكان يمكن الوصول إلينا فى الغرب وبصعوبة من الجنوب وكفى. والسلام يعيدنا إلى الموقع الطبيعى لهذه المنطقة، فنحن نجلس اليوم، على أهم تجارى فى العالم، خط التجارة إلى الشرق الأقصى ومنه»[٣] . فالعقل الإسرائيلى لا يفصل بين مفاهيم الهيمنة العسكرية والأمنية والاقتصادية طالما أن مركزها إسرائيل.

Reprinted by permission of the council on foreign Reoations, Inc =

راجع فصلية قراءات سياسية العدد ١٠ السنة الثالثة العدد الثانى ربيع ١٩٩٣.

(١) سيار جميل، المجال الحيوى للشرق الأوسط إزاء النظام الدولى القادم، مجلة دراسات المستقبل العربى، العدد ١٨٤/٦/١٩٩٤، ص٢١.

(٢) مردخاى غور العبء الأمنى فى عصر السلام، مجلة رفاعون لكلكلاة، عدد ٢ تموز يوليو ١٩٩٤، ص٢٢١، ٢٤١: نقلاً عن كراس «الاقتصاد والتسوية الأفكار والمشاريع الإسرائيلية» كراسى مؤسسة الدراسات الفلسطينية عدد صفر ٤ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩٤.

(٣) عاليزا فالخ، ردم الهوة، دافار، ١٩٩٤/٧/٢٩.

ربط الأمريكيون والإسرائيليون عملية «التسوية السياسية» بالتنمية فى المنطقة وبناء المصالح المشتركة. ويذكر شمعون بيريز فى كتابه «الشرق الأوسط الجديدت» فرضية أساسية اشتراطية وهى أن إرساء نظام إقليمى مرهون بنجاح عملية السلام الإسرائيلية ـ العربية[١] ويضيف بيرز أنه فى المرحلة التالية بعد توطيد العلاقات الثنائية والمتعددة تستدعى إقامة صناعة إقليمية من خلال تعاون الهيئات العالمية والاتحادات الدولية المستقلة[٢] ويصل إلى المرحلة الثالثة التى تشمل سياسة الجماعة الأقليمية مع التطور التدريجى للمؤسسات الرسمية[٣] ويقترح أنه فى حال انقطاع القنوات الدبلوماسية مؤقتاً خلال نشوب أزمة ينبغى أن تكون للمنطقة قوات تستطيع الرد على العدوان فى الحال بصورة مؤثرة[٤] . وتلتقى جملة المشاريع وبنود اتفاقيتى أوسلو والعقبة على:

١ ـ ربط مشاريع البنية التحتية من خلال إقامة مشاريع بنية تحتية مشتركة (ماء، كهرباء، طرق، سكك حديد، شبكة مواصلات، اتصالات دولية) يشكل التراجع عنها تكاليف باهظة وصعوبات كبيرة للبلد الذى يحاول الخروج من هذا التجمع أو ما يسمونه «كلفة الانفصال».

٢ ـ إقامة مؤسسات وهيئات إقليمية وفوق قومية بما فيها القوى العسكرية. فهذه البنود تتجاوز هدف إقامة تعاون إقليمى وتسير بالدول المشاركة وفق برنامج محكم[٥] . فمن خلال القراءة المتأنية للطرح الشرق أوسطى الجديد لبيريز نصل إلى نتيجة تتمثل بأن ما تم طرحه هو محاولة لإحياء حلم مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل بإنشاء «كومنولث شرق أوسطى» تلعب إسرائيل دوراً فاعلاً فيه، أما السوق

---

(١) شمعون بيريز، الشرق الأوسط الجديد، ترجمة محمد حلمى عبد الحافظ، إصدار الأهلية عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٤ ص٦٧.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٨.

(٣) المصدر السابق: ص١٠٨.

(٤) المصدر السابق، ص٧٢.

(٥) نبيل مرزوق الشرق أوسطية وقوى الاندماج الفاعلة عربياً وإسرائيلياً، السفير، ١٩٩٤/١٢/٢٩.

الشرق أوسطية التى ينظر لها بيريز وتلقى حالياً رواجاً واجماعاً (أمريكاً إسرائيلياً أوربياً)، فهى نسخة طبق الأصل تقريبا عن «مشروع يعقوب ميريدور»[1]، الذى وضعه فى ١٩٧٧م بعد زيارة السادات إلى القدس، ووقتها أطلقت صحيفة معاريف الإسرائيلى على هذا المشروع اسم «مشروع مارشال موسع للشرق الأوسط» وهو عبارة عن تأسيس صندوق مالى قاومه ٣٠ مليار دولار سنويا لعشر سنوات، وسينصرف الصندوق إلى تمويل مشاريع اقتصادية وعلمية وثقافية لأعضاء هذا التكتل الإقليمى المشاركين فيه. وقد قدم المفوض الأوروبى ماتيوس إثر حرب الكويت شباط/ فبراير ١٩٩١م إلى المجلس الأوروبى مشروعا بعنوان «الأمن والتعاون فى الشرق الأوسط والمتوسط» يتحدث عن إنشاء نظام شرق أوسطى متوسطى كإطار جديد لتنظيم التفاعلات الاقتصادية والسياسية كما يسمى بـ«الفضاء الاقتصادى المتوسطى»[1] وتركز الوثائق الأوروبية والأمريكية فى هذا المجال على أهمية قيام منطقة «للتجارة الحرة بين إسرائيل والبلدان العربية باعتبارها المرتكز الرئيسى للترتيبات الاقتصادية الشرق أوسطية الجديدة» وباعتبار أن «المبادلات التجارية توحد الشعوب وتخلق أنماطاً فى الاعتماد المتبادل ونسيجا فى المصالح المشتركة[3] وقد ذكر بيريز فى مقالة له نشرتها جريدة «أنترناشيونال هيرالد تريبون» حول الشرق الأوسط الجديد «أن الحروب هى أسوأ وسائل السيطرة، بل إن السيطرة الحقيقية إنما تكون بالاقتصاد والتكنولوجيا والعلم إن دول منطقة الشرق الأوسط قد انفقت الكثير على الحروب والدمار، ولابد أن نكسر الحواجز النفسية لوضع منظومة اقتصادية يرتبط بها الجميع، وعليه فالأمر

---

(١) يعقوب ميريدور، أحد مؤسسى حركة حيروت وزير الاقتصاد الإسرائيلى فى حكومة مناحيم بيغن ويملك واحداً من أكبر أساطير النقل فى العالم، مجلة الوسط العدد ١٣٨، ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) "Trade unites people, it creates inter -dependencies and common inter- ests", Eberhard Rhein. "Future cooperation between Mashrk countries and Israel in the field of Trade"

(Unpublis hed docoment, Brussels, February 1993).

مجلة دراسات المستقبل العربى العدد ١٧٩، ١/ ١٩٩٤ ص٩٣.

يحتاج إلى أربعة أضلاع لهذه المنظومة وهى: المال، الرجال، العقل الذى يدير، التكنولوجيا »[١] وهذه الهندسة الجيواقتصادية الشرق أوسطية تفصلها الدول العبرية حسب احتياجاتها ومتطلباتها، فالرؤية الإسرائيلية للشكل الهندسى المربع لمشاريع التعاون الإقليمى لها تطبيقات عدة، فطرح مثلاً (المال الخليجى + عمالة مصرية وسورية وفلسطينية وأردنية + تكنولوجيا أمريكية + إدارة إسرائيلية)، وهناك شكل آخر للتعاون وهو (نفط خليجى + عمالة عربية + مياه تركية + تكنولوجيا إسرائيلية) وهكذا نجد إسرائيل محوراً مركزيا لكل سيناريوهات التعاون الاقليمى الاقتصادى هى تريد «بناء جغرافيا جديدة للمنطقة مستقلة عن الماضى القريب والبعيد»[٢] وأثناء حمى الحديث عن الترتيبات الإقتصادية الإسرائيلية ـ الأمريكية للواقع الشرق أوسطى الجديد والذى يجرى فيه التأكيد على الانتماء والهوية الشرق أوسطية، لا ينسى بيريز إبراز مكان كبير لخطورة العدو رقم واحد بنظره وهو «الأصولية الإسلامية» والتى يعتبرها خطراً يهدد مستقبل الاستقرار والأمن والتنمية فى المنطقة عندما قال: «إن الأصولية الإسلامية تعد بعد الشيوعية أخطر تهديد للسلام، وقال إن إسرائيل والدول العربية التى تؤيد السلام حلفاء فى حرب من أجل السلام لم نرحبها بعد، وأضاف نحن نقاتل، كلنا نقاتل وليس فقط إسرائيل»[٣].

ونص بيريز السابق يفسر معنى التعاون الفوق قومى، أى اصطفاف إسرائيل بجانب الدول العربية الأخرى لمواجهة كل من يحاولون التغريد خارج السرب الإسرائيلى. وعلى الرغم أن الطرح الإسرائيلى ـ الأمريكى يستند على قاعدة اقتصادية، إلا أنه وبالذهاب إلى عمق الموضوع نكتشف أنه يختزن فى خلفيته أبعاداً جوهرية قد تكون أخطر من الظاهر الاقتصادى للموضوع، وقد اعتبرت الفايننشال تايمز البريطانية «إن الدول العربية تمتزج فيها التجارة بالسياسة بالدين فى كوكتيل اقتصادى»[٤]، ويمكن

(١) جريدة انترناشيونال هيرالدتريبون، النصف الأول من عام ١٩٩٢، أحمد السيوفى، إعلان الدار البيضاء، هل صنع فى إسرائيل قضايا دولية، العدد ٢٥٦، ١٩٩٤/١١/٢٨.

(٢) مازن بلال، السلام والانتماء الشرق أوسطى، الحياة، ١٩٩٤/٧/٢٦.

(٣) راجع السفير اللبنانية، ١٩٩٤/٢/٩.

(٤) الفايننشال تايمز البريطانية، الحياة، ١٩٩١/١٠/٤.

إضافة بعد آخر إلى هذا الكوكتيل الاقتصادى؛ وهو موضوع الأمن ذو التفسيرات الإسرائيلية الهلامية ويبدو أن هذا التشابك المركب فى المشروع الإسرائيلى هو إحساس إسرائيل الذاتى بفقدان مبررات وجودها القانونية والشرعية، ولذلك فهى تعمل على تذويب مجموعة المفاهيم والأفكار التى تمثل عائقاً بقبولها دولة اقليمية ذات وضع طبيعى، وستعيض عنها بمفاهيم فوق قومية من خلال إثارة مخاطر «الأصولية الإسلامية» على الاستقرار والأمن فى المنطقة. ويذكر عبد العليم محمد معلقاً على المشروعات الشرق أوسطية المطروحة بأنها «تكمن فى الخلفية الأيديولوجية لها والتى تتمثل فى تغييب هوية المنطقة»[1] فالمشاريع الاقتصادية للتعاون الإقليمى «تخضع للإرادة السياسية أكثر مما هى مبنية على المعطيات الموضوعية فى البنى التحتية وغيرها»[2] فالمطلوب إذن إنشاء تكتل اقتصادى جديد فى المنطقة تكون إسرائيل محوره والطرف الأقوى فيه اقتصاديا وأمنيا. تحدثنا عن التصورات الإسرائيلية (الأمريكية الأوروبية) للنظام الإقتصادى الشرق أوسطى، فماذا عن معالمه؟

معالم النظام الاقتصادى الشرق أوسطى الجديد

كشف البنك الدولى أخيراً عن مجموعة من المشاريع الرامية إلى تأمين الاندماج والتداخل الاقتصادى الإقليمى فى الشرق الأوسط والتى نشرت بعنوان «تقرير المشاريع الإقليمية»[3] ويتضمن التقرير دراسة لستة مشاريع تتصل فى صورة مباشرة بمسيرة السلام فى الشرق الأوسط، وتبلغ نفقات انجازها حوالى ٤ مليارات دولار، منها ثلاثة مشاريع ستعجل فى عملية إندماج إسرائيل والأراضى الفلسطينية المحتلة والأردن، بينما ستؤدى المشاريع الثلاثة الباقية إلى تسهيل اندماج اقتصاديات المغرب العربى وهى كالتالى:

١ ـ مشروع تبلغ نفقاته ٦٠٠ مليون دولار ويستغرق تنفيذه ٦ سنوات لبناء طريق

---

(١) عبد العليم محمد، ندوة النقاش بعنوان مستقبل التسوية بين العرب وإسرائيل، شؤون الأوسط، العدد ٢٧. آذار/ مارس ١٩٩٤.

(٢) انطوان حداد، المصدر السابق.

(٣) «تقرير المشاريع الإقليمية الصادر عن البنك الدولى، مجلة الوسط، العدد ١٢٣، ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٤.

رئيسى على شكل معبر على طول الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط يشمل بناء طرق جديدة أو تحسين الطرق القائمة، ويبدأ من مدينة كسب على الحدود السورية مع تركيا مرورا باللاذقية بيروت حيفا تل أبيب رفح على الحدود مع مصر، وسيربط هذا الطريق الساحل الشرقى للبحر المتوسط مع أوروبا وشمال أفريقيا.

٢ ـ مشروع يرمى إلى إنشاء خمسة ممرات تمتد من الشرق إلى الغرب ويربط إسرائيل والأراضى المحتلة والأردن وتسرع اندماجها الاقتصادى وتبلغ تكلفته ٦٠ مليار دولار.

٣ ـ مشروع رئيسى ثالث سيعمل على الربط التقاطعى للشبكة الكهربائية الأقليمية فى مرحلتين، المرحلة الأولى: تضم (مصر ـ إسرائيل ـ الأردن ـ الأراضى المحتلة ـ سورية)، المرحلة الثانية: تشمل إضافة دول الخليج، تركيا، إيران (إذا رغبت هذه الدول وتم التواصل لحل بعض المشاكل السياسية)، وتكلفة المرحلة الأولى فى هذا المشروع ٢٠٠ مليون دولار. أما المشاريع الثلاثة التى تخص دول المغرب العربى فهى كالتالى:

١ ـ بناء خط أنابيب لنقل الغاز بين بلدان المغرب العربى وأوروبا عن طريق المغرب أسبانيا، يعمل على توريد الغاز الجزائرى إلى المغرب ودول أوروبية (فرنسا والمانيا) وتقدر تكلفته بحوالى ٢ مليار دولار.

٢ ـ إستكمال شبكة طرق دول المغرب العربى الممتدة على مسافة ٧٣٣٣ كيلومتراً بنفقات تقدر بـ٣٥٠ مليون دولار على مدى خمس سنوات وهذه ستربط معظم المناطق وعواصمها والمناطق الحضرية تقريباً فى كل من المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا وليبيا (بعد حل مشكلة نوكربى).

٣ ـ تأمين الربط التقاطعى لشبكات الطاقة الكهربائية بين تونس والجزائر والمغرب بنفقات تقدر بنحو ٢٠٠ مليون دولار.

إن طبيعة هذه المشاريع التى تهدف إلى تأسيس بنى تحتية (شبكات طرق، طاقة) هى جزء صغير من سيناريوهات التعاون الإقليمى الهادفة لوصل إسرائيل بكل دول

المنطقة الشرق أوسطية، وهذا سيحقق عملية التشابك الاقتصادى بين العرب وإسرائيل.

وقد لوحظ فى مؤتمر الدار البيضاء «القمة الاقتصادية للشرق الأوسط وشمال أفريقياش والذى عقد فى ٣٠/١٠/١٩٩٤ والذى دعا له كل من «مجلس العلاقات الخارجية» فى نيويورك و«المنتدى الاقتصادى العالمى»، لوحظ أن أكبر الوفود المشاركة هو الوفد الإسرائيلى برئاسة رئيس الحكومة رابين وضم بيريز وسبعة وزراء آخرين من أصل ١٧ وزيراً، وإضافة إلى حاكم مصرف إسرائيل ورئيس جمعية المقاولين الإسرائيليين، وأكثر من ٥٠ رئيس مؤسسة تجارية إسرائيلية، ولا شك أن هذا المؤتمر جزء من الاستراتيجية الأمريكية الشاملة وقد أسند ملف الشرق الأوسط فى هذا المؤتمر إلى إسرائيل التى استحوذت على نصيب الأسد بالمشاريع الإقليمية التى قدمتها للمؤتمر وشملت روزنامة مشاريع التعاون الإقليمى الإسرائيلى كافة المجالات (بنى تحتية، تكنولوجيا، السياحة، الأسواق المالية، المياه، التبادل التجارى).

وقد حظى مشروعان اقليميان باهتمام أمريكى إسرائيلى كبير وهما «إنشاء بنك التنمية الإقليمى الشرق أوسطى» و«إنشاء منطقة إقليمية للتجارة الحرة». وهناك العديد من الأطراف العربية المشاركة فى المؤتمر التى أبدت قلقها فى الأطروحات الإسرائيلية. واعتبر البعض أن هناك تكاملاً مشبوها بين مؤتمر مدريد للسلام بصفته السياسية ومؤتمر الدار البيضاء بصفته الإقتصادية، وبذلك تدرس وتحل قضايا «المركز» عبر «الأطراف»[1] وقد كشفت القمة عن مغزى الدور الإسرائيلى وهو الإمساك بعجلة قيادة العربة التى تجر القاطرة الشرق أوسطية (اقتصادياً سياسياً) وعلى جميع دول المنطقة دفع القاطرة بكل جهدهم وامكاناتهم ثم الركوب فى الكابينة الخلفية للمسافرين، دون معرفة اتجاه وهدف الرحلة؟!. وتكمن أهمية قمة الدار البيضاء أنها كشفت عن ملامح النظام الإقتصادى الشرق أوسطى وخصوصاً موضوع «السوق الإقليمية له» والتى تحظى بأهمية كبيرة إسرائيليا وأمريكيا. وتعتبر النواة الأولى لهذه السوق مثلثية الشكل تضم كلا من (إسرائيل ـ الأردن ـ قطاع غزة والضفة الغربية). والصرة الموجودة فى ذهن أرباب الصناعة الإسرائيلية هى صورة «نافتا» وهى إتفاقية

(١) نبيل خليفة، المنعطف الاقتصادى يكمل المنعطف السياسى، الوسط، العدد، ١٢٣، ٢٤/١٠/١٩٩٤.

التبادل الحر فى شمال أمريكا (الولايات المتحدة ـ كندا ـ المكسيك) أى الإنسياب الحر للسلع الإسرائيلية[1] ويشبه هذا التجمع الاقتصادى الثلاثى أيضاً الاتحاد الاقتصادى القائم بين «دول البينيلوكس» الأوروبية الثلاث ذات الأحجام الاقتصادية الصغيرة (بلجيكا ـ هولندا ـ لوكسمبورج)[2] ثم بعد ذلك يتم تفعيل هذا التعاون الثلاثى بمركزية إسرائيل، والذى سيحظى بدعم عالمى كبير أمريكيا وأوروبيا، باعتباره الخطوة العملية الأولى التى يتوقف عليها نجاح «المشروع الشرق أوسطى»، ثم يتم تعميم هذا «المثلث النموذج» ليصبح أهم بؤرة جذب واستقطاب للشكل الهندسى ذى المركز الإسرائيلى، تدور حوله مجالات دائرية (محيط) تضم أطرافاً كل حسب أهميته وفائدته للمركز. وتقسم إسرائيل المنطقة الشرق أوسطية حسب الأهمية التجارية والمالية إلى أربع دوائر:

الدائرة الأولى: وتضم الأردن ـ قطاع غزة والضفة الغربية.

الدائرة الثانية: مصر ـ سوريا ـ لبنان.

الدائرة الثالثة: تضم دول مجلس التعاون الخليجى النفطية.

الدائرة الرابعة: تضم شمال أفريقيا (المغرب ـ تونس ـ الجزائر ـ وربما فى المستقبل البعيد ليبيا). ويعتبر محمود عبد الفضيل أن هدف سيناريوهات الـ«الفك» و«إعادة التركيب» لبلدان المنطقة العربية لكى تتلاءم مع متطلبات «النظام الشرقى أوسطى الجديد» ويؤكد على إحدى الدعائم الأساسية التى تنهض عليها الهندسة الجيو إقتصادية، وهى فصل «العراق عن المشرق وبلدان الشام ودمجه فى منظومة اقتصادية أمنية جديدة تشمل بلدان الخليج ـ وربما إذا تغيرت الظروف السياسية ـ إيران، وجمهوريات إسلامية فى أسيا الوسطى[3].

---

(١) غسان سلامة، أفكار أولية عن السوق الأوسطية، مجلة دراسات المستقبل العربى، العدد ١٧٩، ١٩٩٤/١ ص٦٨.

(٢) محمود عبد الفضيل، مشاريع الترتيبات الاقتصادية الشرق أوسطية، المصدر السابق، ص٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٠٨.

علاقة التسوية بالتنمية فى المنظومة الشرق أوسطية الجديدة

فى إحدى حلقات النقاش قال محاضر أمريكى: «إذا كنتم فى المنطقة العربية تريدون أمنا، نقوم بدور سياسى نشط لحل القضية الفلسطينية والصراع فى الشرق الأوسط فنحن نريد شيئين: النفط والتجارة»[١] أن التصريح الأمريكى السابق يعبر عن حقيقة موقف الإدارة الأمريكية طال مراحل التماس والاحتكاك مع المنطقة العربية والإسلامية. وهذا يبين أن العلاقة بين السياسة والاقتصاد فى الاستراتيجية الأمريكية هى علاقة مركبة ولا يمكن فكها عن بعضها، وأن ما يحدث الآن على ساحة الشرق الأوسط هو تأسيس لمفاهيم جديدة للاقتصاد السياسى يناسب الجغرافيا السياسية الجديدة للشرق الأوسط. ويعتبر نتاج تطور الفكر الصهيونى تداخلاً وتشابكا للمفاهيم «الإقتصادية» و«السياسية» و«الاستراتيجية» و«الأمنية» وهنا يكمن مغزى وخطر «الهيمنة الإقتصادية والتكنولوجية» للمشروع الإسرائيلى الشرق أوسطى[٢].

ومنذ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام وكنتيجة لحرب الكويت كان هناك إصرار أمريكى لرفع المقاطعة الاقتصادية العربية على إسرائيل، وقد بادرت بعض الدول الخليجية وكمكافأة للأمريكيين على دورهم فى حرب الخليج الثانية، بإلغاء المقاطعة العربية فى الدرجتين الثانية والثالثة. ويرجع تاريخ المقاطعة العربية لإسرائيل إلى آيار/ مايو ١٩٥١م عندما أصدر مجلس الجامعة العربية قراراً بإنشاء مكتب لمقاطعة إسرائيل اقتصادياً فى كل دولة عربية، وقد حدد المكتب الرئيسى لمقاطعة إسرائيل أهداف المقاطعة بأنها وسيلة ترمى إلى إحباط خطط الصهيونية العالمية للسيطرة على أسواق الوطن العربى، وبالتالى إنقاذ الصناعات العربية الناشئة من خطر الصناعات الإسرائيلية ومن ناحية أخرى تجميد إقتصادات إسرائيل ودفعها نحو التدهور حتى نستأصل هذه الشوكة التى غرزها أعداء الأمة العربية فى صميم وطنها[٣].

(١) يعقوب سليمان، حلقة نقاش بعنوان «التحديات الاقتصادية فى ظل التسوية الإقليمية» شؤون الأوسط، العدد ٣٢ اب/ أغسطس ١٩٩٤.

(٢) محمود عبد الفضيل، مصدر سابق، ص١٠١.

(٣) جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، المكتب الرئيسى لمقاطعة إسرائيل: مقاطعة إسرائيل وقواعدها وأهدافها، دمشق، منشورات المكتب الرئيسى لمقاطعة إسرائيل، اب/ أغسطس ١٩٥٦، ص٧، راجع فصلية قراءات سياسية، السنة الثانية، العدد الأول/ شتاء ١٩٩٢، ص١٣٤.

وتنقسم درجات المقاطعة إلى ثلاث:

١ ـ **الدرجة الأولى:** تشمل مقاطعة السل ذات شهادات المنشأ الإسرائيلى.

٢ ـ **الدرجة الثانية:** تشمل مقاطعة الشركات الأجنبية العاملة فى إسرائيل.

٣ ـ **الدرجة الثالثة:** تشمل مقاطعة الشركات الأجنبية التى لها علاقة بالشركات الإسرائيلية. وعلى الرغم من عدم الالتزام الجماعى الكامل بشكل مطلق لكل الأطراف حيث سجلت العديد من الخروقات لهذه المقاطعة مما أفقدها شيئاً من تأثيرها، وقد كشف مسؤولون إسرائيليون بأنهم استطاعوا «تسرى ما ثمنه ٣ مليارات دولار من البضائع نحو الأسواق العربية»، إلا أن هذه التجاوزات السلبية لم تلغ حقيقة الآثار السلبية على الاقتصاد الإسرائيلى. وقد ذكرت مصادر مختلفة أن حجم الخسائر الاقتصادية الإسرائيلية من جراء تطبيق المقاطعة بلغت خلال الخمسين عاما ٥٠ مليار دولار[١] قد أعلنت وزارة التجارة الإسرائيلية مؤخراً بأن المقاطعة العربية (الحظر الاقتصادى العربى) كان يكلف إسرائيل خسارة تجارية سنوية بقيمة ٤ مليارات دولار، وأن رفع هذه المقاطعة سيساعد على نمو حجم التجارة الخام لها بنسبة ٢٪ سنوياً[٢] وقد كشفت مصادر إسرائيلية بأنها تتوقع أن الدول الخليجية الست وعلى رأسها السعدية ستعلن قريباً عن عدة إجراءات رمزية تجاه إسرائيل ورفع المقاطعة عنها وأول الإجراءات سيكون السماح لشركات الطيران الإسرائيلية بمختلف مسمياتها باستخدام المجال الجوى للدول الست، أما الإجراء الثانى فسيكون السماح للبريد الإسرائيلى بالدخول إلى كل مكان على أرض تلك الدول، ومنها إلى إسرائيل أيضاً، وهو الشىء الذى يعتبره كبار ساسة الكيان الصهيونى «خطوة تاريخية» والإجراء الثالث هو السماح لأى أجنبى يحمل على صفحات جواز سفره ختم الدخول إلى إسرائيل أيضاً إلى الدول الست بلا قيد أو شرط، وسيسمح أيضاً للسفن الأجنبية التى سبق لها الدخول إلى الموانىء الإسرائيلية بأن ترسو فى الموانئ الخليجية وتفريغ شحناتها[٣] ومازالت

(١) نبيل خليفة، مصدر سابق.

(٢) صحيفة المجد الأردنية، ١٣/ ١٠/١٩٩٤.

(٣) المصدر السابق.

تمارس الإدارة الأمريكية وفى أعلى مستويات القرار السياسى ضغطا مباشراً على دول الخليج لإلغاء مبدأ المقاطعة العربية من أساسه وذلك بإلغاء الدرجة الأولى من هذه المقاطعة، وفى حال تم ذلك فإن الاقتصاد الإسرائيلى سيشهد قفزة خصوصاً لميزان التجارة الخارجية الإسرائيلى مع الشركات العالمية متعددة الجنسيات، أو بالنسبة لاتساع جغرافيا السوق للسلع والمنتجات الإسرائيلية، وكذلك الحصول على مصادر طاقة زهيدة الثمن. ولذلك فمن المتوقع أن الآثار الإيجابية لإلغاء المقاطعة العربية سيمس مجمل الحياة والنشاط الاقتصادى الإسرائيلى. وقد لاحظنا منذ مؤتمر مدريد للسلام بدايات الاختراق الإسرائيلى الاقتصادى للمنطقة قبل التطبيع السياسى حيث يعتقد الإسرائيليون أنه سيكون تحصيل حاصل لسياسة التطبيع الاقتصادى والتعاون الإقليمى بين العرب وإسرائيل.

الاقتصاد الإسرائيلى...

هناك أراء للعديد من الاقتصاديين يعتبرون أن الاقتصاد الإسرائيلى صغير نسبياً وقائم على الدعم العالمى ومما لا شك فيه أن هذا الاقتصاد فقير فى موارده الطبيعية من ثروات وأراضى خصبة ومياه، وبعيد نسبياً عن أسواقه الحيوية فى مجالات التجارة الخارجية وهذه المعطيات أدت إلى نقص نسبى فى مجالات التجارة الخارجية والمعتمدة على أحد العناصر التالية:

استغلال موارد طبيعية (باستثناء البحر الميت)، سلع أساسية، إنتاج على نطاق ضخم، استخدام أيد عاملة (Commodities) رخيصة، أرض ومياه، ميزة عالية فى مجال النقل، ميزة عالية فى مجال التسويق وتمويل دولى(١) . وسوف نستعرض بالتفصيل أهم المرتكزات التى يقوم عليها الاقتصاد الإسرائيلى وهى كالتالى:

أولاً: العامل الديمغرافى (الهجرة اليهودية ـ سياسة الاستيعاب): بلغ عدد سكان إسرائيل فى العام ١٩٩١م حوالى ٥.١ مليون نسمة، ويبلغ عدد اليهود فى إسرائيل ٤.١ مليون نسمة وعامل النمو الديموغرافى الإسرائيلى قائم أساسا على مقدار الزيادة

(١) ايلى ساغى، يعقوب شاينين، رفاعون لكلكلاة، عدد١، نيسان/ إبريل، ص١٥ ـ ٢٧. كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مصدر سابق.

الحاصلة من جراء الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وهذه الهجرة تؤثر بشكل مباشر على الاقتصاد الإسرائيلى وذلك بزيادة أعباء جديدة عليه (بناء المساكن والمستوطنات، زيادة فى نسبة الخدمات العامة، تفوير وظائف جديدة لاستيعاب العمالة الواردة،... وغيره) وبالرغم من أن الهجرة اليهودية تضيف أعباء على الاقتصاد الإسرائيلى فإنها من ناحية أخرى تمثل مجالاً استثمارياً حيوياً يخفف حجم الأعباء الحاصلة، فالهجرة اليهودية تشتمل على نسبة عالية من النخب ذات الكفاءة عالية الاختصاص والمؤهلات العلمية، وتؤكد ذلك الناطقة باسم وزارة الاستيعاب والهجرة اليهودية «ايرا بن شتريت» حول ثقافة اليهود السوفييت واختصاصهم كمثال، حيث كشفت بأن الذين وصلوا ما بين شهرى يناير إبريل ١٩٩٠م كان عدد أصحاب المهن والخبراء ١٩٩٧٥ شخصا، وعدد الأكاديميين وأصحاب الشهادات العلمية ٦٦٢٩ شخصا، وعدد المهندسين ٣٤٠٠ شخص إضافة إلى بعض من العمالة المؤهلة[١]. أن هجرة بهذا المستوى لهى عملية حقن المجتمع الإسرائيلى بالكفاءات والاختصاصيين الذين يجدون طريقهم سريعا إلى سوق العمالة، وعلى الخصوص فى مجالات التقانة «الكنولوجيا» والتى تمثل عصب الصناعة الإسرائيلية، والنقطة الأخرى أن أفواج الهجرة تسمح بتدفق مستمر للموارد المالية سواء بشكل مساعدات خارجية (أمريكية يهودية) أو ما يحمله اليهود القادمون من رساميل.

وقد وصل منذ عام ١٩٥٠ ـ ١٩٨٥م إلى إسرائيل حوالى مليونين وأربعمائة ألف مهاجر يهودى، وفى نفس هذه الفترة الزمنية بلغ إجمالى الموارد المالية التى تدفقت فقط من الولايات المتحدة الأمريكية ٣١ مليارا و٦٧٨ مليون دولار[٢]. وبحسب إحصاءات وزارة الخارجية الأمريكية فقد بلغ مجمع المساعدات الأمريكية لإسرائيل فى الفترة من ١٩٦٧ ـ ١٩٩٠م حوالى ٧٧ مليار دولار، أى بمعدل ١٦٥٠٠ دولار لكل فرد فى إسرائيل[٣]. وهناك علاقة وثيقة بين العامل البشرى (تشمل الهجرة أيضاً)

(١) الناطقة باسم وزارة الاستيعاب والهجرة اليهودية، ايرابن شتيرت، جريدة البيان الخلجية، ١٩٩٠/٧/١١.

(٢) حسين أبو النمل، الهجرة فى المنظور الاقتصادى، مجلة دراسات الوحدة، العدد ٧٣، تشرين الأول أكتوبر ١٩٩٠.

(٣) احصائية وزارة الخارجية الأمريكية، قراءات سياسية، السنة الثانية، العدد ١، شتاء ١٩٩٢ ص١٤٢.

وعامل التقانة (التكنولوجى) فى إسرائيل تكشفها أرقام المقارنة التالية: ففى إسرائيل يعمل فى مجال التكنولوجيا المدنية ٤٣٠٠٠ عامل يمثلون نسبة ١٤.٥ فى المئة من مجموع القوى العاملة الصناعية فى حين يعمل فى مصر فى هذا القطاع ٢٥٠٠٠ عامل، ولا تتجاوز إنتاجية العامل المصرى عشرة آلاف دولار سنوياً فى حين تبلغ فى إسرائيل ٥٨٠٠٠ دولار سنويا[١] . وهناك بعد آخر للهجرة اليهودية ذات أهمية جوهرية، وهو السعى الجاد لخلق حالة من اختلال التوازن الديموغرافى لصالح اليهود فى مقابل السكان الفلسطينيين مما يؤثر إيجابيا فى عملية الاستقرار والأمن داخل الكيان الإسرائيلى، ويساعد على عمليات التوسع والانتشار الاستيطانى الجغرافى بإنشاء المزيد من المستوطنات الهادفة إلى خلق واقعى إسرائيلى جديد، يذيب السكان والأراضى الفلسطينية فيه. وقد بلغت المخصصات الحكومية للانفاق الشامل لاستيعاب المهاجرين اليهود فى ميزانية عام ١٩٩١م نحو ٣.٥ مليار دولار[٢]، وهذه الميزانية تبرهن على الأهمية القصوى للهجرة اليهودية والتى تعتبر أهم مرتكزات الدولة العبرية وهناك أراء إسرائيلية تعتقد أنه فى حالة الربط بين المفهومين الأساسيين لموضوع الهجرة وعملية السلام، فسوف يكون بالإمكان الوصول إلى نمو اقتصادى فى السنوات القادمة بمعدل ٧ ـ ٨ فى المئة[٣].

ثانياً: الهيكلية الاقتصادية الإسرائيلية

يحظى قطاع الصناعة فى إسرائيل بأهمية خاصة بالمقارنة بالقطاعات الأخرى، ويغلب عليها طابع الصناعات التى تقوم بإنتاج منتجات بسيطة عالية التقانة لصناعات متقدمة فى الخارج ولأنشطة مرتبطة بالبحث والتطور الصناعيين، والجدول رقم (١) يبين المقارنة بين قطاعات الهيكل الاقتصادى الإسرائيلى المختلفة ونسبة مساهمتها فى الناتج المحلى والصادرات لعام ١٩٨٩م.

---

(١) صلاح صوبانى، التحديات الاقتصادية فى ظل التسوية، شؤون الأوسط العدد ٣٢ اب/ أغسطس ١٩٩٤.

(٢) التقرير الاستراتيجى السنوى للأهرام ٩٠ ـ ١٩٩١ ص١٧٦.

(٣) دافيد برودت، مدير شعبة الميزانيات العامة فى وزارة المالية الإسلامية ندوة انعكاسات العملية السياسية على نفقات إسرائيل الأمنية، رفاعون لكلكلاة، عدد ٢ تموز/ يوليو ١٩٩٤ وص ١٢٢١ : ٢٤١ كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مصدر سابق.

الجدول رقم (١)[١]:

القطاع	نسبة مساهمته فى الناتج المحلى	نسبة القوى العاملة إلى المستلزمة فى الاقتصاد	نسبة مساهمته من الصادرات
الزراعة	٣.١٪	٤.٧٪	٥٪
الصناعة	١٩.٦٪	٢١.٦٪	٨٩٪ دون الغذائية
الخدمات	٦٥.٣٪	٦٧.٨٪	-

وهناك قطاع آخر ذو أهمية كبيرة فى الهيكل الاقتصادى الإسرائيلى وهو قطاع البناء والإنشاء والذى مثل المجال الأول للاستثمار، حيث تراوح نصيبه ما بين ٥٠ - ٧٥ فى المئة من التكوين الرأسمالى فى إسرائيل منذ قيامها، وفى العام ١٩٨٩م بلغت هذه النسبة ٥٣.٢ فى المئة أى ٨ فى المئة فى الناتج المحلى الإجمالى الذى بلغ حوالى ٤٦.٠٣ مليار دولار عام ١٩٨٩م (يعادل مجموع الناتج المحلى لمصر وسوريا - والأردن لنفس الفترة)، واستوعب هذه القطاع حوالى ٥ فى المئة من القوى العاملة فى الاقتصاد[٢].

ويتكون هيكل الصناعة، الإسرائيلية (فى عام ١٩٨٩م) حسب القيمة المضافة فى ١ فى المئة صناعات الغذاء، ٩ فى المئة نسيج وملابس، ٢٩ فى المئة آلات ومعدات نقل، ٨ فى المئة كيماويات، ٣٩ فى المئة أخرى[٣]. وتفتقر الصناعة الإسرائيلية إلى

---

(١) Centrl Bureav of statistics (Jerusalem), Statistical Abstract of Israel, 1990.

قراءات سياسية، السنة الثانية، العدد ١، شتاء ١٩٩٢، دراسة بعنوان: انهاء المقاطعة العربية لإسرائيل: الأفاق الاقتصادية لعملية التسوية الدكتور رمضان عبد الله.

(٢) المصدر السابق:

Centrl Bureav of statistics, op, cit, pp 205, 336, 475.

قراءات سياسية، ص١٤٩.

(٣) حسين أبو النمل، الاقتصاد الإسرائيلى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٨، ص٣٨٧، قراءات سياسية، السنة الثانية، العدد ١، شتاء ١٩٩٢.

الخامات الأساسية التى تستوردها إسرائيل من الخارج، حيث استوردت عام ١٩٨٩م ما قيمته ٣ . ١٠ مليار دولار ماس خام وقود ومدخلات إنتاج أخرى من مجمل وارداتها البالغ قيمتها ٢ . ١٣ مليار دولار، أي بنسبة ٧٨ من المئة فى وارداتها[١].

ويغلب على قطاع الصناعة؛ صناعة الإلكترونيات الدقيقة، وهناك اهتمام كبير فى مجالات البحث والتطوير (R + D) حيث تحتل إسرائيل المركز الرابع فى العالم فى هذه المجالات، فقد أنفقت ما نسبته ٤٣ . ٢ فى المئة من دخلها القومى الإجمالى فى العام ١٩٨٩م، بينما المانيا انفقت ما نسبته ٨٩ . ٢ فى المئة، وأنفقت اليابان ٦٩ . ٢ فى المئة وقد حافظت إسرائيل على هذه النسبة من الانفاق فى الماضى[٢]، وتحاول تخصيص ميزانية أكبر لهذه البحوث التى تمثل بالنسبة للاقتصاد الإسرائيلى بندا مهما فى الاستثمار فى مجالات التكنولوجيا الصناعية عالية التقانة والحساسية. أما نسب الاتفاق فى مجال البحث العلمى على المستوى العربى ككل يصل إلى ٣ . ٠ فى المئة من الدخل القومى (مصر ١ فى المئة، الأردن ٣ . ٠ فى المئة)[٣].

ثالثاً: التجارة الخارجية الإسرائيلية

تعتبر السوق الأوروبية والأمريكية من أهم المجالات الحيوية للتجارة الخارجية الإسرائيلية وساهمت هذه العلاقة التجارية بين إسرائيل والغرب فى تنشيط الاقتصاد الإسرائيلى وزيادة نسبة الصادرات الإسرائيلية إضافة إلى أن انفتاح إسرائيل الاقتصادى على الغرب أدى إلى تحسين روابطها مع تلك الدول مما يزيد فى التحسين النوعى للسلع توطيد العلاقات المالية والاستثمارية والسياسية. ويشير الجدول رقم (٢) إلى أهم الشركاء التجاريين لإسرائيل فى الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٩٠م.

---

(١) عادل حسين، التطبيع المخطط الصهيونى للهيمنة الاقتصادية، القاهرة، مكتبة مدبولى، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص١٧، قراءات سياسية، مصدر سابق ص١٤٩.

(٢) إبراهيم الرقاص، التعاون الفلسطينى الأردنى لتطوير وادي الأردن، ورقة قدمت لمؤتمر مستقبل العلاقات الأردنية الفلسطينية، عمان، ١٠/١٢/١٩٩٤، الذى دعى له جمعية الاقتصاديين العرب القدس وجمعية الشؤون الدولية/ عمان.

(٣) صلاح صوبانى، مصدر سابق.

الجدول رقم (٢) أهم الشركاء التجاريين لإسرائيل[١]

	صادرات إسرائيل					
	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٨	١٩٨٩
الولايات المتحدة	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٨	١٩٨٩
اليابان	-	١.٩	٣٢.٣	٢٩٩.٩	٦٥٥.١	٧٥٧.١
بريطانيا	١١.١	٣٦.١	٨١.٤	٤٦٥,٥	٧٦٩,٦	٧٤٩.١
المانيا	-	٢١.١	٦٦,٨	٥٤٨.٦	٥٢١.١	٥٢٥.٨
بلجيكا ولوكسمبورج	١	١٣.٦	٣٨.٤	٢٣٨,٢	٣٨٦,١	٥٤٨.٦
فرنسا	٠.٢	٤,٦	٣٩.٧	٢٩٩.٧	٣٨٥.٧	٤٤١.٩
هولندا	١.٣	١٤.٧	٤٥.٤	٢٤٧.٧	٤٦١	٤٩٢.٨
هونغ كونغ	-	-	١.٢	٢٣.٧	٩٨	١١٣,٣
ايطاليا	١.٢	١٠.٦	١٤.٨	٢٨٤.٨	٣٨١.٥	٤٢٢.٧
جنوب افريقيا	١١.١	٣٦.١	٨١.٤	٧٩.٢	١٠٦.٦	١٤٦.١

وبالرجوع إلى الجدول رقم (٢) نستنتج أن أكبر ميزان للتجارة الخارجية لإسرائيل مع الولايات المتحدة، وقد ازدادت الصادرات الإسرائيلية إليها حيث بلغت عام ١٩٩٤م

(١) Statistical Abstract of Israel 1991, central Bureaw of statisics, Jerasale, 1991.

التقرير الاستراتيجى السنوى للأهرام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١.

حوالى ٥ . ٤ مليار دولار[١] وقد استطاعت إسرائيل غزو الأسواق الأوروبية بسلعها الصناعية التى صدرت منها إلى الولايات المتحدة ٣١ فى المئة، اليابان ٨ . ٧ فى المئة. وقد ذكرت وكالة فرانس برس (مؤخراً) ١١/٣/١٩٩٥م أن المبادلات التجارية بين إسرائيل وبريطانيا وصلت فى العام ١٩٩٤م إلى ٢ ، ٢ مليار دولار، وبذلك تعتبر بريطانيا ذات النصيب الأكبر فى علاقة المبادلات التجارية بين إسرائيل وأوروبا الغربية. أما من حيث نسب تطور التجارة الخارجية ونسبة العجز التجارى الحادث فيبينها الجدول رقم (٣) والذى يبين حركة الصادرات والواردات وميزان العجز التجارى فى العام ١٩٨٦ إلى النصف الأول من العام ١٩٩١م[٢].

جدول رقم (٣) تطور التجارة الخارجية الإسرائيلية والميزان التجارية (بالمليون دولار)[٣].

السنة	الصادرت الإسرائيلية الصافية	الواردات الإسرائيلية الصافية	عجز الميزان التجارى
١٩٨٦	٦٩٣٢.٩	٩٢٨٥.٠	٢٣٥٢,١
١٩٨٧	٨٢٠١.٤	١١٤٥٥.٢	٣٢٥٣.٨
١٩٨٨	٩٤٤٥.٤	١٢٢٨٧.٢	٢٨٤١.٨
١٩٨٩	١٠٦٦٩.٣	١٣٠٢٧.٤	٢٣٥٨.١
١٩٩٠	١١٥٧٥.٧	١٥١٠٤.٠	٣٥٢٨.٣
١٩٩١ النصف الأول فقط	٥٥٠٠.٠٠	٨٠٠٠.٠٠	٢٥٠٠.٠٠

(١) احصائية وزارة التجارة الخارجية الأمريكية، الحياة، ٩/٢/١٩٩٥.

(٢) صلاح صوباتى، التحديات الاقتصادية فى ظل التسوية الإقليمية، العدد ٣٢، اب/ أغسطس ١٩٩٤.

(٣) المصدر للسنوات فى ١٩٨٦ ـ ١٩٩٠.

Statistical Abstract of Israel 1991, central Bureaw of statistics, Jerusalaw, 1991.

المصدر للنصف الأول فى عام ١٩٩١: ها تسوقيه، زيادة المعجز فى الميزان التجارى الإسرائيلى ١٥/٧/١٩٩١ التقرير الاستراتيجى السنوى للأهرام (١٩٩٠ ـ ١٩٩١).

وقد قدرت وزارة المالية الإسرائيلية حجم الخسائر الإسرائيلية بسبب أزمة الكويت ١٩٩١م بنحو ٣ مليارات دولار وتتوزع كالتالى:

١ مليار بسبب تراجع حصيلة إسرائيل من السياحة وارتفاع أسعار النفط ١.٥ مليار دولار بسبب تراجع الصادرات، ٠.٥ مليار دولار كمدفوعات تأمين وتعويض للشركات التى تضررت بسبب الأزمة والحرب[١].

أما على مستوى التبادل التجارى الإسرائيلى مع الاتحاد السوفيتى (سابقاً) وكتلة أوروبا الشرقية فهى آخذة فى الازدياد والتطور حيث لم تكن تزيد على ١٣١.٣ مليون دولار من إجمالى تجارة إسرائيل الخارجية فى العام ١٩٨٨، وقد بلغت ٢٤٨ مليون دولار عام ١٩٩٠م بزيادة نسبتها ٣٨ فى المئة مقارنة بالعام ١٩٨٩م.

وقد بلغت ٤٥٠ مليون دولار تقديراً فى العام ١٩٩١م، أما الواردات الإسرائيلية فى شرق أوروبا والاتحاد السوفيتى السابق فبلغت نحو ٣٠٠ مليون دولار[٢].

تحدثنا عن التجارة الخارجية الإسرائيلية والجدول رقم (٤) يبين الصادرات الإسرائيلية لعام ١٩٩٢م واحتمالات ملاءمتها للأسواق العربية.

جدول رقم (٤) الصادرات الإسرائيلية لعام ١٩٩٢م واحتمالات التصدير الدول العربية[٣]:

السلع	ملايين الدولارات	نسبتها المئوية من المجموع
صادرات لاحتمال للمتاجرة بها	٣٨٩٠	٤٤٪
صادرات عسكرية	٢٣٠٠	٢٦٪

(١) التقرير الاستراتيجى السنوى للأهرام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ مصدر سابق، ص١٧٧.

(٢) التقرير الاستراتيجى السنوى للأهرام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، مصدر سابق، ص١٨٦ . ١٨٧.

(٣) الجدول رقم ٤، الفصلية الاحصائية للتجارة الإسرائيلية تموز ايلول يوليو سبتمبر ١٩٩٤، الاقتصاد والتسوية، الأفكار والمشاريع الإسرائيلية، كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، عدد صفر ٤، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤.

السلع	ملايين الدولارات	نسبتها المئوية من المجموع
بوتاس، فوسفات، وأسمدة نفط مكرر، بتروكيماويات ومواد متفجرة	١٢٥٠	١٤٪
مجالات يوجد احتمال نظرى للمتاجرة بها	٤٩٣٤	٥٦٪
الكترونيات مدنية	١٢٠٠	١٢٪
ألبسة وأقمشة	٩٤٦	١١٪
مجوهرات وأحجار كريمة	٤٨٥	٥٪
مطاط وبلاستيك	٤٥١	٤٪
مواد غذائية (بدون حمضيات)	٣٢٨	٤٪
آلات	٣٢٥	٤٪
منتجات معدنية	٣٠١	٣٪
عصير حمضيات	٢٣٠	٣٪
مواد كيمياوية وأدوية	٢٢١	٣٪
سلع أخرى	٤٤٧	٦٪
المجموع	٨٨٢٤	١٠٠٪

المصدر: الفصلية الإحصائية للتجارة الإسرائيلية تموز ايلول/ يوليو سبتمبر ١٩٩٤م.
من دون الماس، الضفة الغربية وقطاع غزة.

ويشير الجدول رقم ٤ إلى ارتفاع نسبة الصادرات العسكرية الإسرائيلية والبالغة ٢٦٪ من مجموع السلع المصدرة وهذه السلع لا يوجد احتمال للتبادل التجارى مع الدول العربية أما السلع الأخرى فهناك حجم محدود لملاءمتها للتصدير إلى الدول العربية.

ومما سبقت نستنتج أن أهم سمات الاقتصاد الإسرائيلى هى الهجرة اليهودية والتجارة الخارجية التى تمنح الاقتصاد الإسرائيلى صفته الدولية وقطاع الخدمات والسياحة حيث من المرتقب ازدياد واتساع نشاطه وخصوصاً الخدمات البنكية والاستثمارات ويرى خبراء ماليون أن الشركات الإسرائيلية سوف تستطيع استقطاب استثمارات أجنبية لا تقل عن مليارى دولار فى العام ١٩٥٥م بسبب الجاذبية التى باتت تتمتع بها هذه الشركات على ضوء الآفاق الجديدة للسلام فى الشرق الأوسط ومن أهم الأهداف الإسرائيلية فى هذا المجال هو تحويل إسرائيل إلى أهم مركز مالى فى الشرق الأوسط بحيث تصبح الممر الرئيسى للاستثمارات سواء الخارجة من الشرق الأوسط إلى العالم أم الاستثمارات الأجنبية الساعية إلى دخول المنطقة، وبذلك تحتل إسرائيل مكانة المركز المالى السابق لبيروت أو الحالى لدبى والمنامة، وهنا نؤكد أن قوة إسرائيل الاقتصادية لا تعتمد على امكاناتها ومقوماتها الاقتصادية والتقنية الذاتية. ولا فى المساعدات والدعم الأمريكى لها فقط بل تكمن فى اللوبى الضخم المسمى الشركات الإسرائيلية اليهودية معززاً بالدور الفعال للجاليات اليهودية المنتشرة فى أوروبا وأمريكا، على ذلك فإن «إسرائيل ليست دولة محدودة الكيان والجغرافيا والامكانات»[١].

اقتصاديات الدول العربية (سمات عامة)

سنركز فى بحثنا على المنطقة العربية لأسباب جيوبوليتيكية وباعتبارها كانت تمثل مركز الاحتكاك المباشر مع إسرائيل، والأخذ بعين الاعتبار أن انطلاقة الشرق الجديد

(١) وليد نويهض، مستقبل التسوية بين العرب وإسرائيل: اتجاهات التطبيع.

ستبدأ من هذا المركز المهم وعلى الخصوص من الدول العربية المحيطة بإسرائيل «دل الطوق العربى»، ثم سيتم تعميم هذا النموذج من المركز الشرق أوسطى ليحتوى الأطراف فى الشرق الأوسط. ويقدر سكان الدول العربية فى العام ١٩٩٥ بـ٦. ١٩٨ مليون نسمة ومن المتوع أن يصل فى العام ٢٠٠٠ إلى ٦. ٢٨٨ مليون نسمة[١].

وتبلغ نسبة البطالة ٣٥٪ من مجموع القوى العاملة العربية، وتمثل فيه الباحثين والدارسين العلميين ١. ٠٠٪ من مجموع القوى العاملة العربية (بينما تبلغ ٥. ١٪ فى أمريكا) أما القوى البشرية المهنية الماهرة فتتراوح نسبتهم من ١٠ ـ ١٢٪ من القوى العاملة العربية (بينما تشكل من ٩٠ ـ ٩٥٪ فى الدول المتقدمة صناعيا)[٢].

إن السياسات الاقتصادية العربية قائمة بشكل أساسى على الاستهلاك وهى تستورد منتجات التكنولوجيا أكثر من الاهتمام باستيراد التكنولوجيا وبنائها. والسمة الغالبة على صادرات الدول العربية هى الوقود والمعادن التى تشكل فى العديد من صادرات هذه الدول نسب عالية (٩٧٪ ليبيا، ٩٦٪ الجزائر، ٩١٪ فى الامارات والسعودية)[٣] ليرزح العالم العربى تحت عبء مديونية يزداد باطراد ولا تستثنى الدول النفطية من هذا العبء.. وقد بلغت ديون الأردن الخارجية ٨٧. ٦ مليار دولار مصر ٨ مليارات دولار (بدون الديون العسكرية التى تتجاوز ٢٠ مليار دولار) أما الديون العامة لدول الخليج الستة والناجمة عن هبوط أسعار النفط وتحملها لمعظم نفقات حرب الخليج الثانية فبلغت ١٠٧ مليارات دولار[٤] وتصل مديونية تونس والمغرب إلى ٦٥٪ من ناتجهم المحلى[٥] أما الحركة السياحية فى الدول العربية فدخلها المالى محدود حيث قدر حتى نهاية عام ١٩٩٣ بـ ٥ مليارات دولار لدول المشرق

---

(١) عدنان البرجى، سوق العمل العربى الواقع والتحديات، السفير، ١٩٩٤/٩/١٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) The World Bank, op. cit., 235, 234.

قراءات سياسية، العدد الثانى، ربيع ١٩٩٢، ص١٢٧.

(٤) مدير بنك الخليج العربى، قضايا دولية، عدد ٢٥٣، ١٩٩٤/١١/٧، ص٨.

(٥) الاقتصاد والتسوية، كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مصدر سابق،ص١٤.

العـربى ٥ . ٢ مليـار لدول المغـرب العـربى وبلغت نسبـة السـيـاح فى الشرق الأوسط ٨ . ٢٪ فى اجمالى الايرادات العالمية البالغة ٣٠٣ مليارات[١] وتصل أقساط التأمين فى الدول العـربيـة إلى أربعـة مليـارات دولار من اجـمالى أقـسـاط التأمـين فى الدول العربيـة إلى أربعة مليـارات دولار من اجمالى أقساط التأمين فى العالم البالغة ٩٠٠ مليـار دولار أى بمعـدل ٢٠ دولاراً للفـرد مـقـابل المعـدل العـالمى البـالغ ١٤٥ دولاراً للفرد[٢] واقـتصاديات الدول العربيـة عبـارة عن وحدات متناثرة ينعدم التـكامل فيـما بينها مما يجعلهـا هشة وقابلة لاختراق وهيـمنة الاقتصاديات الأكثر تقدماً ومن المعلوم أن اقـتصاديات الدول العـربيـة مرتبطة بعـجلة الحركة الرأسمالية الغربيـة ومن سمات العلاقات التجارية العربيـة مع الغرب أنها عـلاقات محورية انفرادية عـمودية على حساب العلاقة الاقتصادية الأفقية فيما بينها، وتشير الاحصاءات إلى أن رأس المال العربى المستثمر فى الخارج يصل إلى أكثر من ٨٠٠ مليار دولار بينما ظلت المشاريع والاستثمارات العربيـة المشتركة (التبادل البينى العربى) فى حدوده الدنيا ٣ . ٧٪ من اجـمالى الصادرات و٩٪ من اجمـالى الواردات لعـام ١٩٩٠م ولم تزد الاسـتـثـمـارات العربيـة البينية عن ١٠ مليـارات دولار[٣] وقد ذكر التقرير الاقـتصادى العربى الموحد لعام ١٩٩٤: أن معظم الدول العربيـة كان قد واجه مشاكل اقتصادية فى الثمانينات أبرزها السيـاسات الداخلية التوسعيـة التى ترتبت عليها برامج انفاق حكومية ضخمة مـقـارنة مع الايرادات الحكوميـة الضـعـيـفـة مما أدى إلى تنامى العـجز فى الموازنات الحكوميـة وزيادة ضغوط التضخم وارتفاع الديون الخارجية للإسهام فى تحويل العجز وهناك العديد من التطورات السلبيـة التى أثرت فى ميزان المدفوعات أبرزها ارتفاع أسعار الفوائد وانخفاض أسعار النفط والمواد الخام وعدم قـدرة النظام المالى للقيام بدور الوساطة بين المدخرين والمستثمرين.

(١) تقرير المجموعة العربية للتأمين (اريج)، الوسط، عدد ١٥٩، ١٣/٢/١٩٩٥، ص٤٣.

(٢) التـقـرير الاقـتـصـادى العربى الموحد لعـام ١٩٩٢ تحرير صندوق النقد العربى، ص١١٨، السـفـيـر ٢٩/١٢/١٩٩٤.

(٣) التـقـرير الاقـتـصـادى العـربى الموحد لعـام ١٩٩٢ تحرير صندوق النقد العـربى، ص١١٨، السـفـيـر ٢٩/١٢/١٩٩٤.

ونضيف هنا عوامل أساسية أخرى مثل فساد النظام السياسى ونشوء فئة الطفيليين والسماسرة المستفيدين فى إلحاق الاقتصاد العربى بالخارج هناك عوامل ذات الصلة بعدم اكتمال البنى التحتية وغياب الوجه التحديثى فى الإدارة والتكوين وامتلاك التكنولوجيا مما خلق واقعاً اقتصادياً عربياً ممزقا ومتخلفا وهامشيا وملحقا بركب الغرب وهذه العوامل تمهد الطريق إلى هيمنة اقتصادية اسرائيلية على المنطقة فى سياق النظام الاقتصادى الشرق أوسطى.

إسرائيل والعالم العربى

يشير الجدول رقم ٥ إلى المؤشرات الأساسية للدول العربية وإسرائيل لعام ١٩٩١

الجدول رقم (٥)[١]

الدول	عدد السكان بالملايين	الناتج القومى بالمليارات	الناتج للفرد بالدولار	الاستيراد بالمليارات
الدول العربية مجتمعة	**١٧١**	**٣٣٧**	**١٩٦٧**	**١٤٣**
الاقتصاد الفلسطينى	**٢**	**٤**	**٢٠١٧**	**١**
الدول المجاورة	**٧٤**	**٥٤**	**٧٣٤**	**٢٤**
مصر	**٥٧**	**٣٠**	**٥٣٥**	**١٤**
الأردن	**٤**	**٤**	**١٠٣٤**	**٤**
سوريا	**١٣**	**٢٠**	**١٥١٠**	**٦**

(١) البنك الدولى، منظمة التعاون الاقتصاد والتنمية، نشرات مختلفة، كراس الاقتصاد والتسوية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية مصدر سابق ص٦.

ويجدر الإشارة هنا أن الناتج القومى المدرج فى الجدول والمتعلق بالاقتصاد الفلسطينى لم يشمل التحويلات للمغتربين، وكذلك العمالة الفلسطينية فى إسرائيل حيث تمثل العمالة ثلث الناتج القومى فى الضفة والقطاع.

الدول	عدد السكان بالملايين	الناتج القومى بالمليارات	الناتج للفرد بالدولار	الاستيراد بالمليارات
المملكة العربية السعودية	١٥	٩٧	٦٥١٥	٦١
المغرب	٢٦	٣٠	١١٥٦	١١
تونس	٨	١٥	١٧٧٥	٦
الخليج دول أخرى	٤٧	١٣٨	٢٩٥٧	٤٠
إسرائيل	٥	٦٠	١٢٢٢٧	٢٤
المجموعة الأوروبية	٥٩٤	١٠٨٤٢	١٨٢٥٢	٢٣٣٠
الولايات المتحدة	٣٤٢	٥٣٤٢	١٥٦٢٠	١٦٠٧
المغرب	٢٥٢	٥٥٠٠	٢١٨٢٥	٧٢٦

المصدر: البنك الدولى، منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، نشرات مختلفة.

وبالرجوع إلى الجدول رقم ٥ تلاحظ أن الناتج القومى لإسرائيل يبلغ حوالى مجموع الناتج القومى لكل من (مصر والأردن وسوريا) والذى بلغ فى العام ١٩٩١ ٦٠ مليار

(١) مارتن انديك، خطاب ألقاه فى ١٨/٥/١٩٩٣ أمام معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى ونشرته:
Mess, 31 may 1993, pp. -ds

ويعتبر انديك المدير العام السابق لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا فى مجلس الأمن القومى الأمريكى والسفير الأمريكى الجديد فى إسرائيل، فصلية دراسات فلسطينية/ بيروت العدد ٥١ صيف ١٩٩٣.

(٢) برنارد لويس، مستشرق بريطانى أمريكى مشهور، وهو الآن استاذ فخرى فى كرسى كليفلاند دورج لدراسات الشرق الأدنى فى جامعة برنستون بالولايات المتحدة. مقالته بعنوان قراءة جديدة للشرق الأوسط، والتى نشرت ترجمتها خصيصا «لقراءات سياسية» بأذن من مجلة فورن أفير Foreign Af-fairs النص الانجليزى فى خريف ١٩٩٢.

دولار وأن دخل الفرد الإسرائيلى السنوى والبالغ لنفيس العام ١٢٢٢٧ دولارا يعتبر أعلى مستوى فى المنطقة وبالتأكيد أن لهذه الأرقام مغزى ودلالة فى غاية الأهمية عند الحديث عن التباينات الاقتصادية بين الدول العربية وإسرائيل وسوف نحاول فيما يلى التعرض للتفاعلات الدينامية لاقتصاديات الكتل العربية مع الاقتصاد الإسرائيلى من منظور النظام الشرق أوسطى الجديد وسنركز على الدوائر الأربع التالية:

أولاً: الأراضى المحتلة للأردن

إن اقتصاد الأراضى المحتلة وعلى الخصوص قطاع غزة والضفة الغربية لا يمثل أى وزن يذكر بالنسبة للاقتصاد الإسرائيلى حيث يشكل ناتجه القومى نحو ٥ فى المئة من الناتج الاسرائيلى (انظر جدول ٥) ويعانى هذا الاقتصاد من مشاكل جوهرية وأساسية فى هياكله المختلفة فالبنى التحتية لهذا الاقتصاد قد أصابها الخراب والدمار كاملاً وتعتبر علاقة الأراضى المحتلة بإسرائيل «علاقة استعمارية نموذجية» وقدر الاقتصاد الفلسطينى يوسف الصايغ احتياجات البنى التحتية الأساسية للضفة الغربية والقطاع فى تقرير قدمه إلى منظمة اليونسكو بحوالى ١١.٦ مليار دولار حتى عام ٢٠٠٠ بينما اقترح البنك الدولى احتياجات مشروعات البنية الأساسية للضفة والقطاع بمبلغ ٤.٣ مليار دولار حتى عام ٢٠٠٠ وقد بلغت نسبة البطالة أرقاماً قياسية فى المنطاق الفلسطينية إذ يقدر معدل البطالة فى الضفة الغربية ما بين ٣٠ ـ ٣٥ فى المئة من اجمالى القوى العاملة فى حين يتجاوز هذا المعدل ٤٠ ـ ٤٥ فى المئة فى قطاع غزة[١].

ويعتمد الناتج المحلى لاقتصاد الضفة والقطاع بشكل أساسى على نسبة التحويلات المالية الخارجية حيث بلغت فى الفترة ما بين ١٩٨٢ ـ ١٩٨٥ حوالى ٤٢.٣ فى المئة فى القطاع مقابل ٢٥.٢ فى المئة فى الضفة وقد تضررت هذه التحويلات بعد حرب الكويت بنسبة كبيرة وتتراوح معدل البطالة لنفس الفترة ١٩٨٥م حوالى ١٥٢ ألف عامل فى قطاع غزة مقابل ٩٠ ألف عامل فى الضفة[٢].

(١) الوسط، العدد ١٤٢، ١٧/١٠/١٩٩٤، ص٤٠.

(٢) خليل الشقاقى، الضفة والقطاع (العلاقات السياسية والادارية المستقبلية)، ١٩٩٤ مطبوعات PAS-SIA الجمعية الفلسطينية الأأاديمية للشئون الدولية، القدس، ص٥٢.

وتمثل التجارة السلعية بين إسرائيل والمناطق الفلسطينية حسب احصائية عام ١٩٩٢م نحو ٩٠ فى المئة من واردات الضفة والقطاع تأتى فى إسرائيل وأن صادرات الضفة والقطاع بلغت ٨٥ فى المئة إلى إسرائيل»[١] ويوضح الجدول رقم ٦، ٧ تفصيلات التجايرة البينية (صادرات واردات) منذ العام ١٩٦٨: ١٩٩٢م وتشير الاحصائيات أيضاً إلى أن نصيب الزراعة والغابات والصيد للقطاع والضفة يصل إلى ٣٩.٥ فى المئة من اجمالى الناتج المحلى الفلسطينى[٢].

الجدول رقم ٦ الواردات السلعية للضفة الغربية وقطاع غزة، حسب الأسواق (المقياس مليون دولار أمريكى).

العام	المجموع	نسب النصيب الكلى المئوية		
		إسرائيل	الأردن	البلدان الأخرى
١٩٦٨	٦٩.٩	٧٦.٥	٧.٥	١٦
١٩٧٥	٤٠٦.٩	٩١.٢	١.٣	٧.٥
١٩٨٠	٦٦٤.٦	٨٧,٧	٠.٨	١١.٥
١٩٨٧	١٠٥١.٢	٩١.٤	٠.٩	٧,٧
١٩٩٢	١٢٣٠.٦	٨٩.٧	٠.٨	٩,٧

المصدر: المكتب المركزى للاحصاء نشرات احصائية عن إسرائيل ١٩٩٣.

الجدول رقم ٧ الصادرات السلعية للضفة الغربية وقطاع غزة حسب الأسواق (المقياس مليون دولار أمريكى)[٣].

(١) بن زيون زيلبر فارب آثار عملية السلام على الاقتصاد الإسرائيلى، شؤون إسرائيل، مجلد ١ عدد ١، خريف ١٩٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٤.

(٣) جدول رقم ٦، ٧، المكتب المركزى للاحصاء، نشرات احصائية فى إسرائيل ١٩٩٣، المصدر السابق.

العام	المجموع	نسب النصيب الكلى المئوية		
		إسرائيل	الأردن	البلدان الأخرى
١٩٦٨	٣٥.٥	٤٣.١	٤٣.٧	١٣.٢
١٩٧٥	١٩٢.٩	٩٣.٩	٢٦.٨	٩.٣
١٩٨٠	٣٤٥.٢	٦٥.٦	٣١.٣	٣.٣
١٩٨٧	٣٨٥.٣	٧٨.٨	٢٠.٣	٠.٩
١٩٩٢	٢٩١.٤	٨٥.٤	١٢.٩	١.٧

المصدر: المكتب المركزى للاحصاءات، نشرات احصائية عن إسرائيل ١٩٩٣.

مما سبق نصل إلى حقيقة قاطعة أن الاقتصاد الفلسطينى ومرافقه الأساسية ستبقى ملحقة وتابعة للمركز الإسرائيلى وتدور فى فلكه ولن يحدث الفكاك من هذا المركز بل على عكس ستزداد أحكام السيطرة الإسرائيلية على هذا الاقتصاد مخافة أن يحدث المحرم الإسرائيلى وهو قيام كيان فلسطينى مستقل (حتى لو كان مشوهاً ملحقاً) ولذلك فالسلام مع منظمة التحرير وحسب رأى عاليزا فالخ جاء أولاً وقبل أى شىء آخر لإيجاد حل للمشكلة الضميرية الأكثر حساسية فى المنطقة بينما السلام مع الأردن يهدف إلى تطبيع الوضع الجيوسياسى لإسرائيل[١] وهذا يفسر سبب السرعة الإسرائيلية لإنجاز المسار التفاوضى مع الأردن والذى وعلى الرغم أنه بدأ لاحقاً عقب اتفاقية غزة أريحا إلا أنه قفز عليه زمنيا وعمليا بحجم مشاريع التعاون الثنائى والاتفاقات المبرمة بين الطرفين.

ويبلغ عدد سكان الأردن أربعة ملايين نسمة والناتج القومى الاجمالى لها حوالى ٤ مليارات دولار (راجع الجدول ٥ وتبلغ نسبة الصادرات فى عام ١٩٩١م حوالى ٢٩.٨ فى المئة من النتاج القومى وتبلغ نسبة الواردات فى نفس العام ٦٦.٢ فى المئة

(١) عاليزا فالخ، دافار، ١٩٩٤/٧/٢٩، كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مصدر سابق.

من الناتج القومى[١] وتصل ديون الأردن الخارجية كما أشرنا سابقاً ٦.٨٧ مليار دولار (ألغت أمريكا مؤخراً منها حوالى ٩٠٠ مليون دولار).

أما معدلات البطالة فى الأردن فبلغ خلال العام ١٩٩٣م ازدياداً مقارنة مع معدلات البطالة المسجلة عام ١٩٩٢م وحسب تقديرات وردت فى التقرير السنوى لوزارة العمل الأردنية حيث جرى تسجيل ١٦١٤٩٢ عاطلاً عن العمل فى الأردن خلال العام ١٩٩٣ وهؤلاء يشكلون ١٨.٨ فى المئة من قوة العمل الأردنية[٢] . وقد بلغ النمو الاقتصادى الذى حققه الأردن فى العام ١٩٩٤م حوالى ٥.٧ فى المئة وهو رقم قريب من الأرقام لعام ١٩٩٣م البالغ ٥.٨ فى المئة وقد حصل الأردن على قروض ومنح اجمالية بلغت ٦٥٧ مليون دولار فى العام ١٩٩٤[٣] وسجل حجم العجز الرسمى فى الميزانية لعام ١٩٩٥م حوالى ٧١ مليون دولار إلا أن الاقتصاديين يقولون أنه يصل إلى ٦٥٢ مليون دولار باستبعاد المساعدات والمنح الأجنبية المدرجة الآن فى الميزانية[٤] وحسب ملاحظات البنك الدولى التى أبلغها إلى الحكومة الأردنية وتتركز بصورة أساسية على وجوب تحسين الإدارة الاقتصادية، وضرورة التنبه إلى المخاطر التى قد تنشأ من الانفتاح على الاقتصادين الإسرائيلى والفلسطينى وطبقاً لتقديرات البنك الدولى فإن الأردن يحتاج إلى معدل نمو اقتصادى لا يقل عن ٦ فى المئة سنويا وهى مسألة لا يمكن تحقيقها وهناك قضية أخرى هى التداول بالدينار فى المناطق الفلسطينية والتى تعرض الدينار إلى خطر حقيقى ويقدر المسؤولون الأردنيون المبالغ المتداول فى الدينار فى المناطق الفلسطينية فى ٤٠٠ ـ ٦٠٠ مليون دينار وهذا رقم كبير بالنسبة لاقتصاد مثل الأردن. وهذه الحالة يطلق عليها نائب رئيس البنك الدولى لشؤون الشرق الأوسط (كايوكوغ مايزر) «المناخ الاقتصادى السريع العطب».

ويعلق غسان سلامة حول العلاقة المثلثية (إسرائيل الأردن الأراضى الفلسطينية)

---

(١) احصائية مقارنة لعام ١٩٩١ والمجلة، العدد ٧١، ٩٣/٩/٢٦.

(٢) تقرير سنوى لوزارة العمل الأردنية لعام ١٩٩٣، قضايا دولية، العدد ٢٤٥، ١٩٩٤/٩/١٢.

(٣) الوسط، العدد ١٥٤، ١٩٩٥/١/٩.

(٤) السفير، ١٩٩٤/١٢/٢٨ (البرلمان الأدرنى يقر ميزانية العام ١٩٩٥).

بأنها علاقة غير متكافئة وأشار إلى الاختلالات التالية فى هذه العلاقة:

١ ـ هناك خلل هائل فى حجم الاقتصاديات الثلاثة حيث يتفوق حجم الاقتصاد الإسرائيلى على نظيره الأردنى ١٥ مرة ويتفوق على اقتصاد الضفة والقطاع أكثر من ٢٠ مرة.

٢ ـ هناك خلل فى توزيع الناتج على السكان فهو أقوى فى إسرائيل ٦ مرات منه فى الضفة والقطاع وأكثر من ١١ مرة فى إسرائيل منه فى الأردن.

٣ ـ هناك خلل فى موقع الصناعة داخل الناتج القومى فهى تمثل ٢٢ فى المئة من الناتج الإسرائيلى وحوالى ١٣ فى المئة فى الأردن وفقط ٧ فى المئة فى الضفة والقطاع.

٤ ـ هناك خلل فى موضوع العمالة وفيه ستكون فلسطين (وربما الأردن) فى موضع ايفاد عمالة واسعة نحو الاقتصاد الإسرائيلى وإذا حدث ذلك يعنى مزيداً من الارتباط بصورة دونية بالاقتصاد الإسرائيلى وفى حالة ارتفاع معدل البطالة فى إسرائيل ستعمل الأخيرة على سد الطريق أمام العمالة الوافدة[1].

وبالنسبة لمسودة المشاريع الإسرائيلية المقترحة للتعاون مع الأردن والتى تهدف فى المرحلة الأولى صياغة تشكيلة من الخيارات للتعاون فى مجال التنمية الاقتصادية فى وادى الغور وادى عربة وخليج العقبة وايلات لقد عقب عليها يوسى فاردى العضو المشارك فى اللقاء الثلاثى الذى جمع ممثلين عن إسرائيل وأمريكا والأردن فى باريس خلال شهر تشرين الثانى نوفمبر ١٩٩٣م وتم صياغة مسودة مشاريع التعاون الأردنى الإسرائيلى حيث ذكر أن بعض هذه المشاريع يسم فى عملية التطبيع أكثر مما يسهم فى دعم الاقتصاد لأن هذه المشاريع لن تحقق أرقاماً قياسية جديدة فى الناتج المحلى الاجمالى الإسرائيلى[2].

---

(١) غسان سلامة، أفكار أولية عن السوق الأوسطية، مصدر سابق.

(٢) الاقتصاد والتسوية: الأفكار والمشاريع الإسرائيلية، كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مصدر سابق ص٤٦.

وهذا ما أكده تصريح وزير الصحة الإسرائيلي السابق الجنرال المتقاعد افرايم سنيه معلقاً على إعلان واشنطن بين الأردن وإسرائيل «بأن هذا لم ينه حالة الحرب بينهما فقط بل كان دليلاً على نجاح إسرائيل فى تدمير بنية مؤتمر مدريد للسلام والقضاء على مفهوم المفاوضات الشاملة المبنى على التنسيق بين الأطراف العربية»[١].

ثانياً: مصر وسوريا

قيم الصحفى المصرى محمد حسنين هيكل مرحلة السلامه المصرية الاسرائيلية قائلاً[٢] : «أن الفقر فى مصر يتسع، والدخل يتراجع، والإحساس العام لما جرى فى مصر خلال العشرين سنة الأخيرة أصاب الشعب المصرى بنوع من الإحباط فمنذ كامب ديفيد لم يأخذ الشعب المصرى شيئاً بل أخذوا منه بعض الذى كان عنده» هذه الكلمات تختصر صورة الوضع الاقتصادى فى مصر. ويبلغ عدد سكان مصر الآن حوالى ٦٠ مليون نسمة ويتراوح الناتج القومى السنوى إلى حوالى (مليار دولار ويبلغ دخل الفرد السنوى حوالى ٥٣٥ دولاراً (راجع الجدول رقم ٥ أما فى عام ١٩٩٣ فبلغ الناتج القومى المصرى ٨ . ٤٠ مليار دولار ودخل الفرد السنوى ٧٤٠ دولار[٣] وتستورد مصر معظم السلع الغذائية الأساسية وبالرغم من المساعدات الأمريكية لمصر (معونات وهبات، أو شطب لبعض ديونها) إلا أن ركود الاقتصاد المصرى مستمر وقد بلغ اجمالى المساعدات الاقتصادبة الأمريكية لمصر منذ عام ١٩٧٥ وحتى نهاية ١٩٩٤ نحو ١٩ مليار دولار وتستلم مصر سنوياً مساعدات أمريكية ١ . ٢مليار دولار من المتوقع توقفها خلال الأعوام القادمة ومعظمها مساعدات عسكرية ونحو ٥ . ٨ مليون دولار معونات اقتصادية[٤] . وعن مغزى المساعدات الأمريكية لمصر أجاب مايكل ستون المدير الأسبق لوكالة التنمية الأمريكية بالقاهرة عندما سئل عن الأسباب التى تدفع الأمريكيين إلى الموافقة على مساعدة مصر اقتصادياً قائلاً: «أن دافع الضرائب

---

(١) السفير، ١٩٩٣/٨/١٣.

(٢) محمد حسنين هيكل، المجد الأردنية، ١٩٩٥/٢/٦.

(٣) حسن الخليل، اقتصاد مصر بعد السلام، الحياة، ١٩٩٥/١/١١.

(٤) الحياة، ١٩٩٥/١/١٩.

الأمريكى قد لا يفهم السبب وراء ذلك لكن برنامج التنمية فى مصر برنامجى سياسى ونحن موجودون لأسباب سياسية». وقد فسر خبير اقتصادى مصرى الأمر «بأنهم يمنحون دائماً البيضة لا الدجاجة، حتى تظل أيدينا وأفواهنا مفتوحة»[١].

وعلى صعيد المبادلات التجارية المصرية الأمريكية فقد بلغت الواردات الأمريكية لمصر عام ١٩٢م حوالى ٢.٧ مليار دولار بينما لم تتجاوز الصادرات المصرية لأمريكا ٢٠٠ مليون دولار[٢].

وتستحوذ الاستثمارات فى مجال البترول أكثر من ٨٢ فى المئة من الاستثمارات الأمريكية فى مصر. أما الوضع السياحى فى مصر فقد انخفضت ايرادات من ٢.٥ مليار دولار عام ٩١ ـ ٩٢ إلى ١.٨ مليار دولار عام ٩٣ ـ ٩٤ وذلك نتيجة الاضطرابات الامنية[٣] وترزح مصر تحت عبء دين خارجى يصل إلى ٨ مليارات دولار (بدون الديون العسكرية) بالرغم من إعفاء أمريكا لها من القسم الثالث من الديون الخارجية عليها والتى بلغت ١٧.٦ مليار دولار[٤].

وكشف تقرير البنك المركزى المصرى عن ارتفاع أعباء خدمة الديون المحلية والخارجية من ٣.٨ مليار جنيه عام ٩٣ إلى ٦.٤ مليار جنيه فى العام ٩٤ (الدولار الأمريكى يساوى ٣.٢٥ جنيه مصرى) وذلك نتيجة ارتفاع خدمة الدين الخارجى من ٢.٤ مليار جنيه إلى ٤.٧ مليار جنيه وقد أشار التقرير أن حصيلة الصادرات انخفضت بنسبة ١١.٤ فى المئة مما أدى إلى زيادة العجز التجارى بنسبة ٣٠.٤ فى المئة ليصل إلى ١.٩ مليار دولار[٥] أما بالنسبة للروابط والمبادلات التجارية المصرية الاسرائيلية فما زالت ضعيفة ومتعثرة وقد علق رجال الأعمال الاسرائيليون على هذه العلاقة فى مذكرة أرسلت لحكومتهم «أنه وعلى الرغم من مرور ١٥ عاما على تحقيق

---

(١) كرم جبر، المعونات الأمريكية لمصر، مجلة الكفاح العربى، ١٩٩٣/١١/٢٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حسن الخليل، اقتصاد مصر بعد السلام، مصدر سابق.

(٤) مصدر سابق.

(٥) تقرير البنك المركزى المصرى، قضايا دولية، العدد ٢٤٨، ١٩٩٤/١٠/٣.

السلام بين مصر وإسرائيل إلا أن حجم التبادل التجارى فى انخفاض» ويمثل النفط ما يزيد على ٧٠ فى المئة الآن من الصادرات الإسرائيلية وقد كشفت صحيفة هآرتس عن حجم التبادل التجارى المصرى الاسرائيلى أنه قد بلغ مجمل الصادرات الاسرائيلية إلى مصر فى العام ٩٣ حوالى ٦ . ٩ مليون دولار احتلت منتجات فروع الكيماويات والبلاستيك والزراعة المكان الأساسى، وفى النصف الأول فى العام ٩٤ بلغ حجم الصادرات الاسرائيلية إلى مصر حوالى ٢ . ٦ مليون دولار وقد بلغت مجمل الاستيراد من مصر من العام ١٩٩٣ حوالى ٩ . ١٠ مليون دولار (بدون النفط والغاز) وتألف معظمه فى بنود مخصصة للانتاج الصناعى وفى النصف الأول فى العام ١٩٩٤ بلغ حجم الاستيراد من مصر حوالى ٨ مليون دولار[١].

وهناك مشاريع تنموية بدأت الحكومة المصرية فى وضع خطة لها مثل المشاريع السياحية والتنموية فى منطقة النقب وطابا وبير سبع فى سيناء على خليج العقبة، يتضمن مطار رأس النقب فى اطار تنفيذ مشروع (اريفيرا المصرية) السياحى وسوف يمتد مشروع الريفيرا على ساحل سيناء على الخليج بطول ٥ . ٩ كيلومتر مربع وبمسافة ٤ . ٦ كيلو متر مربع وتقدر تكلفته ٢ . ١ مليار دولار، وقد تحفظت الحكومة المصرية على الاقتراح الاسرائيلى بإشراك مصر فى المشروع السياحى الاقليمى الثلاثى (إسرائيل، مصر، الأردن) لإنشاء مشروع سياحى باسم الريفيرا فى منطقة مثلث العقبة ايلات طابا، ويندرج هذا فى إطار التعاون الشرق أوسطى، وقد أكد الاختصاصيون المصريون أن فى هذا المشروع السياحى الاسرائيلى سوف تقدم مصر كل شىء ولن تحصل على أى شىء[٢]. ويبدو للمراقب أنه على رغم مضى أكثر من ١٥ عاما على توقيع معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية كامب ديفيد إلا أن الشعب المصرى مازال متحفظا على عملية التطبيع مع إسرائيل، وهذا ما أكدته نتائج استطلاع الرأى الذى نشرته صحيفة (الأهرام ويكلى) الصادرة باللغة الانكليزية ١٩٩٤/١٢/٢٩ وهو الأول

(١) هآرتس، ١٩٩٤/٨/٢٩، الاقتصاد والتسوية: الأفكار والمشاريع الاسرائيلية، كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مصدر سابق، ص٦٦.

(٢) الحياة، ١٩٩٥/٢/١١.

من نوعه حيث ذكرت أن ١٥٠٥ أشخاص أخذت كعينة عشوائية مصرية منها ٧١ فى المئة أجابوا بالنفى عندما سئلوا هل يقبلون شراء سلع اسرائيلية، فى حين ٢ فى المائة بالايجاب، ٣ فى المئة لم يبدوا رأيا محددا، وردا على سؤال: هل يقبلون إقامة مصانع إسرائيلية فى مصر، قال ٧٥ فى المئة: لا، ٢٠ فى المئة أجابوا نعم، وقال ٦٣ فى المئة أنهم لا يحبون زيارة إسرائيل، وقال ٥٣ فى المئة أنهم لا يحبون أن يأتى الاسرائيليون لزيارة مصر، ونتيجة هذا الاستطلاع تؤكد بأن السلام المصرى الإسرائيلى هو سلام بارد.

أما بالنسبة لمحور التعاون السورى الإسرائيلى فمازال بعيداً جداً وذلك بسبب الاصرار السورى على الانسحاب الاسرائيلى من الأراضى المحتلة قبل التطبيع السياسى أو الاقتصادى ورفض سوريا للسلوك التفاوضى الأردنى والفلسطينى مع إسرائيل، وهذه الرؤية تناقض التصور الاسرائيلى للمسار التفاوضى مع سوريا. وقد علق الخبير الاقتصادى السورى نبيل سكر فى مقابلة مع مجلة الوسط بتاريخ ١٩٩٤/١١/١٤ حول التوازنات الاقتصادية المستقبلية فى الشرق الأوسط وهل سيكون أساس اقتصادى أم سياسى أم وطنى؟ فأجاب: «أنه سيقوم فى المنطقة فى بداية الأمر تحالف سياسى اقتصادى، اسرائيلى أردنى فلسطينى برعاية أمريكية وأوروبية تقابله سوق اقتصادية سورية لبنانية، وأن الاتحاد المغاربى سيظل فى مهب الريح، وستندمج إقتصاديات دول المغرب بشكل فردى أكثر فأكثر مع أوربا، وقال: أن تحالفاتنا ستكون مع الشركات والمؤسسات التى ستأتى مشاريع تعنى بنمو سوريا أولاً، لا الشركات والمشاريع التى تهدف إلى دمج إسرائيل القسرى فى المنطقة، وذكر أنه يجب علينا أن نسد النوافذ حتى لا يتسرب رأس المال الاسرائيلى إلينا بشكل مباشر وغير مباشر»

ولا بأس هنا أن نذكر بعض المعطيات المتعلقة بسوريا، حيث يبلغ عدد سكان سوريا حوالى ١٣ مليون نسمة، والناتج القومى لعام ١٩٩١ حوالى ٢٠ مليار دولار، ودخل الفرد حوالى ١٥١٠ دولار سنوياً (راجع الجدول رقم ٥). وتقدر شركات النفط إلى أن كمية الاحتياطات النفطية التى يمكن استخراجها فى سوريا تصل ١.٧ مليار برميل.

وذكرت الدراسات التى أجرتها البعثة الأوربية أن صادرات سوريا للاتحاد الأوروبى فى العام ٩٢ بلغت ١.٧ مليار دولار منها ٩٠ فى المئة صادرات نفطية، ٥ فى المئة مواد مصنعة، وذكرت الدراسات أيضاً أن امتلاك سوريا لثروات طبيعية وموقعها الاستراتيجى الذى يمكنها أن تكون نقطة تجارة واقتصاد أقليمى[١].

وتوقع السفير الأوروبى «آلان وادامس» فى دمشق أثناء زيارته أن تكون سوريا مركزاً مهما للثقل الاقتصادى فى السنوات المقبلة بسبب الموقع الجغرافى وكفاءة المواطنين ونشاطهم. ولكن على ما يبدو أن توسيع التعاون الاقتصادى الأوروبى مع سوريا مرهون بدخول الأخيرة فى الترتيبات الشرق أوسطية الجديدة وما يتطلبه ذلك من تقدم على المسار التفاوضى السورى الاسرائيلى.

ثالثاً: دول مجلس التعاون الخليجى

تختزن هذه المنطقة بداخلها أكثر من ثلثى احتياطى النفط العالمى (٧٧ فى المئة) مما يجعلها فى غاية الأهمية الاستراتيجية لأمريكا على الخصوص (والغرب عموما)، تتعامل أمريكا مع المنطقة بمنظور الاحتكار وتدمج السياسة الأمريكية فى المنطقة الخليجية بين النفط والأمن، وللاشارة على أهمية النفط الخليجى لأمريكا فقد ذكر معهد البترول الأمريكى إنها تستورد من دولة واحدة فقط مثل السعودية ٢ مليون برميل يومياً فى الوقت الحاضر وقد يرتفع ليصل إلى ٢.٥ برميل خلال الثلاث سنوات المقبلة.

وتعتمد معظم الدول الخليجية فى اقتصادها على الصادرات النفطية والتى تبلغ أكثر من ٨٠ إلى ٩٠ فى المئة من صادراتها الخارجية، وهذا يجعل هياكلها الاقتصادية عرضة لاهتزازات سوق النفط إضافة إلى حالة الارتباط التبعى لاقتصادياتها مع الدول الغربية (على الخصوص أمريكا). وقد أعلن مدير بنك الخليج غازى عبد الجواد أنه بلغ فائض الميزان التجارى لدول مجلس التعاون الخليجى ٥.٢ مليار دولار لعام ١٩٨٩ بينما أصبح عجزا قياسياً بلغ ٥٤.٣ مليار دولار لعام ١٩٩١ بفعل تكاليف حرب

---

(١) تقرير دراسة البعثة الأردنية، السفير، ١٩٩٥/٢/١١.

الكويت، والمساعدات التى قدمت للدول المشاركة فيها، حيث قدرت تكاليف حرب الخليج ٦٥ مليار دولار[١].

وقد ذكر مدير الصندوق العربى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية عبد اللطيف حمد أن العجز مستمر فى موازنات الدول الخليجية الست حيث بلغ ١٧ مليار دولار[٢]. عام ٩٣ بسبب الانفاق فى المجال الدفاعى لهذه الدول والذى امتص ٢٤ فى المئة من متوسط الانفاق لعام ٨٩ وقد بلغ الانفاق العام لسنة ٩٣ (ست دول) ٩٢ مليار دولار مقابل واردات بلغت ٧٥ مليار دولار ٩٨ وتأمل إسرائيل أن تشارك الدول الخليجية (دول مجلس التعاون الخليجى) بفعلية فى مشاريع التعاون الاقليمى الشرق أوسطى وذلك من خلال تأمين الجزء الأكبر من رأس مال بنك التنمية الاقليمى الشرق أوسطى المقترح وتأمين احتياجات إسرائيل من النفط والغاز بأسعار زهيدة. وتعارض السعودية بشدة فكرة بنك التنمية وأيضاً حالة الاستعجال التى قامت بها بعض الدول لمجلس التعاون الخليجى لإقامة روابط وتعاون اقتصادى ثنائى واستقبالهم لشخصيات ووفود رسمية اسرائيلية وهذا ما دفع بيريز إلى الهجوم علانية على الرياض أمام الكنيست الاسرائيلى والقول: «أن النظام الشرق أوسطى سيبنى دون السعوديون وأن اسرائيل ليست بحاجة إلى أموالهم». ويبدو أن هناك مخاوف سعودية على وزنهم ومركزيتهم فى منطقة الخليج والتى ستتعرض لاهتزازات كبيرة فى حالة الاختراق الاسرائيلى للمنطقة وبالقفز على الدور السعودى.

وتركز المشاريع الاسرائيلية الاقليمية باتجاه دول مجلس التعاون الخليجى على موضوعين أساسيين: المياه والقطاع اليهدروكاربونى (نفط وغاز)، واستثمار الخبرات التقنية الاسرائيلية فى مشاريع البتروكيماويات الموجودة فى هذه الدول. وهناك اتفاق تم فى مجال الطاقة بين إسرائيل وقطر ويتضمن توريد الغاز القطرى إلى اسرائيل.

أما فيما يخص حيوية الأسواق الخليجية لإسرائيل، فقد أجريت دراسة اسرائيلية

---

(١) نتيجة حرب الخليج وانخفاض أسعار النفط، ندوة اقتصادية انعقدت فى الكويت فى شهر أكتوبر ١٩٩٤، قضايا دولية، العدد ٢٥٣، ١٩٩٤/١١/٧.

(٢) المصدر السابق.

لهذا الغرض تبين أنه إذا كانت إسرائيل تصدر ١ فى المئة من واردات ثلاث دول خليجية هى الكويت، والسعودية، والامارات، فإن ذلك يعادل ما بين ٢٠ إلى ٢٥ من المئة من الصادرات الإسرائيلية الاجمالية. ولذلك فالسوق الخليجية تحظى باهتمام إسرائيلى كبير والسؤال هنا عن مدى ملائمة السلع الاسرائيلية لهذه السوق؟

الأمريكى باتريك كلوسنو وهو أستاذ: تعتبر دول المغرب العربى والتى تقع فى الضفة الجنوبية للمتوسط من أقرب الدول إلى أوروبا الغربية منها إلى الشرق الأوسط، ولا تحظى بأهمية استراتيجية لإسرائيل، والهدف الأمريكى والأوروبى من اقتراح بعض المشاريع الإقليمية لدول هذه المنطقة هو السعى لإيجاد حالة الاستقرار فيها، وستعمل هذه المشاريع على زيادة عملية دمج دول المغرب العربى واقتصادياتها مع الوحدة الأوروبية وذلك بفصل المغرب العربى عن المشرق العربى. وتعتبر الأسواق الأوروبية هى المجال الحيوى لهذه الدول حيث تمتص أكثر من ٧٠ فى المئة من تجارتها الخارجية وخصوصاً فرنسا، أسبانيا، ايطاليا، بلجيكا، المانيا وتأمل تونس أن يساعدها موقعها الاستراتيجى والقريب فى أوروبا بأن تطور دورها كجسر الاتحاد الأوروبى من جهة والمنطقة المغربية والقارة الأفريقية من جهة أخرى، أما الجزائريون فيتقدون أنهم مرشحون لأن يلعبوا دور الحلقة الرئيسية فى شبكة الطاقة الاقليمية فى شمال أفريقيا.

وفى المشاريع الإقليمية المهمة فى المنطقة مشروع أنابيب الغاز المغاربى الأوروبى والذى ينطلق من حقل حاسى الرمل فى الجزائر عبر المغرب ومياه جبل طارق إلى مدينة قرطبة الأسبانية، وسينفذ وفق برنامج زمنى محدد حيث من المتوقع أن يصبح جاهزاً للتشغيل فى النصف الأول من العام ١٩٩٦ لضخ كمية ١٠ مليارات متر مكعب فى المرحلة الأولى، سترتفع لاحقاً إلى ١٨.٥ مليار متر مكعب مع توسيع الشبكة باتجاه فرنسا وألمانيا عبر جبال البيرينيه، وسوف تتكلف المرحلتين الأولى والثانية حوالى ٣ مليارات دولار ويصل طول الخط ١١٠٠ كيلو متر واصلاً إلى أوروبا.

وهناك مشروع آخر (الغاز المتوسطى) الذى أنشأ فى العام ١٩٨٣ لنقل الغاز الجزائرى إلى ايطاليا عبر الأراضى التونسية بطاقة ١٤ مليار متر مكعب، ومن المقرر

أن يصبح الخط جاهزاً لنقل ٢٣ مليار متر مكعب حتى نهاية العام ١٩٩٤. وتحتل ايطاليا المرتبة الأولى لاستيراد الغاز الجزائرى حيث تستورد ١٤ مليار متر مكعب ما نسبته ٢. ٤٠ فى المئة من اجمالى الصادرات الجزائرية للغاز فى عام ١٩٩٣ أما بالنسبة للمغرب فتتمركز صادراتها مع دول الاتحاد الأوروبى (وعلى الخصوص فرنسا) التى توجه إليها ٦٠ فى المئة من صادراتها. وقد بلغ العجز التجارى للمغرب عام ١٩٩٢، ٣ مليارات و٤١٢ مليون دولار، وبلغت نسبة الصادرات ١٤ فى المئة فقط من الناتج لعام ١٩٩٤، وقد أثر الحصار المفروض على ليبيا على الاقتصاد المغربى حيث كانت السوق الليبية تمتص ٤ فى المئة من المبادلات المغربية، ويعتبر الفوسفات من أهم الصادرات المغربية حيث بلغت ٤٣ فى المئة من مجموع الصادرات عام ٨٣ و٢٥ فى المئة فى العام ٩٤[1]، ويمثل قطاع النسيج أهم الصادرات الصناعية.

ومما سبق نستنتج أن هذه الكتلة المغاربية ستظل مرتبطة بمحورها الاقتصادى العمودى نحو أوروبا ولن يكون لها وزن يذكر فى الترتيبات الشرق أوسطية الاقتصادية.

مشاريع التشابك الاقليمى للنظام الشرق أوسطى الجديد

تحدثنا فى محور سابق عن معالم النظام الاقتصادى الشرق أوسطى انطلاقاً من روزنامة المشاريع الاقليمية التى اقترحها البنك الدولى، وسنحاول هنا أن نلقى الضوء على المشارع الاقليمية التى تهدف إلى وصل إسرائيل بكل شرايين الحياة الاقتصادية للمنطقة، وبالرجوع إلى كتيب المشاريع الإسرائيلية المقترحة للتعاون الثنائى مع الأردن والذى يشتمل على دراسات وتصاميم وخرائط ومشاريع بنى تحتية، سوف نذكر أهم المشاريع المدرجة فى هذا الكتيب.

- المواصلات..

هناك شبكة مواصلات واسعة برية وبحرية وجوية، أهمها ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط ويمكن أن يمر عبر ثلاثة خطوط (اسدود هارتسيون ايلات)، و(ايلات العقبة)، و(غزة عسقلان اسدود). وهناك مشاريع للربط بين البحر الميت حتسيبا

(١) رضا البرجى، الرباط، الوسط، العدد ١٥٨، ١٩٩٥/٢/٦.

سدوم. أما بالنسبة لأهم مشاريع النقل الجوى فتتمثل فى مطارات ايلات والعقبة، وبالنسبة لمشاريع النقل البحرى خصوصاً فى خليج العقبة ايلات تهدف إلى إنشاء ميناء قنوات بين ايلات والعقبة، اضافة إلى مشروع مد قناة فى البحر الأحمر إلى البحر الميت (مشروع البحرين) وهذا حسب ما جاء فى الاتفاق الأردنى الإسرائيلى ومناقضا لما جاء فى الاتفاق الفلسطينى الإسرائيلى فى تغذية البحر الميت بمياه البحر المتوسط.

ـ الطاقة والاتصالات واللوجستى والتبادل التجارى

اقترحت الحكومة الإسرائيلية دمج شركات الكهرباء، نقل الوقود، مشاريع الطاقة الشمسية، ومصادر الطاقة البديلة، إضافة إلى وصف الشبكات الهاتفية، والتعاون فى البث الإذاعى والتلفزيونى، وتأسيس مراكز معلومات إقليمية مشتركة، والاتفاق على تسهيلات عبور الحدود الدولية، وتأسيس مراكز لوجستية على امتداد الحدود الأردنية الإسرائيلية..

ـ السياحة..

١ ـ **وادى عربة:** تطوير طريق العطور والعلاج، طريق الطبيعة، سياحة صحراوية، ورحلات صيد، بالونات طائرة ورحلات جوية.

٢ ـ **خليج العقبة ايلات ريفيرا البحر الأحمر:** تخطيط عام، فنادق واستراحات وبيوت ضيافة، أحواض لرسو القوارب، وشواطئ سباحة وبرك، منشآت لعقد المؤتمرات، شبكة قنوات ومنتزهات، مراكز استجمام على امتداد الشاطئ، ويمثل مشروع ريفيرا البحر الأحمر خطورة كبيرة على السياحة فى كل من مصر والأردن. وسيقام هذا المشروع على ٦٥٠٠ فدان فى إيلات يشرف على تصميمه خبير أمريكى. وسوف تتخلى إسرائيل عن ميناء ايلات مستفيدة من ميناء العقبة بدلاً منه وسيتم إغراق معظم الـ ٦٥٠٠ فدان بمياه البحر الأحمر من خليج العقبة، وستبنى إسرائيل الريفيرا الجديدة فى البحر والبر بمستوى أعلى من مستوى ابناء الحالى والذى سيسمح بأن تطل المنشآت الجديدة على الأراضى المصرية والأردنية معاً، ويقول الخبير الهندسى جارتنز أنه لا يوجد خيار آخر لإيلات ولو أرادت الضرب فى العمق سياحيا ومنافسة مصر لمدة

١٠٠ عام قادمة فعلى إسرائيل البدء فوراً فى المشروع، وهناك تصميمات هندسية للمشروع تجمع بين البر والصحراء والبحر ومنشأت سياحية عالية الروعة فنيا ومعماريا، وقد وافق مجلس الوزراء على هذا المشروع وتم تخصيص مليار دولار لحساب المشروع ببنك العمال الاسرائيلى كدفعة أولى للبدء فى المشروع[١].

وقد اقترح ممثلو الأردن فى المباحثات الاقتصادية (الأردنية الإسرائيلية) مشروع إقامة منظمة تجارة حرة بينهما، وقد تم الاتفاق على المشروع ولكن رفضت إسرائيل دخول السلع الأردنية إلى أسواق المناطق الفلسطينية المحتلة. وهناك قلق أردنى فى أن يسمح لسلطة الحجم الذاتى بصك عملة مستقلة لأن هذا سوف يزيد الضغط على الدينار الأردنى.

وهناك مجموعة من مشاريع التعاون الإقليمى الشرق أوسطى بين إسرائيل ودول المنطقة وخصوصاً الدول الخليجية ففى مجال الطاقة هناك مشروع إسرائيلى يقترح نقل النفط السعودى إلى الأسواق الخارجية عبر إسرائيل، ويذكر المسئول العلمى فى صندوق (ارموندهامر) فى جامعة تل أبيب، أن رسوم تصدير طن واحد فقط من الخليج إلى غرب أوربا عن طريق قناة السويس تبلغ حوالى ١٨ دولاراً أمريكياً بينما إذا تم النقل بواسطة أنابيب تمر عبر شبه الجزيرة العربية وتصب فى موانئ حيفا، اسدود، وغزة فإن الترتيب الجديد سوف ينتج منه وفورات فى حدود ٦٣ دولار للطن الواحد[٢].

وهناك أيضاً مشروع الغاز القطرى والذى سوف يتم فيه نقل الغاز القطرى إلى ايلات مباشرة ثم إلى البحر الأبيض المتوسط عبر أنابيب تربط بين ايلات والموانىء (حيفا، اسدود، غزة) وهناك اقتراحات سريعة لنقلل النفط فى الخليج بواسطة ناقلات النفط إلى ايلات ثم بعد ذلك يتم نقلها إلى البحر المتوسط عبر شبكة الأنابيب الداخلية ويتم تصديرها إلى أوروبا. وهناك مشاريع للتعاون الاقليمى فى مجال المياه

---

(١) الاتفاق بين إسرائيل والأردن على إقامة منطقة تجارة حرة، دافار ١٩٩٤/٧/٢٧، كراس مؤسسة الدراسات الفلسطينية مصدر سابق.

(٢) مقال لجدعون فيشلزون فى: عل همشمار ١٩٩٣/١/٦، مجلة دراسات المستقبل العربى، العدد ١٧٩، ١٩٩٤/١، ٩٤.

حيث تقترح إسرائيل اعتبار بحيرة طبرية خزانا مائية يتم تغذيته من نهر الفرات فى تركيا مروراً بسوريا، ثم يتم إعادة توزيع المياه إلى الكيان الفلسطينى والأردن وحتى إلى دول الخليج[١].

هذه كانت بعض مشاريع الوصل الإقليمى داخل منظومة النظام الشرق أوسطى الجديد، أما بالنسبة لرأس المال فقد أشرنا سابقا إلى الاقتراح الإسرائيلى والذى حظى بدعم أمريكى وأوروبى لتأسيس بنك التنمية الشرق أوسطى وقد اقترح شمعون بيريز «أنه فى حالة إذا خصصت دول النفط العربية دولارا واحدا فى سعر كل برميل نفط يصدر فقد يتوفر فى هذا البنك رأس مال يقدر بحوالى ٨ مليارات دولار». أما المشروع الأخير الذى سنشير إليه هنا والذى يحمل معه خطرا ثقافيا وكريا على الكيان العربى يتمثل بتأسيس جامعة الشرق الأوسط والتى يتم انشاؤها فى مصر لتكوين نخبة مهنية جيدة تلائم تطورات الرؤية الشرق أوسطية الجديدة[٢].

المياه بين الصراع والتعاون الاقليمى فى المنظومة الشرق أوسطية الجديدة

تشكل المياه أحد أهم وأعقد قضايا الصراع فى المنطقة الشرق أوسطية، وقد توقع العديد من الاستراتيجيين الغربيين وقوع حرب حتمية بسبب المياه وقد ذكر بن غوريون أول رئيس وزراء إسرائيل فى العام ١٩٥٥: «أن اليهود يخوضون اليوم معركة مع العرب هى معركة المياه وعلى مصير هذه المعركة يتوقف مصير إسرائيل، وإذا لم ننجح فى هذه المعركة لن نكون فى فلسطين»[٣]. ولقد وصل ماير بن ماير المفوضى المائى السابق فى إسرائيل إلى حد التوقع «بأن الحرب حتمية مالم تكن شعوب المنطقة من الذكاء بحيث تبحث معا الحلول المشتركة لمشاكل امداد المياه»[٤].

(١) ماجد كيالى، النظام الاقليمى الجديد، الاطار الاقتصادى والأهداف، شؤون الأوسط، العدد ٣٦، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤.

(٢) مشاريع الترتيبات الاقتصادية «الشرق أوسطية» محمود عبد الفضيل، مصدر سابق ص٩٧.

(٣) مجلة الأمة الفلسطينية، العدد ١، ١/٩/١٩٩١.

(٤) بروس أ. هوروتيز، مدير برنامج الأبحاث والتربية فى لجنة كندا/ إسرائيل، أزمة المياه فى الشرق الأوسط. شؤون الأوسط، العدد ٥ كانون الثانى/ يناير ١٩٩٢.

ونقل عن زاى أورتنبرغ رئيس هيئة بحيرة طبرية «أنه إذا ازداد نقص المياه فى اسرائى ولم تستطع التوصل إلى حل المشاكل بالطرق السلمية، فلابد من حلها بواسطة الحرب. هل هناك خيار آخر؟ الماء كالدم لا يمكن العيش بدونه»[١]. وبخصوص نسبة المياه المتاحة لكل شخص سنويا فى منطقة الشرق الأوسط فقد رتبها الباحث الإسرائيلى فى جامعة القدس العبرية هيليل شوال كالتالى:

الضفة والقطع ١٦٥ مترا مكعبا، الأردن ٣٠٠ متر مكعب، إسرائيل ٣٠٠ متر مكعب، مصر ١٢٠٠ متر مكعب، سوريا ١٣٠٠ متر مكعب، لبنان ٣٠٠٠ متر مكعب، العراق ٤٤٠٠ متر مكعب، وفى تركيا ٤٥٠٠ متر مكعب[٢]. ويعتبر المعدل المتوسط للفرد ١٠٠٠ متر مكعب سنوياً. أما دون ذلك فتعتبر هذه الدولة فقيرة مائيا، وأكد الباحث الأردنى صبحى طه فى دراسة له أن المؤشرات الاحصائية تشير إلى العجز المائى فى الأردن، وأنها دخلت مرحلة خط الفقر المائى، إذا وقد نهبت إسرائيل ما مجموعه ٧٠ فى المئة من المياه السطحية المتاحة للأردن وتستولى سنوياص على ١٠٠ مليون متر مكعب من مياه نهر اليرموك، واحتلال إسرائيل لمنابع نهر الأردن واحكامها السيطرة على النهر حرم الأردن من استغلال ٧٧٤ مليون متر مكعب سنوياً من أصل ١.٣ مليار متر مكعب مجموع الكمية المتاحة للنهر سنويا، ووفر لإسرائيل ما بين ١٦٠٠ ـ ١٦٤٠ متر مكعب. أما بالنسبة للوضع الفلسطينى فإن إسرائيل تستولى على ٨٤ فى المئة من المياه الفلسطينية. واحتلال إسرائيل جنوب لبنان كان بهدف احكام السيطرة على نهر الليطانى وروافده.

أما الوضع المائى لمصر فالإمكانات المتاحة لمصر من الموارد المائية تبلغ ٦٠.٧ مليار متر مكعب منها ٥٥.٥ مليار متر مكعب من مياه نهر النيل ٤.٧ من مياه الصب، ٠.٥ مياه جوفية، فى حين المستخدم منها ٥٩.٥ مليار متر مكعب وتوزيعها كالتالى: ٤٩.٧ مليار متر مكعب للزراعة، ٣.٣ للاستخدام المنزلى، ٢.٥ للصناعة،

(١) المصدر السابق.

(٢) محمد نور الدين، مستقبل التسوية بين العرب وإسرائيل، ندوة نقاش، شؤون الأوسط، العدد ٢٧، آذار/ مارس ١٩٩٤.

٤ للكهرباء، (راجع قضايا دولية عدد ٢٣٥).

وتؤكد الاحصائيات أو التوقعات أن مصر سوف تحتاج إلى ٥ مليارات متر مكعب إضافية لعام ٢٠٠٠ وقد نجحت مصر منذ توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل حذف موضوع نهر النيل من اتفاقية التعاون الثنائى ومن المفاوضات المتعددة فى مؤتمر مدريد، ولكن على أثر الخلاف المصرى الإسرائيلى حول قضية توقيع معاهدة الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل كشفت صحيفة هآرتس عن وثيقة سرية أعدها جهاز التخطيط فى وزارة الخارجية الإسرائيلية ادخال نهر النيل فى المفاوضات المتعددة الأطراف حول تقاسم الثروة المائية فى الشرق الأوسط»[١]. وهناك موقع آخر متوتر بسبب المياه هو منطقة المثلث التركى السورى العراقى والذى يمثل بؤرة توتر دائماً فى منطقة الطرف فى الشرق الأوسط خصوصاً إذا سعت تركيا للدخول إلى التعاون الإقليمى الشرق أوسطى من بوابة المياه.

علاقة الأمن بالتنمية فى المنظومة الشرق أوسطية الجديدة

ذكر شمعون بيريز فى سياق أرائه حول الشرق الأوسط الجديد فرضية تقول «بأنه فى عصر السلام سوف يتم خفض ميزانيات التسلح وستحول هذه الميزانيات إلى مجالات التنمية الاقتصادى» وإذا وضعنا هذه المقولة على محك الأرقام لميزانية الدفاع الإسرائيلية سنصل إلى الحقيقة الواقعية لهذا التصور، فقد بلغت ميزانية الدفاع الإسرائيلية لعام ١٩٩٠ وحسب إحصائية ll. s.s ١٦، ٦ مليار دولار، ولسوريا ٦٢ . ١ مليار دولار، ولمصر ٦٥ . ١مليار دولار، وللأردن ٣ . ٥٨٧ مليون دولار، ولبنان ١٤٠. ألف دولار[٢] . يعنى ذلك أن ميزانية الدفاع الإسرائيلية بلغت حوالى ضعفى مجموعة ميزانيات دول الطوق الأربع (مصر، وسوريا، الأردن، لبنان) وقد بلغت موازنة الدفاع الإسرائيلية لعام ١٩٩٥ (عصر السلام الإسرائيلى) ٣ . ٨ مليار دولار وتمثل هذه الميزانية زيادة قدرها ٨ . ١٧ فى المئة من مجمل أرقام الموازنة ٤٩ مليار دولار ولا

---

(١) الحياة، كانون الثانى/ يناير ١٩٩٥.

(٢) The Mititary Balance (IISS) 91 - 92.

التقرير الاستراتيجى السنوى للأهرام ١٩٩٠، ١٩٩١، ص٢٩٩، ٢٣٠.

تشمل زيادة النفقات العسكرية ولا الهبات والمساعدات الأمريكية البالغة ٨ . ١ مليار دولار سنوياً ولا نفقات أجهزة الأمن والاستخبارات التى تبلغ ٥٠ مليون دولار[١].
وهذه اهلزيادة تشير إلى أن الميزانية هى ميزانية حرب وليست ميزانية سلام. وقد ناقش باتريك كلوسن علاقة الأمن بالتنمية فى ورقته المقدمة إلى مؤتمر «مراقبة التسلح والبيئة الأمنية الجديدة للشرق الأوسط»[٢] الذى عقد فى إسرائيل، حيث ذكر ثلاث فرضيات غير تقليدية وهى:

١ ـ بأمكان دول الشرق الأوسط إطالة عمر سباق التسلح على مستوياته الحالية.

٢ ـ اتفاق السلام لن يقلل من الانفاق العسكرى.

٣ ـ الانفاق العسكرى المنخفض لن يقود إلى نمو اقتصادى أكبر.

وقد ربط كلوسن بين عائدات النفط السورية وقدرتها على مستوى التسلح الحالى حيث أشار إلى أن عائدات النفط السورية لعام ١٩٩٣ (٦٠٠ ألف برميل) يومياً بلغت ٣ مليارات دولار والتى بامكانها تغطية النفقات العسكرية السورية وقد أكد كلوسن أيضاً أن إسرائيل تستطيع تغطية الانفاق العسكرى إذا رفعت العبء الضريبى الذى انخفض بنسبة ٨ فى المئة من إجمالى الناتج القومى بين عامى ١٩٨٦، ١٩٨٧، وهذا سيمول الزيادة فى الانفاق العسكرى حتى ٥٠ فى المئة.

والثانى: فإن إسرائيل تمتلك واحداً من أعلى المستويات فى الحوالات والمنح فى العالم الثالث، فقد انفقت ٣ . ١٤ فى المئة من إجمالى الناتج القومى (GNP) عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ وهذا لا يتضمن النسبة التى دفعت للمساهمة فى مؤسسة التأمين

(١) الموازنة الإسرائيلية لعام ١٩٩٥، المجد، ٣١/ ١٠/ ١٩٩٤.

(٢) فى شهر حزيران يونيو/ ١٩٩٤ نشر معهد «جافى» للدراسات الاستراتيجية التابع لجامعة تل أبيب وثائق وأوراق عمل المؤتمر الذى عقد فى شهر كانون الثانى/ يناير ١٩٩٢ فى مدينة جينوساز الإسرائيلية ـ بفلسطين المحتلة تحت عنوان مراقبة التسلح والبيئة الأمنية الجديدة، وقد شارك ٢٨ عالماً من ثمان دول بالإضافة إلى ٣٠ عالماً من إسرائيل وحدها وكانت إحدى أوراق المؤتمر بعنوان «الاتفاق العسكرى والتطور الاقتصادى فى الشرق الأوسط» من اعداد الباحث الأمريكى باتركى كلوسنو وهو أستاذ فى جامعة الدفاع الوطنية بأمريكا ومدير أبحاث فى قسم الشرق الأوسط بمعهد بحوث فى ولاية فيلادلفيا بالولايات المتحدة، قضايا دولية، العدد ٢٤٦، fpr ١٩/ ٩/ ١٩٩٤.

الإسرائيلية التى يمكن أن ترفع المجموع ٢٠ فى المئة، يمكن تخفيض حوالاتها ومنحها إلى نصف مستواها الحالى وهذا بدوره سيوفر مالية كافية لمضاعفة الانفاق العسكرى.

وقد ذكر كلوسن أن بلدان الشرق الأوسط تحتاج إلى مقدار الزيادة فى الانتاج (ICOR) الذى وصل إلى ٥ وحدات فى الثمانينات بينما فى الدول الصناعية ٢.٥ بنفس رأس المال، وأشار إلى أن عملية التسلح لها أثار ايجابية حيث يوفر الجيش للشباب تربيا نافعا وخصوصاً للعمالة غير المؤهلة، وفى إسرائيل فإن الانفاق الأمنى يمثل جزءاً منه استثمارا وعلى سبيل المثال فقد أشار يعقوب شاينين مدير عام شركة «موديلم كلكاليم» بأن الصناعات الجوية الإسرائيلية ورغم أنها تعانى أزمة خانقة، إلا أنها تصدر ما قيمته ١.٢ مليار دولار سنوياً بينما كل الصادرات الإسرائيلية الزراعية تبلغ ٥٠٠ مليون دولار سنوياً.

ونعتقد أنه من المستبعد حدوث أى تغيير على الميزانيات الدفاعية لدول المنطقة طالما أن إسرائيل تمسك بميزة التفوق فى الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل على دول المنطقة، وأيضاً الصراعات الإقليمية ستجد من يشعلها لكى لا تغلق مصانع السلاح أبوابها.

المناقشات والملاحظات والاستنتاجات

من خلال قراءاتنا السابقة للنظام الشرق أوسطى، سنلاحظ أنه قائم على سياسة تشطير المنطقة بمعنى فصل المغرب العربى عن المشرق العربى وعزل اليمن عن دائرة التعاون الخليجى، وتهميش ثقل ودور مصر الإقليمى، والالتفاف على الدور السورى لمنعه من التأثير اقتصادياً وسياسياً فى المنطقة، ومحاولة تقليص دور إيران الإقليمى والالتفاف عليها وذلك بتوسيع دائرة التعاون الإقليمى للنظام الشرق أوسطى ليضم الجمهوريات الإسلامية لآسيا الوسطى والقوقاز، ويمكن أن يساعد الدور التركى فى ذلك خصوصاً إذا منحت إسرائيل تركيا دوراً اقتصادياً (ويمكن أن يكون أمنيا أيضاً) فى النظام الاقتصادى الشرقى أوسطى. وتشير الملاحظات التالية إلى أن الأبعاد الداخلية المعرقلة للنظام الشرق أوسطى الجديد ما يلى:

١ ـ **البعد الجيو اقتصادى:** ونقصد هنا مجالات التجارة الحيوية للتكتلات الإقليمية العربية، حيث ترتبط دول المغرب العربى ارتباطا تجاريا بمجالها الأوروبى فى الضفة الشمالية للمتوسط، وهذا الارتباط سيزداد أحكاماً فى المرحلة القادمة للوصول إلى الاندماج الكامل بشكل فردى لاقتصاديات هذه الدول، ويمتص هذا المجال الجغرافى الأوروبى أكثر من ٥٠ فى المئة من حجم التجارة الخارجية لمجموع دول هذه المنطقة وبخصوص دول مجلس التعاون الخليجى فإن سوقها تخضع لسيطرة شبكة معقدة من الشركات الغربية الكبرى والمتعددة الجنسيات، والتى تمتص ٩٠ فى المئة من حجم التبادل التجارى نى علاقة مستقرة ومغلقة محورها عمودى مع أمريكا وأوربا الغربية والشرق الأقصى، وهنا ستجد إسرائيل صعوبة فى التغلغل إلى هذه الأسواق، إضافة إلى أن نوع التفوق النسبى السلعى لإسرائيل لا تكمن فى الانتاج البضاعى الذى تحتاجه هذه الأسواق (راجع جدول رقم ٤)، وسيقتصر التعامل بين إسرائيل وهذه الدول فقط فى مجال الطاقة (نفط وغاز) التى ستحتاجها إسرائيل بأسعار زهيدة. ويقدر الإسرائيليون حجم التبادل التجارى المستقبلى مع الدول العربية (صادرات إسرائيلية) بحوالى ٥٠٠ مليون دولار سنويا، حيث تمثل هذه النسبة ٢ فى المئة فقط من حجم تجارتها الخارجية.

٢ ـ إن النظام الشرق أوسطى سيجعل إسرائيل شريكا فى الجغرافيا السياسية للمنطقة، وبذلك سيجتمع لإسرائيل العديد من عناصر القوة مثل الشراكة السياسية والأمنية والاقتصادية، ويخطئ من يظن أن الصراع العسكرى مع الكيان الصهيونى قد يهدأ، لأنه سيشتعل من جيد على الجبهة الاقتصادية فى ظل مفهوم الشراكة غير المتكافئة، ونعتقد أن خطورة الاطروحات الاقتصادية الاقليمية للنظام الشرق أوسطى أنها تهدف لخلق واقع من التبعية والالحاق مركب وريد فى نوعه، حيث ترتبط اقتصاديات التكتلات والمحاور العربية بعلاقة عمودية مع الغرب وتدور فى فلكه، فى ظل علاقات أفقية بينية ممزقة وستسعى إسرائيل لتحتل مركز هذه العلاقات، وبهذا سيصبح الوضع الاقتصادى العربى محاصراً بين فكى كماشة يصعب الفكاك منه، وستكون «كلفة الانفصال» فى هذه الحالة باهظة ويؤكد الخبير

الاقتصادى المصرى عبد العزيز حجازى على أن «هيكلية العام العربى متخلفة وتوجد فيها اختلالات واضحة وأساسية، وحين تنفتح على اقتصاديات متقدمة لا محال إلا أن تصبح ملحقة وتابعة وسيتم بعد ذلك تحطيم أية مبادرة لها آفاق مستقبلية». ونشير هنا إلى بعض مواقع التصادم فى المشاريع الإقليمية الشرق أوسطية المقترحة والتى يمكن أن تؤثر سلباً على حالة الانسجام الداخلى للمنظومة الشرق أوسطية بمركزية إسرائيل.

أ ـ أن المشروع الإسرائيلى المقترح لتحويل خط تجارة النفط الخليجى باتجاه ميناء ايلات الإسرائيلى ومن ثم إعادة شحنه من الموانئ الإسرائيلية (حيفا، اسدود) إلى أوروبا سوف يلغى الدور الاستراتيجى لقناة السويس مما سيصعد حدة التوتر المصرى الإسرائيلى لأنه بذلك سيمس أحد أهم الشرايين الاقتصادية الحيوية المصرية.

ب ـ يحمل المشروع السياحى الإسرائيلى (ريفيرا البحر الأحمر) أخطر التهديدات على المستقبل السياحى لكل من مصر والأردن، ومن ثم فإن الخيارات المطروحة أمام المصريين إما بالقبول بالشراكة الإقليمية للمشروعة الإسرائيلى (طابا العقبة ايلات) مع تقدم كافة الامانات والامتيازات لتوسيع هذا المشروع على حساب مشروع الريفيرا المصرية، والقبول بنصيب محدود، وإلا فإن الحرب السياحية قائمة، وبهذا فإن مصر سياحياً واقعة بين خيارين (الاحتواء أو الصدام).

ج ـ إن مشروع بنك التنمية الاقليمى للشرق الأوسط من المشاريع الخطرة، حيث سيساعد إسرائيل على الاستفادة من رأس المال العربى (الدول النفطية على الخصوص) ثم تقوم إسرائيل بما لديها من خبرة مالية وشبكة علاقات دولية بإعادة تدوير هذا المال لمصلحتها، ويمكن أن يسهم أيضاً فى احتلال إسرائيل المركز المالى الإقليمى الشرق أوسطى بديلاً عن المراكز المالية العربية (دبى، المنامة).

د ـ إن معظم مشاريع التعاون الإقليمى فى النظام الشرق أوسطى الجديد لا تسمح بفرص تنمية متكافئة لاقتصاديات دول المنطقة، وتعمل أيضاً على تفكيك التحالفات الإقليمية العربية الهشة واحتواء كل دولة على حدة.

٣ ـ إن علاقة الأمن بالاقتصاد فى المشروع التوسعى الإسرائيلى علاقة جلية، ومن أهداف الترتيبات الاقتصادية فى النظام الشرق أوسطى الجديد هو ضمان أمن إسرائيل والمحافظة على تفوقها النوعى، وعلى الرغم من وجود خلل فى التوازن الاستراتيجى بين العرب وإسرائيل يحافظ على استمراره؛ امتلاك إسرائيل لأسلحة الدمار الشامل (نووية، بيولوجية، كيماوية) إلا أن هذه الحالة لن تجلب الاستقرار فى المنطقة وستفتح الطريق أمام سباق التسلح فى منطقة الشرق الأوسط كمحاولة لتعديل موازين القوى، لأن القوة وحدها لن تلغى الإحساس والشعور بالدونية فى مقابل إسرائيل التى تظن أن سياسة الغالب بامكانها وحدها أن تضبط قدر طنجرة البخار المتفجرة للمغلوب وقد أشار الصحفى البريطانى روبرت فنسك فى اندبندنت (٢٤/١١/١٩٩٤) بقوله: «أنه مهما كثر عدد الدول التى توقع معاهدات السلام مع إسرائيل فإن الشعوب نفسها تشعر بالإذلال والنقمة وستطالب بتزايد غضبها بالحرب مع إسرائيل التى من المفترض أن عملية السلام قد أنهتها إلى الأبد فمن بوادر هذا الصراع البارد هو رفض مصر والعديد من الدول العربية التوقيع على معاهدة الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل وربط ذلك بضرورة توقيع إسرائيل عليها».

٤ ـ إن محاولة إسرائيل وأمريكا طرح عنوان جديد ينظم علاقة المنطقة مع إسرائيل وهو العنوان الاقتصادى لا يلغى أن أصل النزاع مع إسرائيل هو سياسى ولا يمكن إيجاد حل للنزاع مع إسرائيل بعيداً عن هذا السياق وهناك تعثر فى مسارات التفاوض مع إسرائيل على المستوى الفلسطينى والسورى واللبنانى وترفض إسرائيل التنازل فى قضايا عالية التوتر «كالمستوطنات والقدس وحقوق الأرض والمياه»[١].

وستحافظ على المسار الفلسطينى بأن لا يتجاوز حدود الممنوح لسلطة الحكم الذاتى وأى حكم ذاتى مقلص». وبرأينا أن أية تسوية فى المنطقة بدون سوريا ستكون هشة وغير مستقرة وعرضة للصدمات، وإذا كانت إسرائيل تقوم فى السابق بدور الوكيل الكامل لأمريكا فإنها ستسعى للقيام بدور الشريك الكامل معها وهذا يدفع إسرائيل

---

(١) جورجيت عبد، مسؤول فلسطينى فى صندوق النقد الدولى، فى مقابلة له نشرتها مجلة الدراسات الفلسطينية العدد ١٩ صيف ١٩٩٤.

لتحجيم الدور والثقل الإقليمى لدول المنطقة مما سيؤجج بؤر الصراع الإقليمى المستقبلى.

٥ - أن قضية المياه فى المنطقة من أهم وأخطر القضايا حساسية فالعلاقة التى وصلت إليها دول المنطقة فى المياه علاقة صفرية وهناك بعض الدول تعيش تحت خط الفقر المائى وهذا الوضع سيزيد من التوتر الإقليمى والمحلى وخصوصاً أن إسرائيل التى اغتصبت الجزء الأكبر من مياه فلسطين والأردن ولبنان تخطط لإحكام السيطرة على مصادر المياه الإقليمية استناداً إلى منطق القوة والغلبة، ولكن المسألة بالنسبة للجميع مسألة حياة أو موت وقد لا تخضع لموازين قوى ويمكن أن تسبب أزمة المياه فى إيجاد شبكة تحالفات وتكتلات تتجاوز حدود العلاقات السياسية والتطبيعية مع إسرائيل وتشمل مناطق التصادم المائى كلاً من إسرائيل والعرب وتركيا.

٦ - يحل النظام الإقليمى الشرق أوسطى سمة الغزو والهيمنة الحضارية والثقافية من خلال تغليب مفاهيم الجغرافيا والاقتصاد على مفاهيم التاريخ والحضارة والثقافة والايديولوجيا ومغزى طرح هوية وانتماء جديد للمنطقة يتمثل بالهوية الشرق أوسطية» هى محاولة لتذويب وتغييب ملامح وهوية المنطقة الحضارية لكى «نخرج نحن من التاريخ وتنصب إسرائيل فى صدارته» ويعاد صياغة كل ما له صلة بتراثنا وتاريخنا وثقافتنا وخرائطنا ليتلائم مع الدول الإسرائيلى الجديد ونشير هنا إلى بعض معطيات رفض الأمة لمشروع الاحتواء الإسرائيلى:

أ - يمثل الدين خلفية التكوين النفسى والايديولوجى لأبناء المنطقة العربية والإسلامية وهذان العاملان شكلا طوال مرحلة الصراع مع إسرائيل (والاستعمار الغربى) الإطار الذى جمع كافة عناصر القوة والتماسك الشعبى لخوض هذا الصراع وقد استقر فى ذاكرة شعوب المنطقة هذا الجوهر الفلسفى للصراع والمرتبط بالميتافيزيقيا ولا يخضع للحسابات المادية حتى لو بدى ذلك ممكنا فى الواقع.

ب - هناك حقيقة مطلقة مستقرة فى عقل ووجدان شعوبنا العربية والإسلامية وهى أن الدولة العبرية كيان مغتصب ومحتل ومفروض عليها بالقوة الخارجية، وأن وجوده

فاقد لكل المبررات القانونية والشرعية والدينية ليدخل إلى النسيج المجتمعى للمنطقة.

ج - إذا نجح اليهود بتحويل ادعائهم «بالمحرقة» إلى محكمة تاريخية تتمتع بفعالية وديناميـة لإزاحة كل من يقف عقبة فى طريقهم فمحرقة شعوب فلسطى ولبنان ومصر وغيرهم حتما ستكون بمثابة السد المانع لإقامة الجسور الطبيعية مع إسرائيل.

اقتراحات....

أشرنا فى الملاحظات والاستنتاجات السابقة إلى أهم نقاط التصادم والرفض الداخلى للنظام الشرق أوسطى الجديد بتطبيقاته الاقتصادية، ونسجل هنا بعض الاقتراحات العلمية لمواجهة هذا المشروع الامبريالى التوسعى الجديد:

١ - تعتبر كل من الأراضى المحتلة والأردن هى أقوى مرتكزات النظام الإقليمى الشرق أوسطى وأيضاً هى أضعفهم ولذلك لابد عند ضرب المشروع فى هاتين المنطقتين بتصعيد المواجهة العسكرية مع قوات الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين وتصعيد المواجهة الاقتصادية مع نواة المشروع الإسرائيلى فى الأردن.

٢ - السعى الجاد لإقامة تحالف سياسى اقتصادى بين الدول المستهدفة من جراء إقامة النظام الإقليمى الشرق أوسطى الجديد بمركزية إسرائيل، ويمكن أن يضم هذا التحالف كلاً من إيران، اليمن، السودان، ليبيا، سوريا، لبنان، العراق ومصر وبذلك يمكن تطويق المشروع الشرق أوسطى بدول تشكل فيما بينها شبه هلالين تتميز بكل مقومات التكامل والصمود.

٣ - يجب تفعيل مبدأ المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل على أن تكون المبادرة بيد الشعوب وهذا يستلزم الدعوة لإقامة حوار وتحالف واسع يضم كافة الأحزاب السياسية والمؤسسات الجماهيرية والجمعيات المعارضة للتسوية للنظام الشرق أوسطى الجديد.



الشرق الأوسط الجديد الذى لم تحلم به السيدة كوندى!

مقالة للأستاذ/ فهمى هويدى....

إن السياسات التى تتبعها الحكومة البريطانية فى لبنان والعراق تعد بمثابة المتفجرات التى تقدم إلى المتطرفين.. الأمر الذى يضع المدنيين البريطانيين فى وجه الخطر، سواء كانوا داخل بريطانيا أو فى أى مكان آخر، هذه الكلمات ليست من عندى، لكنها منقولة عن خطاب مفتوح إلى رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير، الصحف اللندنية فى ٨/١٢ الحالى، وموجه من ٣٨ جماعة ومنظمة إسلامية فى المملكة المتحدة، على رأسها مجلس مسلمى بريطانيا، ومن بين الذين وقعوا على الخطاب ثلاثة من المسلمين فى البرلمان البريطانى وستة من أعضاء حزب العمال الحاكم.

هذا الخطاب نشر بعد يومين من إعلان السلطات البريطانية عن اكتشاف مخطط إرهابى لتفجير بعض الطائرات المتجهة إلى الولايات المتحدة، وإلقاء القبض على ٢٤ شخصا اتهموا بالضلوع فى العملية التى وصفت بأنها أكبر من المخطط الذى تم تنفيذه فى ١١ سبتمبر وتوقيت الإعلان عن المخطط المذكور فى ٨/١٠ ثم نشر الخطاب المفتوح فى ٨/١٢ لها عندى مغزى آخر، هو أن ذلك تم فى أعقاب نشر مقالتى بـ«الشرق الأوسط» فى ٨/٩ التى كان عنوانها: إذا اعتبر حزب الله هو المشكلة، فقد تصبح القاعدة هى الحل. وفيه حذرات من استمرار الانحياز إلى إسرائيل من جانب الدول الكبرى وفى انسداد الأفق السياسى فى العالم العربى وقلت ما نصه إن ذلك «من شأنه أن يشيع درجة من اليأس، توفر ظرفا مواتيا لانتشار فكر القاعدة، الذى

يرفع شعار «العنف والسلاح هو الحل». وهو المعنى الذى اجتذب خطاب الجالية المسلمة فى بريطانيا التى اعتبرت سياسة تونى بلير فى الشرق الأوسط التى أصبحت تابعة وملحقة بالسياسة الأمريكية، تعد بمثابة المتفجرات التى يتم تقديمها إلى المتطرفين الذين يهددون حياة المدنيين فى بريطانيا.

فى موقف من هذا القبيل، فإن المرء لا يسعده بحال أن يقول كلاماً يطرح فيه تصوراً للمستقبل، ثم يكتشف أن نبوءته قد تحققت فى اليوم التالى أو فى بعض الأحيان يتمنى المرء أن تكذب الأحداث نبوءته كما فى الحالة التى نحن بصددها لكن ما جرى قد جرى على أى حال وما يهمنا أن الأصداء التى توقعتها أنا وغيرى لم تكن ضرباً من الخيال، وإنما هى بمثابة قراءة للواقع أثبتت الأيام صحتها، ولعلى لا أبالغ إذا قلت أن احتلال العراق إذاً قد استدعى تنظيم القاعدة إلى هناك، فإن نتائج أخطر وأبعد مدى يمكن أن تترتب على الفحش الإسرائيلى الحاصل فى غزة ولبنان، والفحش الأمريكى المتمثل فى مساندة الإسرائيليين والعمل على تمكين جرائمهم من أن تحقق أهدافها.

ما أعنيه على وجه التحديد هو أن هذه الممارسات من شأنها أن تعمم فكر القاعدة فى العالم العربى والإسلامى، وتحوله من نهج يلتزم به تنظيم بذاته إلى اقتناع سائد بين الجماهير العربية والإسلامية، وإذا لاحظت أن المتهمين فى مخطط الطائرات الذى تم الكشف عنه فى بريطانيا، كلهم من غير العرب، على العكس تماماً مما حدث فى ١١ سبتمبر فقد تجد فى هذه المعلومة ما يؤيد الفكرة التى ادعيها.

هل تكون هذه من سمات الشرق الأوسط الجديد؟

لا أتردد فى القول بأن دائرة العنف مرشحة بقوة للاتساع فى العالم العربى والإسلامى، وليس فى الشرق الأوسط فقط، ذلك أننا مقبلون على مرحلة يتوقع أن تتزايد فيها درجة الفحش خصوصاً فى لبنان والأراضى المحتلة فى فلسطين، فإسرائيل ستحاول أن تحقق من خلال الضغوط السياسية والتآمر الدولى ما عجزت عن تحقيقه من خلال العمليات العسكرية وهى لن تكون وحدها بطبيعة الحال، ولكن ستكون

وراءها ـ وربما أمامها ـ الولايات المتحدة، سيظل مطلوباً وبإلحاح ليس فقط قمع المقاومة التى خرجت من المواجهة مرفوعة الرأس وإنما أيضا اجتثاث جذورها لكى تصبح أمثولة، تردع أى فصيل فى العالم العربى والإسلامى يجرؤ على أن يقول لا لمخططات الهيمنة والتوسع والتركيع، ولسياسات المهانة والإذلال.

إن ثمة اتفاقاً بين أغلب المحللين والمعلقين على أن مؤشر العنف فى صعود وأن السياسات الإسرائيلية والغربية توفر أفضل مناخ لاستمرار ذلك الصعود من ثم فإن شعار الحرب على الإرهاب الذى رفعته الولايات المتحدة وما استصحبه من إجراءات غبية وسياسات شريرة، أصبح أكثر مصدر لتفريخ الإرهاب وتوسيع نطاقه.

وكذلك فنحن نتفق تماما مع السيدة كوندليزا رايس فى حديثها عن مخاض الشرق الأوسط الجديد الذى يوشك أن يولد فى المنطقة الآن، لكننى اقطع بأنه لن يكون منكسراً ومطواعاً ومنبطحا كما يراد له، بل سيكون شوكة فى حلق المتكبرين والمتغطرسين والظلمة وسفاكى الدماء. وإذا جاز لى أن أحدد بعضا من الملامح المرشحة لتشكل قسمات ذلك الشرق الأوسط الجديد فإننى أوجزها فيما يلى:

قلنا إن العنف سيكون إحدى سماته الأساسية، وهو لن يكون موجها ضد الإسرائيليين والأمريكيين وحدهم، ولكنه سيمتد لكى يشمل أعوانهم والمتواطئين معهم، وكل من عاونهم على محاولة إذلال العالم العربى.

وسأكتفى بما ذكرته من حيثيات فى هذا الصدد، وبالتالى فلن أزيد على ما قلته إزاء الوقوف الأمريكى والغربى السافر إلى جانب العدوان الإسرائيلى والإصرار على تمكين الإسرائيليين من قتل أكبر عدد من العرب، فإن توتر العلاقة مع الغرب وزيادة معدلات الكراهية والنفور فى سياساته وساسته يصبح ثمرة طبيعية، لذلك فلن يكون هناك مجال فى الأجل القريب على الأقل لا حديث عن مد الجسور وحوار الحضارات بين العالمين الغربى والإسلامى.

لا أظن أنه من الممكن العودة بسهولة إلىَ استخدام مفردات ـ هل أقول مخدرات؟ من قبيل مسيرة السلام وثقافته وخارطة الطريق واتفاقات أوسلو، وغير ذلك من

العناوين التى فرغت من مضمونها، وفقدت معناها حتى تجاوزت الأحداث بل لعلى أذهب إلى أن السلوك الإسرائيلى الفاحش ألقى بظلال كثيفة على إمكانية التعايش الإسرائيلى مع العرب وأقنعهم أكثر من أى وقت مضى بأن شعارات السلام التى رفعتها إسرائيل لم تكن سوى قناع استخدام لإخفاء وجهها القبيح وطموحاتها الشريرة.

فى الوقت الذى هدمت فيه إسرائيل - بين ما هدمته - إمكانية التعايش مع الشعوب العربية، فإن تلك الشعوب أدركت فى تجربة الحرب اللبنانية أن إسرائيل ليست سوى نمر من ورق، إنها كيان استمد قوته وجبروته ليس من ذاته، ولكن من ضعف واستخذاء الأنظمة العربية، الأمر الذى اقنع العقل العربى بأنها كيان قابل للهزيمة إذا ما ووجه برجال يملكون إرادة التحدى والصمود ولا يهابون الموت.

من بين السمات المهمة للشرق الأوسط الجديد أيضاً أن مجتمعاته ازدادت ثقة فى نفسها، فى حين اتسعت الفجوة بينها وبين الأنظمة. فى الوقت ذاته فإن ثقة هذه المجتمعات تلاشت وانعدمت فى المنظمات الدولية خصوصاً مجلس الأمن بعدما تبين أن تلك المنظمات ليست سوى ألاعيب فى يد الأمريكان والإسرائيليين.

ربما جاز لنا أن نقول أن الشرق الأوسط الجديد سوف يشهد صعوداً لدور حركات المقاومة الإسلامية، يعترف بتلاحم على هذا الصعيد بين الحركات السنية والشيعية. لكن نقطة الضعف التى يمكن أن تعطل ذلك التلاحم المنشود تتمثل فى ممارسات الجماعات الشيعية المتعصبة فى العراق.

إن الشرق الأوسط الجديد لن يكون ذلك المولود الذى تمنته السيدة «كوندى» ولا استبعد أن يصبح كابوساً يؤرق منامها.

❀ ❀ ❀

إنهم يستحضرون العفاريت..
ثم يطالبوننا بصرفها!

مقالة للأستاذ/ فهمى هويدى....

بعد خمس سنوات مما سمى بالحرب العالمية ضد الإرهاب، قرأنا تقريراً لرئيس وحدة مكافحة الإرهاب فى بريطانيا (بيتر كلارك) أعلن فيه أن الموقف فى بلاده «مقلق جدا». أيد ذلك الانطباع تقرير لجنة الاستخبارات والأمن البريطانية. وذكر أنه فى عام ٢٠٠١ قدر جهاز الاستخبارات الداخلية عدد المسلمين المشتبه فيهم بحوالى ٢٥٠ شخصا. هذا الرقم تضاعف سنة ٢٠٠٤ حتى وصل إلى ٥٠٠ شخص. وفى العام الذى تلاه تزايد عدد المشتبهين من المسلمين إلى ٨٠٠ شخص. أما بعد تفجيرات لندن عام ٢٠٠٥ فقد وصل عدد المشتبهين المسلمين إلى آلاف لم يتم حصرها بعد، أو لا يراد الإفصاح عنها فى الوقت الراهن. هذا التزايد فى أعداد المشتبهين تزامن مع تزايد مماثل فى أعمال واحتمالات العنف فى بريطانيا، والتى أعلنت عنها الأجهزة الأمنية، إذ بعد تفجيرات القطارات التى شهدتها لندن فى يوليو (تموز) عام ٢٠٠٥، أعلن فى شهر أغسطس (آب) من العام الحالى عن القبض على مجموعة من ٢٠ شخصاً قيل إنهم ضالعون فى مخطط تفجير طائرات متجهة إلى الولايات المتحدة. وقبل أيام قليلة فى (٢/٩ الحالى) تم اعتقال ١٦ شخصا جديداً تطبيقاً لقانون الإرهاب. وحسب توجيهات المصادر الأمنية، فإن هذه المجموعات مستقلة، ولا علاقة بين بعضها البعض، الأمر الذى استنتج منه الخبراء أن ثمة تعددا فى الخلايا التى يشتبه فى إقدامها على عمليات إرهابية داخل بريطانيا.

لم تكن المنظمات الإسلامية فى بريطانيا وحدها التى أعلنت أن سياسة حكومة بلير فى الشرق الأوسط، بوجه أخص منذ مساندتها للولايات المتحدة والاشتراك معها فى غزو العراق، كانت من بين الأسباب التى فجرت مشاعر التعصب بين الشبان المسلمين فى بريطانيا، ذلك أن هذا التحليل أصبح محل اتفاق بين أغلب المثقفين الإنجليز الذين عبروا عن آرائهم فى هذا الصدد فى العديد من التعليقات الصحفية والبرامج التليفزيونية، بل إن هذا هو أيضاً رأى المسؤولين عن أجهزة الأمن، وهو ما تجلى فى التصريح الذى أدلى به لهيئة الإذاعة البريطانية بيتر كلارك رئس وحدة مكافحة الإرهاب فى شرطة اسكوتلانديارد، وتحدث فيه عن تعلق الشبان المسلمين الإنجليز بالحاصل فى العراق، وكان من الخلاصات المهمة التى خرج بها مراسل «بى بى سى» بعد أن حقق فى الأمر طيلة عام كامل، أن الصراع فى العراق هو السبب الرئيسى لتطرف الشبان المسلمين هناك.

بشكل مواز، أعلنت الشرطة الألمانية أن الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبى عليه الصلاة والسلام والتى نشرتها الصحف الغربية، كانت الدافع الرئيسى وراء المحاولتين الفاشلتين لتفجير قطارين غرب ألمانيا خلال شهر يوليو الماضى، أثناء استضافة ألمانيا لبطولة كأس العالم لكرة القدم، بحسب ما ذكرته صحيفة «فيست دويتش» الألمانية فى (٩/٢)، إذ نقلت الصحيفة تصريحات لرئيس الشرطة الفيدرالية الألمانية، يورج زيركير قال فيها إن المشتبه فيه الرئيسى فى الهجمات، يوسف الحاج ديب، اعترف خلال التحقيقات بأنه بدأ التخطيط لتفجير القطارين بعد تواتر نشر الرسوم المسيئة للرسول فى العام الماضى، حيث شرع فريقه فى مراقبة مواعيد القطارات تمهيداً لتفجيرها وتوصيل رسالة الاحتجاج والغضب إلى المجتمع الغربى.

ما الذى يعنيه ذلك؟

لا يحتاج المرء إلى بذل جهد كبير للإقرار بأن ما سمى بالحملة على الإرهاب حققت فشلاً ذريعاً. ليس ذلك فحسب، وإنما كانت سبيلاً إلى توسيع دائرة الإرهاب وتعميمه، وهى خلاصة مهمة. يستغرب المرء كيف أن أصحاب القرار فى الدول التى أعلنت تلك

الحرب المزعومة لا يريدون الاعتراف بها، ويصرون على استمرار السياسة نفسها التى أوصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، وتتضاعف دهشة المرء حين يقرأ وسط هذه الأجواء كلاما صدر عن الرئيس بوش، قال فيه أنه إذا لم يتم دحر الإرهاب فى بغداد، فإنه سيتعين على الأمريكيين وقتئذ محاربته فى شوارعهم. فى إشارة موحية تثير الشك فى مسلك المسلمين الأمريكيين. وفى الغرب عموماً.

لابد أن يلاحظ فى هذا الصدد أن العالم الإسلامى شهد خلال الفترات الخمس الماضية ما لا حصر له فى الإجراءات والمراجعات التى يفترض أنها تعبير عن التجاوب مع الحرب المفترضة ضد الإرهاب. وبصرف النظر عن رأينا فى جدوى ومدى الصواب فى تلك الإجراءات، فالشاهد إنها حدثت، فى حين أننا لم نجد خطوة واحدة فى الجانب الآخر، موحية بأن ثمة مراجعات من جانبهم، سواء فى السياسات والمواقف التى استفزت الضمير الإسلامى وأهانته، أو فى الخطاب الإعلامى الذى مازالت تحمل أصداء وبصمات الحروب الصليبية بما تضمنته من تحريض واستثارة ضد المسلمين كافة. وذهب بعض الساسة الغربيين إلى أبعد، الأمر الذى تجلّى فى استخدام الرئيس بوش لمصطلح الفاشية الإسلامية، اشك فى أنه يعرف المدلول الحقيقى لكلمة الفاشية كما حدث فى إطلاقه وصف الحروب الصليبية عنوانا للحرب ضد الإرهاب. تجلى ذلك التحامل أيضاً فى غمز رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فى الثقافة الإسلامية وتحقيرها من جانب برلسكونى رئيس الحكومة الإيطالية السابق.

استمرار هذا الموقف لا يبشر بالخير، ذلك أن من شأن تلك التعبئة المعادية للمسلمين والجارحة لهم أن توقظ لدى المواطن الغربى شعوره بالتوحش والبغض إزاء المسلمين، خصوصاً المقيمين منهم فى الغرب، (عددهم فى أوروبا والولايات المتحدة بين ٢٥ و٣٠ مليون مسلم). ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى تعميق الفجوة بين المسلمين والمجتمعات المحيطة بهم ونحن لا نتحدث عن افتراضات لأن ذلك حدث بالفعل ليس فقط فى الولايات المتحدة التى يتحدث ممثلو المنظمات الإسلامية فيها عن تزايد مستمر فى مظاهر الكراهية للمسلمين فى مختلف الولايات، ولكن ذلك حاصل أيضاً فى أوروبا، التى كنا إلى عهد قريب نعتقد أنها أقرب إلى العالم العربى

والإسلامى، ومن ثم أكثر فهماً له وتجاوباً معه. ورغم أن دلك الانطباع لا يزال صحيحاً إلى حد كبير، إلا إننا ينبغى ألا ننكر أن مظاهر الخوف والقلق زحفت إلى بعض القطاعات، حتى فى بريطانيا التى لها رصيدها المعتبر فى احترام تعدد الثقافات.

وفى إسبانيا التى تحتل مكانة خاصة فى الذاكرة العربية، بحسبانها صديقة للعرب والمسلمين. فى هذين البلدين بوجه أخص تعددت فى الآونة الأخيرة وقائع النفور من المسلمين والتوجس منهم، إلى الحد الذى دفع بعض ركاب الطائرات إلى الامتناع عن الصعود إليها لمجرد أن بين الركاب عدداً من المسلمين!

فى هذه الأجواء تصبح مسألة التعايش بين الجاليات المسلمة والمجتمعات الغربية فى خطر، ولا يغدو هناك محل لأى حديث عن حوار الحضارات، لكن أخطر ما فى الأمر أن المناخ سيظل مهيأ لمزيد من مظاهر العنف، الذى قد يدفع إليه نفر من أبناء المسلمين الذين أصبحوا مواطنين فى تلك الأقطار.

ما العمل إذن؟

للأسف، لا يبدو أن فى الأفق حلا ممكنا لذلك الإشكال. فالعالم العربى والإسلامى لا يملك الكبير الذى يمكن أن يفعله، فى الوقت ذاته فإن السياسيين الغربيين الذين نسمع أصواتهم فى الأقل، ليسوا على وعى كاف بأن السياسات الغربية فى المنطقة هى العامل الأكثر تأثيراً فى تفجير مشاعر الغضب بين شباب الجاليات المسلمة فى أوروبا والولايات المتحدة؛ وبالتالى فإنهم لا يرون جذور المشكلة، يصرون على التعامل مع تداعياتها وأصدائها، ولا يريدون أن يعترفوا بأن إصرارهم على قهر المسلمين وإذلاهم هو المفجر الأول للمشاكل التى يعانون منها. وأية عوامل أخرى اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية، تأتى تالية فى الترتيب، على الحاصل فى فلسطين والعراق من جرائم لها امتدادها التى تابعناها فى أفغانستان ولبنان.

إننا نقرأ تصريحات للرئيس بوش يتحدث عن ضرورة التعامل مع جذور المشكلة، وذلك كلام طيب، لا نلبث أن نكتشف فى نهاية المطاف أن التعامل مع الجذور يراد به التسليم بالحلول التى تريدها إسرائيل وتستجيب لطموحات الهيمنة الأمريكية فى المنطقة.

لقد بحت الأصوات فى العالم العربى من كثرة الحديث عن نبذ العنف وضرورة الاعتدال. والالتزام بالوسطية والتسامح و.. و.. الخ لكن تبين أن هذا كله لا يمكن أن يحقق مردوده داخل العالم العربى أو خارجه طالما استمر إرهاب الدولة الإسرائيلية ليس فقط فى فلسطين وإنما وجدناه فى لبنان مؤيداً من قبل الدول الغربية الكبرى، وطالما استمر الاحتلال فى العراق.

فى الأمثال العامية المصرية أن الذى استحضر العفريت هو الذى يتعين عليه أن يصرفه، لكن الغربيين فى حالتنا هذه يستحضرون «العفاريت» ثم يطالبوننا نحن بصرفها!



فِهرِسُ المُحتَوَيَاتِ

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

ـ الفصل الخامس

الفصل السادس